

التراث الغامض ماركس والماركسيون

تأليف

سدي هوك

رئيس قسم الفلسفة - جامعة نيويورك

ترجمة ودراسة

سكيد كامل زهران



التراث الغامض
ماركس والماركسيون

التراث الغامض ماركس والماركسيون

تأليف

سدي هولك

رئيس قسم الفلسفة - جامعة نيويورك

ترجمة ودراسة

سعيد كامل زهران



الجمعية المصرية لدراسة الكتاب

١٩٨٦

تصميم الغلاف : محمد قطب

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

سدنى هوك

(٣٠ ديسمبر ١٩٠٣ - ١٩٩٠)

أستاذ زائر بجامعة هارفارد ، كاليفورنيا وسان داييجو ، ويعد من أبرز أساتذة الفلسفة الأمريكية ، شارك في تأسيس الجمعية الأمريكية للحريات الثقافية - مجلس الحريات الثقافية المركز الأمريكى للبدائل العقلية بجامعة نيويورك معهد الفلسفة - رئيس جمعية جون ديوى .

من مؤلفاته :

تعليم الانسان الحديث ، نعم المهرطقة لا للتأمر ، السلطة السياسية والحريات الشخصية - وقع الدين فى المجتمع الحر ، البرجماتية والمفردى المأساوى للحياة ، الثورة ، الاصلاح والعدل الاجتماعى ، الفلسفة والسياسة العامة ، الجبرية والحرية فى عصر العلم الحديث ، فكرة الجامعة الحديثة ، البطل فى التاريخ : دراسة فى الحدود والممكنات (الكتاب الوحيد المترجم له للغة العربية ، ترجمة عدنان الجابرى) .

مقدمة للمؤلف

هذا الكتاب الجامع للشرح والتفقد والقراءات النصية الوثائقية ، يعد كمقدمة لدراسة النظرية والممارسة في الماركسية . ومن الواضح انه لا يمكن فهمه في اطار تحليلاته أو الاقتصار عليها فقط . فلم يوضع في الاعتبار نظرا لضيق اطار الكتاب . بعض التيارات الفكرية . على سبيل المثال ، النقابية (السنديكالية) والاشتراكية النقابية والتي لها علاقات تماس مع التيارات الرئيسية للفكر الماركسى . فلقد اجتهدت فقط لأضع أمام القارئ الموضوعات الأساسية التي ميزت الماركسيين عن غيرهم ، وبينهم بعضهم البعض .

أدى تطور الماركسية كحركة الى بعض التناقضات البارزة والتي جعلت من الصعب الاحتفاظ بالقوالب والمفاهيم التقليدية . فحيثما انتصرت الماركسية كحركة . كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي ، فشلت مثلها الاشتراكية أو تمت خيانتها ، وحيثما فشلت كحركة حققت أفكارها تقديما ملحوظا . ويبدو كما لو أن التاريخ ذاته قد أذنب لكونه أقل ماركسية .

أوضحت أحداث الخمسة والعشرين عاما الأخيرة (فترة ما بين الحربين العالميتين) كم هو هام معرفة الأفكار والحركات التي نوقشت في هذا الكتاب باعتبارها تناولا عقلانيا للشئون السياسية . انه لمن المريح افتراض لو كان روزفلت وتشرشل قد تعلمتا بطريقة أفضل لكائنا قد أعدا اعدادا أفضل الاستراتيجية السوفيتية للحرب الباردة . لكن ثمن الجهل قد يكن فقدان الحرية على أحسن الفروض .

أقصى ما يمكن لكتاب من هذا النوع القيام به هو إثارته لاهتمام القارئ. نحو نقطة يكون متطلعا لاكتشاف المزيد حول الموضوع الذي تعالجه . سواء كان ذلك ناجحا بهذا الخصوص أم لا ، فسوف يحكم كل قارئ بنفسه .

سدنى هوك

نيويورك

مقدمة

ترسخ في الأذهان أن الترجمة عمل ثقافي من المرتبة الثانية حيث يخلو الجهد المبذول فيها من لحظة الخلق والابتكار أو الجدة والأصالة الملزمة لكل عمل إبداعي ، وكون عمل المترجم يقتصر على النقل من الوعاء اللغوي الأصلي للعمل الفكري إلى وعاء آخر لا يعنى ذلك اقتضاده لقيمة الدور الحضاري بل هو تعبير عن إحدى العمليات الأساسية المطلوبة لتشكيل الحضارة واتصالها وتفاعلها . حدث ذلك ويحدث مع بدايات كل نهضة ، ففي بداية عصر النهضة العربية الإسلامية ازدهرت حركة الترجمة عن اليونانية والسريانية إلى العربية ، وتعرف المسلمون على الفلسفة اليونانية وآدابها ، وعندما أبدع العرب وأضافوا للحضارة الانسانية في الفلسفة والمنطق والعلوم ، ازدهرت حركة الترجمة عن العربية في أوروبا . وفي عالمنا المعاصر حيث ثورة المعلومات والاتصال وظهور أشكال وصيغ جديدة للاستعمار الثقافي الذي يحاول طمس هوية الشعب ، تطرح على المثقفين الوطنيين في مجتمعنا العربي الاسلامي مهمة مقدسة بالتصدي النقدي الواعي للكثير من النظريات والايديولوجيات التي تلمع العلم وتنقش بشعارات الدفاع عن الجماهير والشعوب وتحريرها من القهر الطبقي والاستغلال الاقتصادي والسلطة الدينية وتبشرهم بمجتمع لا طبقي تتلاشى فيه الدولة كأداة للقهر والقمع وتكريس مصالح الرأسماليين ، وفي الواقع الفعلي قدمت الكثير من تطبيقاتها دلائل زيفها بالتراجع عن شعاراتها الضخمة ادعانا لمتعضيات الواقع أو بالمراجعة أو التجديد .

والفلسفة الماركسية ينسقها الشمولى المغلق وطابعها الكوني تعد من أهم الفلسفات المعاصرة وأكثرها اثارة لردود فعل ومواقف متباينة ، بل وحمل تاريخ تطورها مفارقات عديدة ، فعلى سبيل المثال من الزاوية الفلسفية طرحت ذاتها باعتبارها فلسفة علمية تسعى لتفسير الكون استنادا لقوانين علمية ومجموعة من المبادئ والقوانين وتعرف بالمادية

الجدلية ، وفي نهاية المطاف انتهت الى كونها عقيدة فلسفية تسمى **جاهدة** لاحتلال موقع الدين وأداء دوره ، فاصطلحت بكثير من النظريات العلمية والاكتشافات التي تعارضت مع كتبها المقدسة ، واعتبرتها من وجهة نظر اللاموت الماركسي مجرد أطروحات برجوازية (مثال الموقف الماركسي من نظرية النسبية ٠٠) بل واحتلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي مكانة مجالس الاكديروس في العصور الوسطى ، ومن الزاوية السياسية طرحت الماركسية ذاتها باعتبارها السلاح الايديولوجي الفعال لخلاص الطبقة العاملة وتحررها وانعتاقها من ريقة العمل المأجور والاستغلال الرأسمالي سعيا لبناء مجتمع شيوعي تتلاشى فيه الملكية الخاصة وآثامها والدولة وجهازها القمعي ، وطرحت نفسها باعتبارها الاشتراكية العلمية التي نستند للعلم وقوانينه في تحليل الواقع وتأكيدا على طابعها الكوني حاربت بضراوة النزعات الاقليمية والقومية التي تعد في نظرها نزعات برجوازية. واعتبرت الماركسية ذاتها كحركة أممية تتخطى كل الحواجز الاقليمية والقومية وفي نهاية المطاف استبدلت في الواقع الفعلي خطايا الاستغلال الرأسمالي بمستنقع آثام المسؤولية واحكام قبضة الحزب الشيوعي على رقاب الحركة العمالية وأصبح الارهاب الشيوعي أشد فتكا وضراوة ، والنظرية التي ادعت العلمية وتعبيرها عن روح التاريخ وتطوره الحتمي فرضت وانتشرت وكوست بقوة السلاح والمؤامرات السياسية من خلف ظهر الحركة السياسية والتاريخ معا وانقسم العالم الشيوعي نتيجة لعوامل كثيرة من أهمها العامل القومي الى شيوعية سوفيتية وشيوعية صينية وأضيفت الشيوعية الأوروبية . بل ازدادت حدة التدخلات السوفيتية العسكرية (المجر ٠٠) فيما عرف باسم الهيمنة أو الامبريالية السوفيتية في مواجهة الامبريالية الأمريكية . وأخيرا وليس آخرا التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان . وعندما يتعاظم دور وفعالية حركة وطنية في أحد البلدان ذات الحكم الشيوعي . محاولة توسيع رقعة الممارسة الديمقراطية والمشاركة في صياغة السياسة الوطنية . تواجه الحركة الوطنية والعمالية بالقمع والتشويه والاتهام بالعمالة حتى يستحيل التفرقة بين القماموس والمستخدم لدى الشيوعيين عما هو لدى الرأسماليين والرجعيين ٠٠ كما هو حادث في بولندا (١) .

(١) من المفارقات الصارخة تعقيب أحد القيادات الماركسية المصرية في معرض تناوله لأحداث بولندا بأن (الطبقة العاملة البولندية قد خرجت على حزبها وطنيبتها وانحرفت عن المسيرة . ضاربا بعرض الحائط كل القولات الماركسية لصالح تبرير موقف سياسي رافض فكما هو معروف في الأدبيات الماركسية يعد الحزب وحركته تميرا عن مصالح طبقية معينة وليس العكس .

وهذا الكتاب (ماركس والماركسيون) : (التراث الضامض)
للبروفيسور «سدني هوك» رئيس قسم الفلسفة بجامعة نيويورك . يعد من
الكتب الجادة التي تتميز بالعرض الموضوعي والأمانة العلمية لأبعد الحدود
ويعد خلوا من مسحة التعصب الايديولوجي أو الادانة المسبقة . فلقد اعتمد
المؤلف على نقد نظريات ماركس وأتباعه من الرواد والأعلام الماركسيين
باختلاف نحلهم وفصائلهم باظهار التضارب والتناقضات الداخلية في بناء
النظرية وروابطها . والاستناد لما آلت اليه الممارسة الفعلية . وفي رأيي
الشخصي أن قيمة هذا العمل تتجاوز قيمة كتاب الفيلسوف الفرنسي
جارودي « ماركسية القرن العشرين » الذي كان ايدانا يتراجع عن
الماركسية حيث انتهى باعتناق الدين الاسلامي منذ عامين .

لذا أقدم هذه الترجمة بغية سد نقص في المكتبة العربية . لاحتوائه
على عرض شامل ومبوب وتقدي للقارئ العربي الذي أثقل ذهنه ذلك الكم
الهائل من الكتب والأعمال الماركسية في شتى المجالات حتى في مجال
التعامل مع التراث العربي الاسلامي وصبه في قالب الماركسي الجاهز (١) .
ولم يتوفر له سوى الأعمال التي تحمل ادانة مسبقة للماركسية دون تحليل
علمي نقدي لها . مما يفقدها الفاعلية والتأثير .

وكنت أرجو أن يكون ذلك عملا ابداعيا خالصا وذلك ما أحرص
عليه وأعد القارئ به .

وان كان ثمة قصور في هذه الترجمة فأرجو ألا يحجب عني وعن
القارئ الوصول للموقف النقدي الواعي الذي أرجوه .

سيد زهران

د/س ١٩٨٥

(١) أبرز مثال على محاولات تفسير التراث العربي الاسلامي وفقا للمهج الماركسي .
محاولة طيب تيزيني « من التراث الى الثورة : حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي
حيث قدم صورة مشوهة للتراث بعد أن تقطعت أوصاله لبوائم المخطط الجاهز المرسوم
مسبقا . فضلا عن تضارب تحليلاته » .

الباب الأول

ماركس والماركسيون

الفصل الأول

اسهامات كارل ماركس

١ - نحو فهم ماركس :

يعتبر كارل ماركس Karl Marx واحدا من أهم الشخصيات الفعالة فى التاريخ الانسانى ، ولقد نظر اليه باعتباره الملهم لأكبر الحركات الجماهيرية عبر التاريخ الحديث، من وجهة نظر أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أتباعه أو المنظمات التى أسسوها .

وقد تجاوزت هذه الحركات وتعالى فوق الروابط القومية والعرقية والحدود القارية ، ولم يتضاءل حجم أتباع ماركس الا فى المجتمعات الانجلو سكسونية مقارنة ببقاى بلدان العالم ، نظرا لامتداد تأثير تطبيق أفكاره فى المناطق الأخرى ، ويظهر ذلك فى انجلترا والولايات المتحدة بشكل خاص ، متمثلا فى اداة وتجريم ماركس حتى قبل أن يقرأ، وفى الجانب الآخر قد انبعثت ديانة جديدة تعتقد بالوهية التاريخ ورسالة ماركس النبى الأساسى لها .

ولقد أدى التعميد المتزايد وترايط الحضارة الحديثة الى جعل أفكار كارل ماركس أكثر عملية وبوجه خاص بالشكل الذى تم تأويلها به واكتسبت تأثيرا ملحوظا على مستقبل العالم الانجلوسكسونى Anglo-Saxon وخصوصا الولايات المتحدة وهذا أحد الأسباب لحد أى انسان مفكر لكسب بعض

الألفة والتعود على هذه النظريات ، وتطورها ، وتأثيرها
الحالى على الحياة السياسية المضطربة فى عصرنا .

فى العديد من المواقف ليس الماضى الفعلى هو الذى يحدد
الحاضر الى حد بعيد الا بالقدر الذى يتصور به الناس كيف
كان هذا الماضى . وبالمثل مع ما قدمه المفكرون العظام من
أفكار فى الماضى . فان مايؤثر فى الحاضر ليس ما قاله أو كان
يعنيه المفكر بالفعل بقدر ماهو الشكل الذى أول وفسر به
لكى يقول أو يعنى . يؤخذ ذلك كقاعدة عامة باستثناء
العلوم الطبيعية . ومن بين عدد محدود من الشخصيات يصدق
هذا الرأى على ماركس أكثر من غيره فلقد تأثرت هذه
التفسير والتأويلات المتباينة بالحاجات والمصالح المعاصرة ،
وهذا يفسر السبب فى صعوبة التأكد من المعتقدات الفعلية
لشخص يدعى أنه ماركس أكثر من التأكد من المعتقدات
الفعلية لشخص يدعى أنه مسيحي . ومع ذلك ، رغم أنه
صعب الا أنه ليس مستحيلا أن تحدد بمصادقية معينة ماكان
ماركس يلقنه ويعتقده بالفعل . وينبغى أن تفحص أى
فرضية حول المعنى الفعلى لنظرية ماركس باعتبارها فرضية
حول مسألة الواقع التاريخى يتم تمحيصها بواسطة القواعد
الأساسية للتحقق كما نفعل مع المشكلات والمسائل التاريخية
الأخرى .

ويستخلص المذهب الفعلى فى حالة ماركس بصعوبة من
خلال ظروف حياته ومناسبات كتاباته . فهو لم يكن صاحب
اهتمام أكاديمى بالأفكار لذاتها بل عنصرا ثوريا فعلا طور
وقدم أفكاره فى محاولة للتأثير فى مجريات الأحداث . وكان
مجادلا عنيفا ولاذعا فى هجومه على من يتبنون مواقف
معارضة له ، يؤكد أحيانا على نقطة معينة وعندما تصبح
هذه النقطة فى وقت لاحق غير ذى بال وتتجاوزها الأحداث

أو تخطئها المناقشات فانه لا يتورع عن تبني نقيضها . ولا يوجد أى تفسير محبوب ومرتب لكل أفكاره الأساسية وعلاقاتها ببعضها البعض . لقد كتب ماركس فى زمن لم يكن للدقة فيه قيمة كبيرة ، وعندما كانت مفاهيم الاحصاء والاحتمالات للقانون العلمى فى مرحلة المهد ، وعندما كان طموح العلوم الاجتماعية أن تصبح ذاتها على شاكلة طبيعيات العصر . وغالبا ماتعكس مصطلحات ماركس تراثه الهيجلى . وتبدو معظم صيغه غامضة . ولقد اتهمه النقد الصادق بعدم الترابط الجلى والتناقض الداخلى لأساس نظريته ، بينماتقبل المعجبون غير الناقدين له كل كلمة قالها حتى لو تناقضت معها نتائجها . ولقد تفاقمت كل هذه الصعوبات بعد أن أصبح ماركس رمزا سياسيا يثير ردود أفعال أكثر من كونه مفكرا متميزا .

٢ - حياته :

ولد ماركس عام ١٨١٨ فى مدينة صغيرة رينيش Rhenish بمقاطعة تريير Trir التى تفتخر بأصولها كقاعدة رومانية مشهورة فى العصور القديمة . وينتمى بوالديه لسلسلة طويلة من حاخامات اليهود . ولأسباب اجتماعية تحول والد ماركس الى البروتستانتية Protestantism ونشأ ابنه بلا أى وعى بأنه يهودى . وبعد أن اجتاز ماركس فترة الدراسة الأولية بتفوق وتقدير ملحوظ ، التحق لفترة وجيزة بجامعة بون ثم جامعة برلين حيث أظهر تفوقا واضحا واهتماما قويا بدراسة القانون ، وفقه اللغة ، واللاهوت . وحتى اكماله لاطروحة الدكتوراه (١) كان يعمل محررا

(١) انجزها ماركس عام ١٨٤١ « الخلاف فى فلسفة الطبيعة بين ديمقراطيس وأبيقور رغم استناده لمحاضرات فى تاريخ الفلسفة لهيجل الا أنه لم ينفق منه عداؤه لنزعة أبيقور »

Rhenische Zeitung والتي سرعان ما صودرت بسبب ميولها الليبرالية الواضحة ثم تزوج ماركس عام ١٨٤٣ . وسافر الى باريس حيث انغمس في دراسة الشيوعية الفرنسية والاقتصاد السياسي . وقابل فريدريك انجلز ابان وجوده في باريس وكونا صداقة دامت طيلة حياتهما . ولقد ساهم انجلز وهو ابن لأحد أصحاب المصانع في صنع أفكار ماركس وساعده وطورها وأكسبها شعبية . وأزاح عن كاهله عبء البؤس الساحق وعن أسرته . وذهب ماركس الى بروكسل **Russels** منفيا من باريس حيث انضم الى الرابطة الشيوعية **Communist League** وكتب البيان الشيوعي **Communist Manifesto** عشية اندلاع ثورة ١٨٤٨ (١) وقام بدور فعال في المساعدة على تنظيم ثورة ١٨٤٨ في اوروبا الغربية ، ثم أبعد عن بروكسل واعتقل ، وأطلق سراحه في ألمانيا ، ثم أجبر على مغادرة فرنسا ثانية . وفي النهاية وجد ملجأ ومعتكفه السياسي في لندن حيث قضى بقية حياته في البحث والكتابة ، وفي تنظيم الاتحاد الدولي للعمال . وقام بنشر القليل من أعماله ابان تلك الفترة حيث نشر الجزء الأول من رأس المال **Capital** رغم أنه ترك النسخ الأصلية لأجزاء عديدة منه قبيل وفاته .

ولم يحظ ماركس بالذيع والشهرة الا مؤخرا ، فعندما مات في ١٨٨٣ لم يهتم به وبدوره وعمله الا عدد محدود من خارج دائرة أتباعه وأنصاره السياسيين . ومما يثير الدهشة والاستغراب فشل أتباعه في شرح تأثير حياة

= المادية بل أقر بفضلها في انتاذا امكانية الحرية الضرورية بالتعارض مع نزعة ديمقريطمس
الحمية ووجه لوما لايقور لعلم ادراكه العلاقة الجدلية بين الضرور قوالرية (المترجم) .
(١) آخر الفورات الفرنسية الثلاث (١٧٨٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨) وبلاستنادة الى
احداثها في أعوام ٤٨ - ١٨٥٢ ، جسد ماركس مفهومه عن الدولة باعتبارها (الآلة الحربية
القومية للرأسمال ضد العمل - (المترجم) .

ماركس الخاصة ونظريته على مسار المجتمع • فريما توجد حركات اشتراكية بدون كارل ماركس • ولكن تاريخها وتكوينها يحملان الطابع الذي لن يمنعه الا شخصية وأفكار ماركس •

٣ - تطور ماركس العقلي :

تطورت أفكار ماركس وآراؤه الذاتية عبر مسار دقيق من التطور ابان الفترة التي كانت ألمانيا فى مؤخرة دول أوروبا الغربية من الناحية الصناعية والسياسية ، وحيث كان مفكروها يتصفون بالجرأة والتطرف • ولقد وقع ماركس فى جامعة برلين تحت تأثير الفلسفة الهيجلية (١) والتي تفسر العالم باعتباره عملية ديناميكية وروحية تكشف عن ذاتها عبر تطورها كنظام عقلانى • وتعتبر أن ما يحدث وما قد حدث مؤخرا فى الزمان هو الأفضل كيفا • وبالنسبة لعين الديالكتيك (الجدل) dialectic الفاحصة فان كل ما هو واقعى حقيقة قد وجد ليكون ضروريا وعقلانيا • وفى أى حقبة زمنية معينة ، ورغم المظهر الخارجى وان «الله فى سمائه ، وكل شئ فى العالم خير» • فان شرور الجزء جوهرية لاجل خير الكل المتطور • والحق يوجد فقط فى الكل المكتمل، واجتزاء منه ، فان لكل عصر حقيقته الجزئية •

يحتل الوعي الكونى أو الروح spirit لدى هيجل مكانة الله فى الدين التقليدى • ويتسم تاريخ العالم بمراحل تطوره نحو المرحلة التي تظهر فيها الضرورات الكامنة للوجود

(١) تنسب الى جورج فلهلم فردريك هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) الفيلسوف الالمانى واحد اعظم الفلاسفة تأثيرا ، حيث خرجت معظم الفلسفات المعاصرة من تحت عيانه ، وكان لنتجه الجدل تأثير على فلسفة ماركس المادية الجدلية ، ويعد هيجل بحق من رواد فلسفة التاريخ (المترجم) •

باعتبارها حرية جليلة للوعى - وتشكل «روح العصر» مجمل الحضارة culture وتمنحها نمطا سائدا في التفكير والشعور وتربط الأفكار والأحداث ، وبعيدئذ تمهد الطريق لنمط آخر تستمر خلاله وتتحول اليه - ولا يمكن فهم أية ظاهرة حضارية الفهم الصحيح بدون وضعها داخل نسيجها فى اطار نمطها .

ولقد أكد «الجناح اليسارى» الهيجلى على جوهر وعامل التقدم فى فكر هيجل أكثر من منظومته ومذهبه - وبالنسبة لهم ليست الروح خالصة مطلقة أو عقلا بلا جسدا وتجريدا منطقيا ولكنها الحياة الكلية للحضارة ، والتعبير عن طاقاتها المنظمة - ولم يكونوا مقتنعين بأن لفكرة «روح العصر» ذلك التاريخ الذاتى والمستقل وتأثيرها السيئ على انبثاق وازدهار وانهايار الحضارات - وبعيدا عن تفسير أية أحداث فان «روح العصر» spirit of time تبدو بذاتها وكأنها تتطلب مزيدا من التفسير ذلك لانها تختلف من مكان لآخر ومن مرحلة لأخرى ، ولكونها قادرة فى قطر على القيام بعمل ما مثل الغاء العبودية ودون قدرتها على اتيان مثله فى قطر آخر .

ولقد ساهمت ثلاث شخصيات بارزة من اليسار الهيجلى (١) فى تحرير ماركس من ريقة المذهب الهيجلى Hegelian orthodoxy أولهم هو ستراوس D. F. straus باعتباره الروح spirit القوة المشتركة الخلافة للأساطير أو العقل الجمعى collective mind ، ذلك بالاشارة بشكل خاص

(١) حركة اليسار الهيجلى ركزت على التهج الجدل لاستكشاف الصيرورة وتناقضاتها كصلاح تقدى ضد النظام الحاضر ، ووجدت لدى هيجل انجيل تأليه الإنسان ، وهى تتعارض مع «اليمين الهيجلى» الذى ركز على النظام الحاضر وتبريره . (المرجع)

الى الدين وظهور المسيحية (١) ثم برنوباوور **Bruno Bauer** الذى خفض قيمة الروح وأرجعها الى الوعي الفردى وفسر العقيدة والاسطورة الدينية على أنها من ابداعات الرواة المهرة للقصص الهادفة وكان يعتقد بأنه فى أية لحظة محددة لاتزيد «روح العصر» عن كونها مركب جمعى للمشاعر المتفاعلة ، ولرغبات ، وأفكار الأشخاص المفردة ، والذين يكون بعضهم أكثر موهبة ومقدرة على الاقناع من الآخرين . واستكمل لودفيج فيورباخ (٢) **Ludwig Feuerbach** دائرة هذا العمل الفكرى ، وأرجع عمل «الروح» الى وجود الحاجات، الرغبات ، والنقص فى حياة الانسان . واعتبر كل الأديان العالمية والفلسفات مجرد اسقاط **projection** للحاجات الانسانية أو تعويض واشباع لها . فلا يوجد خارج الطبيعة والمجتمع أى وعى أو روح . وتعتبر «الانثروبولوجيا **Anthropology** (دراسة الانسان) سر اللاهوت . قالناس يصنعون الآلهة فى تخيلاتهم الأخلاقية ، والتى تنبثق من جذور اجتماعية ونتيجة لعدد من الأسباب الفنية **technical** ويمثل ما هو بسبب التداعيات الخاطئة لمصطلح «المادية **materialism**» والتى تفترض ذاتية مطلقة وعبادة اللذة، اعتبر فيورباخ نفسه ماديا وانسانيا .

(١) حيث كان كتاب ستراوس (حياة المسيح) المنشور عام ١٨٢٥ . أثر بالغ على اليسار الهيجلى ، وقادهم الى الاتحاد بفصله الفلسفة عن الدين . (المترجم) .
 (٢) لودفيج فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فيلسوف المانى ماضى خرج من تحت مظلة هيجل وكان لفلسفته أثر ملحوظ على تكوين فلسفة ماركس بقلبه للنظام والنسق الهيجلى . وله تأثيرات على الفلسفة الوجودية ولا سيما (هيجل - وكارس ياسبرز) وعلى النهضة المعاصرة للنزعة الهيجلية ، وعلى فلسفة الأديان ، وله اضاءات فلسفية حول مقولة الاغتراب والتى أسهمت بفاعلية فى صياغة موقف ماركس من الدين « ليس الله هو الذى خلق الانسان على صورته ، وانما الانسان هو الذى خلق الآلهة على صورته » ومن الواضح أن نزعة التجسيد السائدة فى الفكر الغربى المسيحى أثرت على هذه النزعة المادية المضادة لها . من أعمال فيورباخ « اطروحات مؤقتة لاصلاح الفلسفة » « ماهية المسيحية » « مبادئ فلسفة للمستقبل » (المترجم) .

ولقد تقبل ماركس فلسفة فيورباخ الأساسية مع بعض التعديلات الهامة ، وخاصة نقده للأديان باعتبارها اسقاطا لحاجات ومثل الانسان فى شكل محرف . ولكنه اختلف مع فيورباخ حول بعض النقاط الهامة ، مثل ان طبيعة الانسان ليست اجتماعية فقط بل تاريخية أيضا . لهذا لا يمكن تفسير أية حضارة من خلال الطبيعة الانسانية فى حد ذاتها بل فقط من خلال الحاجات المحددة وغايات الانسان فى ظل الظروف التاريخية الخاصة وثانيا لم يتابع ماركس فيورباخ فى دعواه لديانة جديدة مبنية على مثال الحب ولكنه تحول مع أرنولد روج (١) Arnold Ruge وبعض الشخصيات الشابة من اليسار الهيجلى الى نقد المبادئ والمؤسسات السياسية .

ولقد اعتقد هذا اليسار الهيجلى أنه كما عبد الناس فى الماضى وقدسوا التجريدات الدينية التى تتبدى فى صورة محرفة كتعبير عن الدور الفعلى للأخلاق والمثل الاجتماعية فى خبراتهم ، بالمثل يفعل الناس الآن وخاصة فى ألمانيا فى فهمهم للتعديدات السياسية وجسدوا فكرة الدولة ، القانون ، الملكية monarchy باعتبارها مؤسسات يبرر وجودها أما اللاهوت والميتافيزيقيا أو القانون الطبيعى الأبدى . وفى الواقع ان هذه المؤسسات مجرد قوالب للقوى المنظمة فى الحياة السياسية وظهرت عند فترة تاريخية معينة لتواجه حاجات ومصالح مجموعات خاصة . وذهب ماركس أبعد من ذلك وبتحليله لسياسات عصره وصل لنتيجة مؤداها أنها ذات جذور فى صراع المصالح والتى بدورها ثمرة ونتاج

(١) أرنولد روج : الشخصية المحورية فى حركة الهيجليين الشبان ، تزامن مع ماركس حتى حدثت القطيعة بينهما بسبب موقف روج من دور الدولة وطبيعتها فى المجتمع الحديث ، بحث فى صياغة آراء الهيجليين القبان فى القضايا السياسية على أساس أوسع لفلسفة الثقافة . واعتقد أنه يمكن من تحقيق آراء ماركس الاجتماعية بالعمل السياسى العادى .

للظروف المادية والاجتماعية للمجتمع وتكمن الأهمية القصوى لهذه النتيجة فى الظروف التى يعمل فى ظلها الانسان ليكسب قوته أى نمط الانتاج الاقتصادى - والذى يحدد الشكل الذى تخلق فيه الثروة وتوزع وهذه النظم والمبادئ الاقتصادية ليست أبدية أو طبيعية بل ذات سمة تاريخية . ولكنها كانت تسيطر على الانسان فى الماضى وكأنها قوى طبيعية قاهرة . وينبغى على الانسانية أن تحتال لحياتها الاجتماعية ومستقبلها التاريخى فى اطار وحدود الضرورة الطبيعية بدلا من الازعان للقدرة الاقتصادية والتاريخية التى ليست فى الواقع أكثر من نتائج لا شعورية ، وبسبب نشاطهم الجمعى غير المخطط . وبهذه الطريقة سيدرك البشر أنهم أحرار وأشخاص متطورون بشكل متناسق . ويكمن الشرط الضرورى والكافى لوجود مجتمع من الأفراد الأحرار والمتساويين فى الملكية الجماعية والادارة الديمقراطية لأدوات ووسائل الانتاج الرئيسية .

وتبعاً لما يراه ماركس يمكن تحقيق الاعتناق الدينى للانسان وتحريره من المخاطر عبر التحرير السياسى له ، وهذا يستلزم بناء ثقافيا علمانيا (١) *secularization* مكتملا يصبح الدين فيه مجرد حالة خاصة ، ويتطلب التحرير

(١) علمانى : يرتبط مصطلح « العلمانية » بتاريخ الحضارة الغربية ارتباطا وثيقا نشأة ومفهومها حيث أدت طبيعة المسيحية كديانة وما تخوله لرجال الدين من سلطات الى ظهور « الاكليروس » وتحالف الكنيسة مع الاقطاع وفرض قيودهم على العلماء والمفكرين فى شتى المجالات ، وكان لحاكم التفتيش ودورها أثر كبير فى ظهور حركة عنيفة مضادة لاقتلاع سلطاتهم مع تباثير عصر التنوير وكان ذلك بالطلاق البائن بين العلم والفلسفة والكنيسة . ثم الفصل بين الدين والدولة وجعل أمور المجتمع وما يتعلق به من تنظيم اجتماعى وسياسى واقتصادى يركز على قيم وأسس دنيوية ناهما غير مشتقة من الدين أو مرتبطة بالآخريات . وفى عالمنا العربى شاع مصطلح « العلمانية » والدعوة اليه بأقلام دعاة التغريب وبشكل خاص الماركسيين دون اعتبار لخصوصية الحضارة العربية الاسلامية وما تطرحه من ضرورة الارتكاز لتراث الثوابت والروامة بينها وبين متغيرات العصر فضلا عن عقلانية وشمول الاسلام لقضايا المجتمع ودينية ودنيوية (المترجم) .

السياسى بدوره تحريره اقتصاديا ، واخضاع مجمل القوى الاقتصادية لأجل الرفاهية العامة . والمغزى التاريخى لهذا الرأى أن حرية الوعى التى اكتسبت ابان عصر الاصلاح Reformation يمكن ادماجها فقط مع الحرية السياسية التى أحرزتها الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية . وستبلغ هذه الحريات درجة قصوى من تأكيدها وحمايتها ، ولن يتم الفأوها ، عندما يكون للجماعية الديمقراطية democratic collectivety قوة متزايدة لتوجيه الحياة الاقتصادية وبالمثل حياتها السياسية .

رغم أن ماركس قد أضاف لفلسفته بعض المبادئ التى تهدد شموليتها ، إلا أنه لم يتخل عنها مطلقا ، على الأقل فى عقله هو ، كوجهة نظره حول الانسانية الديمقراطية والطبيعية . فلقد كان لديه اعتقاد جارف بسمو مكانة الانسان . ويتمثل ذلك فى نضال المرء لقهر قدره وعدم خضوعه لمعتقدات الكنيسة وطغيان الدولة ، والعمل الغشوم للمؤسسات والقوانين الاقتصادية ، أو قرارات الأحزاب السياسية .

ولقد كان ماركس بروميثوس المزاج (١) promethean وكانت تقاليد العرقية اغريقية وعلمية أكثر منها وسيطة medieval وأدبية . ومثاله الأخلاقى هو مجتمعا يكون فيه «التطور الحر لكل فرد شرطا لتطور الكل وفى النهاية فالمحرك لكل القوانين والمؤسسات هو مدى ماتوفره من امكانيات لكل الأشخاص لتنمية ذاتيتهم انماء كاملا حرا .

(١) بروميثوس : أحد الآلهة الاسطورية عند الاغريق ويتسب له سرقة النار وتعليم البشر استعمالها وفى تاريخ الأدب والفكر يستخدم كرمز للإبداع والابتكار والجرأة على تحطيم المألوف من العادات والتقاليد والوضع القائم (المترجم) .

ويميز هذا الاعتقاد فى الحرية ، المساواة ، والشخصية الفردية ويفترق به ماركس جذريا عن كل الشموليين totalitarians الذين استشهدوا باسمه واستظلوا بمظلته .
(راجع الاقتباس رقم ١) .

٤ - الاشتراكية :

تحول ماركس للاعتقاد وتقبل الاشتراكية قبل أن ينجز ويخرج النظريات التى ارتبط بها اسمه . ولقد اتخذت نظرياته صيغتها ابان تفكيره فى الشروط التى فى ظلها ، والوسائل التى يمكن نجاح الثورة الاشتراكية ويمكن اقامة الاشتراكية . فمصطلح الاشتراكية كان يستخدم فى أيام ماركس استخدامات متنوعة . أكثرها شيوعا مايعنى به نظام اجتماعى تكون فيه أدوات ووسائل الانتاج الرئيسية والتوزيع ، والتبادل exchange ملكية عامة common property مع بقاء أدوات الاستعمال الشخصى والاستهلاك والملكية الشخصية ، ملكية خاصة . فمتى تكون الملكية عامة ؟ ومتى تكون ملكية دولة ؟ فى هذه الحالة ينبغى أن يطلق على الطغاة المصريين القدماء والدول الاستبدادية الشرقية فى العصور الماضية والتى كانت الدولة تمتلك أو تتحكم بشكل مطلق فى وسائل الانتاج القائمة ، ينبغى أن يطلق عليها مجتمعات اشتراكية . وهل تصبح الملكية عامة عندما يتم تأميمها nationalized على ايدى أية حكومة ؟ فى هذه الحالة سيصبح فى الامكان استغلال أولئك الذين يعملون فى المؤسسات الصناعية المؤممة كغيرهم الذين يعملون فى المؤسسات الصناعية الأخرى ، فعلى سبيل المثال يمكن انتقال ملكية السكك الحديدية من ملكية خاصة الى ملكية عامة بدون احداث أى تغيير فى عدد ساعات عمل العمال وظروف

العمل ، وحوافز العمل حتى انه قد يصبح فى ظل ظروف معينة أسوأ حالا فقد يتم حرمانهم من حق الاضراب عن العمل بموجب قرارات الحكومة فى الواقع يدعون للعمل الاجبارى .

ولهذا فان أكثر التعريفات وضوحا وشمولا للاشتراكية هو المجتمع الذى توجد فيه ملكية عامة وديمقراطية لوسائل الانتاج . وفعالية وقوة «الديمقراطية» هنا أخلاقية . فهى تشير الى العملية التى يتم بها صنع القرارات ، والغايات التى تتوجه اليها هذه العملية ، اختيار واعداد المهام الاجتماعية وتكامل الأعمال النافعة للمجتمع فى التعليم وتأثير التعليم على العمل والانتاج ، وفوق كل هذا الشعور والمسئولية القصوى لأولئك الذين يشرعون ويسنون القوانين للمجتمع سواء فى الشؤون السياسية أو الاقتصادية . ويستلزم الاعتقاد فى الاشتراكية كما تصورها ماركس وبعض الاشتراكيين الطوباويين utopian socialists الاعتقاد فى مايعتبر اليوم ديمقراطية اخائية Fraternal democracy اهتمام متساو من جانب المجتمع تجاه كل مواطنيه ، بالاضافة لحقوق متساوية وصلاحيات أساسية لتحديد من قد يحكم أو يدير أمر المجتمع . وبدون مثل هذا الاعتقاد المعبر عنه فى الممارسات الأساسية ، فلم يكن بالامكان التمييز والتفرقة بين مجتمع جماعى حر collective free Society ومجتمع جماعى عبودى collective slave .

لقد اعتقد ماركس أن ما هو مقبول وممكن تاريخيا يمكن تحديده بشكل مميز فقط عندما يكون مرتبطا بالواقع الفعلى . وان بزوغ عصر الاشتراكية يعتمد على النشوء التدريجى للشروط الموضوعية لقيامها . وهذه الشروط ترتبط ارتباطا وثيقا بتطور النظام الاقتصادى . فالانسان

ذو سلطة مطلقة فقط في أحلامه • ولا يمكنه التحكم في الطبيعة الا عن طريق اخضاع أدواتها واعادة صياغة المجتمع باستخدام المواد التي يزوده ويمده بها المجتمع •

ولقد أطلق ماركس على نفسه «اشتراكيا علميا» (١) scientific socialist كتمييز عن «الاشتراكيين الطوبائيين» ولقد اتصف هو ذاته بالاشتراكية الطوباوية ومن خلال بعض الأوجه كان كذلك ولكنه من خلال «اشتراكيته العلمية» كان لايعنى فقط أنه قادر على اعطاء أسباب معقولة وكافية لدفاعه وتأييده للاشتراكية بل أيضا كان يعنى أنه يعرف كيف ومتى وفي ظل أية شروط يمكن إدراك الاشتراكية وخصوصا كيف يمكن أن تساعد به في العالم عندما تعلن حضورها ووجودها كامكانية تاريخية •

وأدى هذا الاهتمام بالنظرية والممارسة للثورة الاشتراكية ، وبالوسائل وشروطها ، وقاد ماركس الى افتراض والتسليم بالغايات الديمقراطية للاشتراكية لدرجة فشله أن يضع في الاعتبار ملاءمة هذه الوسائل والشروط لما قد افترض أن يلزم عنها • ولقد تم تصور الاشتراكية باعتبارها نظاما اقتصاديا عقلانيا مخططا يتم في ظله حل جميع المشاكل الاجتماعية والأخلاقية تلقائيا • أما ماركس فقد هزأ وسخر بتلك الكتابات الهامشية السابقة له والمليئة

(١) من المقارنات التاريخية في تاريخ الماركسية تحول مصطلح الاشتراكية العلمية الذي استعمله ماركس ليضفي به على أطروحات الاشتراكية صفة النهج العلمي واكتسابها مسحة واقعية تمييزا لها عن المحاولات الخيالية التي تدور في فلك المدن الفاضلة ، تحولها الى تمويذة وقناع يستعمله الشيوعيون وخصوصا في عالمنا العربي وأداة لاحتكار صفة « العلمية » حتى عندما يكون البرنامج الشيوعي « أكثر بيدا عن قضايا الواقع وما يطرحه من حلول سواء من ناحية الدراسة العلمية والتكوين الطبقي أو الاطار الحضاري والمعرفي • وذلك اخفاء للمعجز وتبريرا لاسقاط القوالب النظرية الجاهزة على واقع يرفضها ، وتلج أدبيات الحركة الماركسية العربية بهذا اللون من الخداع والتحويلة النظرية حتى أصبح مصطلح الاشتراكية العلمية وكأنه يشير فقط للشيوعية • (المترجم)

بتخيلات وتفاصيل مملّة وفجة تتعلق باشتراكية المستقبل ،
 وافترض وبروح واثقة مفعمة بتفاؤل جارف من القرن
 التاسع عشر مشوب بمسحة حزن هيجلى ان المستقبل سيتولى
 أمر ذاته ، وان المجتمع والأحداث ستصنع وتعيد صياغة
 رجال أفضل - ورغم اعجاب وتقدير ماركس للانسان باعتباره
 مخلوقا فعالا ، لم يدخل فى اعتباره أبعاد العمق والتعقيد
 الانسانى - وافتقد ماركس هنا رؤية الحدس والكشف
 الهيجلى بأن هناك عنصرا تراجيديا فى كل تجربة انسانية
 فى عالم متطور - وبرغم ذلك ، حتى لو ثار الملائكة فى
 مدينة الله فمن هو الذى بإمكانه التأكد من السلوك الانسانى
 فى مدينة الانسان ؟

٥ - المادية التاريخية :

لقد تعلم ماركس من هيجل والدراسات النقدية لفلسفة
 القانون الهيجلية ، ان ثقافة مرحلة ما تكون ذات علاقة
 متبادلة وتختلف وتتميز عن ثقافة مرحلة أخرى عبر الطابع
 أو الأسلوب السائد والمهيمن عليها أو مجموعة القيم التى
 تتخلل قسماتها وتصطبغ بها وتعبيراتها الأساسية - وانشغل
 بالبحث عن المدخل والمفتاح لمنظومة بنائها وتطورها والذى
 سيفسر ، مثلا ، لماذا تختلف حضارة العصور الوسطى عن
 حضارة القرن التاسع عشر ، وكيف نشأت وازدهرت ثم زالت
 واختفت - وكانت نظرية المادية التاريخية هى اجابة ماركس
 لهذا التساؤل (اقرأ النص رقم ٢) .

كان ماركس يعنى بالمفهوم المادى ، *materialistic*
 للتاريخ ، النظرية التى تسعى لتفسير التاريخ بالقوانين
 التجريدية والتى يمكن التحقق من موضوعاتها ومحمولاتها
predictons and descriptions من حيث المبدأ بملاحظة

سلوك البشر ، الأشياء والقوانين التي تربط بينهم . ومنكرا
 ملائمة النظريات الفيزيائية والعرقية والسيكولوجية أكد
 بوضوح أن البناء الاقتصادي للمجتمع وتغيراته هو المتغير
 المستقل *independent variable* والذي يعتبر كل التغيرات
 الحضارية الأخرى دالة له *function* أو بمزيد من التبسيط .
 فإن البناء الاقتصادي للمجتمع هو الذي يحدد ويقرر حياة
 أى مجتمع عبر التاريخ فهو «الاساس» أو «القاعدة» كلما
 تغير ، يحمل معه مجمل حضارة المجتمع معه ان أجلا او
 عاجلا . وربما يتأثر مجراه بشكل ما بالملامح الحضارية
 الأخرى ولكن لا ينحرف أبدا عنه بشكل حاد . ويكون تغيره
 تدريجيا فى معظم الأحوال ، ولكن فى أوقات معينة يكون
 فجائيا . ويشار الى نظرية المادية التاريخية أحيانا باعتبارها
 تفسيرا اقتصاديا للتاريخ . ولكن هناك تفسيرات اقتصادية
 متعددة ولا يمكن عزوها أو نسبها كلها الى ماركس رغم
 التباس وغموض لغته .

ولمزيد من الفهم ، ينبغى ايضاح فكرتين .

- ١ - ما الذى يعنيه ماركس بالمصطلح «اقتصادى» *economic*
- ٢ - ما معنى تأكيده بأن العامل الاقتصادى أو أى عامل ،
 يحدد حضارة مجتمع معين ، أو أنه الأكثر أهمية أو
 السبب «الجوهرى» أو «الأساس» أو تحليل وتشريح
 مجتمع معين ؟

فقط عندما تكتسب هذه الأفكار معنى مترابطا يمكننا
 القول ما اذا كانت القضايا الأساسية التى تحتويها صادقة
 أم كاذبة ، والى أى درجة . ومن وجهة نظر بعض النقاد أن
 نظرية ماركس غير ذى معنى ومجرد هراء - ليست نظرية
 بآية حال ، وبالنسبة لآخرين ، تبدو زائفة تماما وبوضوح ،

وتظل بالنسبة للبعض من بينهم الكاتب نفسه ، فرضية واضحة ومفهومة hypothesis تفسر بعض الأشياء تفسيراً معقولاً ولكنها تعشل فى تفسير البعض الآخر وبالنسبة لمعظم أتباعه ومريديه الأصفياء ، تبدو النظرية من ناحية أخرى صادقة بصرف النظر عما تعنيه .

١ - يستخدم المصطلح «اقتصادى» بأربعة معان متميزة على الأقل :

(أ) يستخدم أحيانا لوصف وتمييز دوافع مثل الرغبة فى الثروة أو المال ، أو المكانة الاجتماعية أو السلطة التى تتيحها الثروة أو المال «فالمصالح الاقتصادية» تفترض مسبقا وجود مثل هذه الدوافع حتى لو لم تكن واضحة .

(ب) ويشير أحيانا الى وجود أو عدم وجود الأرض والمواد الخام مثل الحديد ، الفحم ، البترول ، والضرورية للانتاج .

(ج) وفى الغالب الأعم يشير الى التقنيات ، القوى ، وطاقات الانتاج ، متضمنا ليس فقط الأدوات والوسائل بل المعرفة والمهارات أيضا .

(د) ويعنى فى النهاية ما أسماه ماركس نمط الانتاج الاقتصادى أو العلاقات الاجتماعية للانتاج . وهذه هى القواعد الاساسية أو العمليات التى تتحكم فى انتاج وتوزيع الثروة مثل النظام العبودى slavery ، الاقطاعى feudalism الرأسمالى capitalism والاشتراكى socialism

وهناك قدر كبير من التشويش يتعلق بمعاني المصطلح «اقتصادي» خصوصا معنى نمط الانتاج أو العلاقات الاجتماعية للانتاج . ولقد اعتبره بعض النقاد كقدر من الميتافيزيقا الملفزة صيغت لتعجب وتخفى اقتقاد التفكير الواضح من جانب ماركس . فنمط الانتاج ليس شيئا سيكولوجيا مثل الدافع الاقتصادي أو فيزيائيا مثل ظروف وقوى الانتاج . فما هو اذن ؟ يوجد مفتاح الحل فيما كان يسميه ماركس أحيانا «علاقات الملكية» *property relations* باعتبارها «تعبير قانوني» *legal expression* عن علاقات الانتاج . ويشير هذا على أنها ليست مجتزأة من العلاقات السيكولوجية ولا الفيزيائية ، رغم أنه بدون وجود العلاقات الفيزيائية لا يمكن وجود علاقات الانتاج .

فلماذا لم يتحدث ماركس اذن عن العلاقات القانونية للانتاج أو ببساطة عن علاقات الملكية كعامل أساسى محدد للحضارة ؟ لأنه كان مهتما بتفسير طابع وتطور مجمل المركب الثقافى باعتباره محصلة لعلاقات الانتاج . ويتضمن هذا المركب الثقافى الرموز القانونية *legal codes* والتشريع اليومى ، وقرارات المحاكم والى نصنفها عادة مثل قوانين ثقافة وحضارة . ولكن لا يمكن تقرير تحديد وجود نظام كالعبودى أو الاقطاعى أو الرأسمالى من خلال المعنى العادى للمصطلح فهناك تنظيمات أساسية تتحكم فى أنشطة البشر فى انتاج وتوزيع الثروة دون الاعتماد على قانون صريح بل على العادات والأعراف الأساسية والى قد تطورت للدرجة التى تبدو عندها اجتماعية بشكل طبيعى . وعلى سبيل المثال فالقانون الفرنسى والانجليزى مختلفان تماما ، رغم أن كليهما رأسمالى ويعنى ماركس بوصفهما بالرأسمالية أن النظام السائد للانتاج هو انتاج السلع للسوق بتوظيف عمال

هم شكليا أحرار فى أن يعملوا أولا ، ولكنهم لا يملكون وسائل الانتاج التى يستخدمونها • وتنتج هذه السلع بفرض «الربح» لأولئك الذين يملكون وسائل الانتاج وليس لاستعمال أولئك الذين ينتجونها • وحالما يصبح الانتاج غير مربح يتوقف على الفور • ولهذا فان السعى وراء الربح والبحث الأبدى المتجدد عنه هو الذى يقود ، تبعا لرأى ماركس ، الى التوسع فى انتاج السلعة •

ويختلف هذا النمط الرأسمالى للانتاج بوضوح عن العبودى ، الاقطاعى ، والاشتراكى وقد يطلق المرء على هذه الأنماط للانتاج علاقات قانونية • وعندئذ ينبغى تمييزها عن مجموعات القوانين ، والتى تتحدد وتقرر هى وملامح المركب الثقافى الأخرى عن طريق العلاقات القانونية الأساسية •

لو سمح لكل نمط انتاج اقتصادى أن يتطور مستقلا فانه سينمو وفقا لقوانين معينة مشابهة لتطور أى كائن عضوى من بذرة • وبلغة ومنطق تنظيمها وتطورها فان التغيرات الرئيسية للثقافة والحضارة فى حاجة للتفسير • فعلى سبيل المثال ووفقا لهذا الرأى ، فان فى قوى وتقنيات الانتاج وبنفس المنوال التغيرات فى المعدل الاحصائى للطاقة لايتطور بشكل مستقل وينبغى أن يعزا وينسب التأثير المنسوب غالبا للتكنولوجيا technology الى عمل نمط الانتاج الاقتصادى • وهكذا فان ماركس سينكر ان التقنية الاقتصادية هى التى أنتجت آثار ومظاهر مثل الاحتكارات والبطالة • بل هذه نتائج لاستخدام مثل هذه التقنيات فى أى نظام اقتصادى مكرس لتحقيق وطلب الربح الخاص • والانسان كما هو مؤكد حيوان مخترع أما ماركس فقد عرفه بعد

بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin على أنه حيوان صانع للألة . ولقد ادعى ماركس أنه أيا كانت اختراعات الانسان والشكل الذى اتخذه سواء لاهوتيا أو تكنولوجيا ، فان ما يحددها فى الأساس هو نظام الانتاج الذى يعيش الانسان فى ظله ، والصراع ، والقيم ، والانتماءات التى تتطور نتيجة له .

أصبح من الواضح ، اذن أن المسادية التاريخية ليست نظرية تكنولوجية للتاريخ بحيث تصبح قوى الانتاج وكأنها القوى المحركة للتغير الاجتماعى وغالبا ما يتحدث العديد من الماركسيين وانجلز ذاته عن قوى الانتاج باعتبارها قوى محددة للتاريخ ، بل سقط ماركس نفسه مرارا فى مثل هذه التعبيرات . ولكن كل من يؤكد أن الوسائل والأدوات والتقنيات هما العامل النهائى المحدد للتاريخ ، سواء كان ماركسيا أم لا ، فمن الممكن اثبات أخطائه وعلى سبيل المثال لو أخذ فى الاعتبار عمل تنقيبى يقوم به المرء :

١ - لنفسه

٢ - أو باعتباره عبدا أو قنا .

٣ - كمشارك ومساهم .

٤ - أو مقابل الأجر الذى يدفع له من صاحب العمل الخاص .

٥ - أو مقابل الأجر الذى يقدمه له المجتمع .

وهو قد يعمل بمفرده فى كل حالة وباستخدام نفس المجموعة من الأدوات . ولكن فى كل حالة من الحالات السابقة يوضح لنا نمطا انتاجيا مختلفا . لانه فى ظل شروط تاريخية محددة سيقوده نمط انتاجي معين لاستخدام أدوات ذات

مستوى عالى التطور وأرقى من الممول والمجرف البسيط وهذا لايفير من الحقيقة السالفة بل يؤكدھا . حيث سيوضح لنا أن التطور التكنولوجى يعلل بالتغيرات فى نمط الانتاج . والتي تحدث بمرور الوقت نتيجة للسعى وطلب سلع أفضل .

ولقد اقتنع ماركس بأن التقنيات والعمليات الصناعية المستخدمة فى نمط الانتاج هى نتائج حاجاته الانتقائية . وادعى ماركس بهذا الخصوص ، ان نمط الانتاج مثله كائى كائن حى لا يستخدم كل شئ يحوى غذاء بل مايمكن لبنائه الداخلى أن يستوعبه . والاكتشافات فى العلوم ، والتي تتلقى أكبر دافع وحافز لها فى ظل الرأسمالية ، ربما يكون لها نتائج اقتصادية ، ولكنها تستخدم فقط فى الانتاج لو كانت متلائمة مع النمط الربعى الذى يعد علامة مميزة للنظام . لكن من الواضح أن العديد من الاكتشافات العلمية قد طبقت تكنولوجيا من أجل الحرب ، بصرف النظر عن تكاليفها وبدون فائدة أو ربح ، لذا كان ماركس مجبرا على تفسير الحرب كما لو أنها دائما نتيجة لنمط الانتاج القائم واندلاعها لحماية هذا النظام . ومن الطبيعى أن تتزايد وتنخفض حركة البحث والتطبيق التكنولوجى تبعا لدورة ودولاب العمل وليس العكس بالعكس . آليا (١) machinery كتب ماركس ذات مرة «ليس هناك أية مقولة اقتصادية أفضل من الثور الذى يجر المحراث فهو فقط القوة الانتاجية» .

وماكان ماركس يعنيه هو أن تاريخ السياسة ، وتاريخ الفن ، الدين ، والعلم ليست مستقلة بل ملامح مختلفة لتاريخ

(١) يقصد المؤلف بـ « آليا » حالة انتقال ماركس لوجهة النظر القائلة بأن الوسائل والأدوات هى العامل النهائي المحدد للتاريخ . (المترجم) .

المجتمع الذى هو أساسا تاريخ الطرائق التى بها يكسب البشر معاشهم . وهو يدفع بهذه الفكرة للمقدر الذى يؤكد أن الانسان الذى يصنع التاريخ ليس له أية طبيعة انسانية أصيلة original human nature فطبيعة الانسان محدودة ببنائه وتركيبه البيولوجى ، ولكن قد تتخذ نشاطاته البيولوجية صيفا متعددة لا محدودة اعتمادا على المجتمع الذى يعيش فيه . ولقد أنكر ماركس اعتبار الانسان ذاتا أنانية تدور حول اللذة egoistic hedonist كما ذهب هوبز Hobbes وبينتام Bentham وشترنر (١) Stirner ورفض «الانسان الاقتصادى» للاقتصاد السياسى المعاصر كطابع انسانى خالدا . فالانسان الاقتصادى لم يوجد عند الاغريق GREEK أو العصور الوسيطة . ورغم محدودية الانسان الا أنه مخلوق معقد ، أنانى أو غير أنانى ، جشع ومتعاون ، شجاع ، وخانع . ولكن سيادة مجموعة واحدة من الدوافع فى أى وقت معين على مجموعة أخرى ، والتى يمكن استنتاجها من معايير ما هو مستحسن أو مستهجن اجتماعيا ، يعتقد ماركس أنها لا تفسر من خلال طبيعة الانسان الأصيلة بل أساسا عن طريق البناء الاقتصادى للمجتمع . وبالتالى ، رغم أن دوافع المرء البيولوجية تعتبر ثابتة نسبيا طالما أنها تنبثق من المرتبة الحيوانية ، الا أن بواعثها وغاياتها تختلف فى المجتمع الاقطاعى عما تكون عليه فى المجتمع الرأسمالى وعما تكون عليه فى المجتمع الاشتراكى . وسوف تتبوأ الصدارة ملامح مختلفة للطبيعة الانسانية حتى فى نفس المجتمع عند مراحل مختلفة من تطوره الاقتصادى ففى المراحل المبكرة للرأسمالية - ونظرا للحاجة لتراكم رأس المال - فان الاعتدال والتوفير

(١) ماكس شترنر (١٨٠٦ - ١٨٥٦) اسمه الحقيقى جوهان شميث ، مفكر أنانى قوضى دعا للفردية المطلقة من أهم أعماله « الفرد وملكيته » .

وعدم الاسراق يعتبران فضائل اجتماعية ، وعندما دخلت
الرأسمالية فيما بعد طور الانعطاش وأصبح من المطلوب
استهلاك متزايد للاحتفاظ بدوران عجلة الانتاج ، أدينت
تلك الفضائل السابقة واعتبرت بخلا وتقطيرا وامساكا .

٢ - قبل أن نفكر ونمحصر مصداقية وفعالية هذه
الادعاءات الضخمة حول التأثير الواسع لنمط الانتاج
الاقتصادى ، يتبغى أن نجد مايعنيه ماركس بتأكيده أن
نمط الانتاج الاقتصادى هو العامل الحاسم أو الجوهرى أو
الأكثر أهمية فى التاريخ . وانه يلعب دورا لاينكره أحد
ولا يلعبه أى شئ غيره . فالسؤال هو : الى أى مدى يكون
نمط الانتاج عاملا حاسما أو جوهريا أو أكثر أهمية ؟

ففى العلم النظرى لاتوجد تعبيرات من قبيل العلل
«الرئيسية» . «الجوهرية» أو الأكثر أهمية» ، ولكن حيثما
يعمل الانسان أو يعد للعمل ، فانه لا مفر من مثل هذه
التعبيرات لانها تشير الى ماينبغى تغييره والى أى درجة ، أو
ما الذى كان ينبغى أن يتغير ، للحصول على نتيجة معينة .
سيكون من العبث أن نتساءل : ما هو السبب الرئيسى أو
الأكثر أهمية لوظيفية وفعالية الجسم ؟ أو ليس مضحكا أن نسأل
ماهو السبب الأساسى لمرض السل ، أو سرطان الرئة ، أو
التدهور لدرجة الموت . وفى أى مرحلة تاريخية وفى أى
وقت معين يتفاعل عدد لانهاى من العوامل الاجتماعية مع
بعضها البعض . وبتناولها معا فانها تفسر من قبيل تحصيل
الحاصل ما يحدث فى النظام الاجتماعى . ولكن بعض الأشياء
ذات وزن أكثر من الأخرى فى تفسير بعض النتائج الجزئية
لنقص فعالية النظام ككل . ومايعنيه ماركس هو لو قمنا
بعمل قائمة للأحداث البارزة فى التاريخ الانسانى أو

القسمات والملاح البارزة لأى مجتمع ستكشف أى دراسة تجريبية لنا فى الغالبية العظمى ان لم يكن فى كل حالة ينبغى أن ننسب الثقل الأكبر فى تفسيرنا الى ماكان يطلق عليه نمط الانتاج الاقتصادى .

يفسر ماركس أحيانا ويؤول باعتباره ويؤكد ان كل شىء فى المجتمع والتاريخ هو نتاج تطور العلاقات الانتاجية وسيصبح هذا غير ذى معنى من الناحية البنائية syntactically لانه يجعل من المستحيل التمييز بين الاقتصاد وأى شىء آخر . فلو أن حدوث الرمز س (x) يعلل التغير فى الرمز ص (y) فان الناتج لايمكن تفسيره كليا فى حدود الرمز س . فربما تسببت أشعة الشمس فى انصهار قطعة من الشمع ، ولكن ما لم تكن قطعة الشمع موجودة أينما وعندما بزغت أشعة الشمس ، وبدون الصفات الذاتية المميزة للشمع ، أو لو كانت مجرد حجر ، فان انصهارها لم يكن ليحدث وأيا كان نمط الانتاج الاقتصادى فى الوقت الذى يوجد فيه فانه لايستطيع أن يخلق أو يحدد كليا شكل وطابع التقاليد السابقة والتي يؤثر فيها أو سمات الناس الذين يتأثرون به . ولو أن تغيرات نمط الانتاج تحدد التغير فى قانون ، وسياسة وعلم ، وفن ودين وفلسفة المرحلة ، فانها لاتخلق صيغ هذه الخبرات وأشكالها . وربما كان لها فى الواقع هذا التأثير العميق على التغير فى نمط الانتاج الاقتصادى . والبحث التجريبى فقط هو الذى سيخبرنا أيهما هو الذى يستهل وله الأولوية فى عملية التغير .

ومن الممكن اذن أن نوضح رغم استخدام اللغة الغامضة والمبهمة والبلاغية فان ماركس قد أدرك ووعى وفهم ولكن هل كانت عملية فهمه وادراكه جيدة ؟ سنعود لهذا السؤال فى الفصل القادم .

٦ - التطور الاجتماعى :

يعتبر التغير ظاهرة محيرة ويبدو هذا أكثر وضوحا فى شئون البشر أكثر منه فى أى مكان آخر . فتبعاً لتأثير هيجل Hegel من ناحية ، وتأثير النظرية التطورية الانثروبولوجية Anthropological للويس مورجان Morgan من ناحية أخرى (والتي تعتبر الآن ذات قيمة تاريخية) تصور ماركس أن تعاقب وتتابع المجتمعات تبعاً لنمط محدد ومتصل من البسيط الى المعقد ، وخصوصاً من ناحية تركيبها الاقتصادى ويعتبر كل مجتمع من زاوية بنائه الاقتصادى المتسم بالاتجاه نحو وسائل وقوى الانتاج . فبعض المجتمعات تستثمر انتاجيتها وذات انتاجية نشطة فى حين أن البعض الآخر ليس كذلك . ووفقاً لما يراه ماركس فإن كل مجتمع سيصل للنقطة التى عندها يعوق البناء الاقتصادى القائم ويعرقل التوظيف الكامل لقوى الانتاج الموجودة فى ظله ، وذلك فى حالة عدم كونه مجتمعاً اشتراكياً ، ولاينصب الحديث هنا عن ايجاد وتحقيق امكانيات قوى انتاجية جديدة . وبالوصول لهذه الحالة فإن جموعاً ضخمة من البشر ستعانى من العوز والحاجة . وسيكون أمام هذه الطبقات الكثير الذين سيكسبوه وينالوه بازالة العوائق والقيود التى قيدت وكبلت بها القوى الانتاجية وستصبح من الوجهة السياسية طبقات ثورية وسيولد فى نفس الوقت زخم نظام اجتماعى جديد . ويتم اطلاق قوى الانتاج بمجرد أن تبدأ قوى الحركة الداخلية للبناء الاقتصادى الجديد فى الدوران والعمل . من الواضح أن ماركس يتصور مخطئاً يعتقد أنه الحقيقى لمجمل التاريخ فيما عدا المجتمع البدائى والمجتمع الاشتراكى ، والذي يبدو أنه ينطبق على القرن التاسع عندما أدت زيادة ومضاعفة الانتاج السلمى الى اغلاق المؤسسات الصناعية ومعاناة الناس

من الفاقة والمجوع فى خضم الوفرة الهائلة (راجع النصين ١ ، ورقم ٤) .

ولقد وضع ماركس بهذا الخصوص فرضيتين لهما أهمية قصوى فيما بعد - الأولى هى «لايوجد أى نظام اجتماعى قد فنى وتلاشى أبدا قبل القوى الانتاجية التى تعتبر بالنسبة له بمثابة الحجرة التى تطوروازدهر داخل جدرانها» «والثانية» لن تظهر علاقات انتاج أرقى الا بعد نضج الشروط المادية لوجودها فى رحم المجتمع القديم ذاته (قوى الانتاج المهارات - التقنيات) « - تؤكد هذه العبارات على الاستمرارية والتواصل الاقتصادى للمجتمع وتنكر تجاوزه وتخطيه لمرحلة أخرى بدون المرور بتلك الوسيطة بينهما .

٧ - الصراعات الطبقيّة :

البشر هم الذين يصنعون التاريخ وليست القوى الاقتصادية والاجتماعية الموضوعية المتكونة من الماضى . فهى تسجل فقط نتائج ماقام به البشر من قبل - ولكن الجيل الموجود على قيد الحياة يواجهها فى شكل عادات ، وقواعد ، وعلاقات شرعية والتى تعتبر من أحد الجوانب مستقلة عن ارادتهم ومهيمنة عليها كقوى الطبيعة - فنحن لانولد ذوى بشرة بيضاء أو سوداء فقط بل أيضا فى مستويات عليا أو دنيا من الوسط الاجتماعى ، ونولد بهذه الجنسية أو تلك وارثين للايمان بديانة أو بأخرى .

فالمخلوقات البشرية تنتمى لعدد غير محدود من الطبقات والجنسيات ، الأديان ، الأجناس ، المهن . ولكن عندما يستخدم ماركس المصطلح «طبقة» يشير مبدئيا الى مجموعة اقتصادية محددة ومعروفة بموقعها فى عملية الانتاج - العبد أو

السيد ، الفن أو الاقطاعى العامل أو الرأسمالى . وحيثما توجد الملكية الخاصة لوسائل الانتاج يوجد تناقض موضوعى فى المصالح بين الطبقات مرتبطا بتوزيع وتقسيم ثمار ونتاج الانتاج . وبمرور الوقت يصبح هذا التناقض حادا وخطيرا وينفجر فى صراع واضح صريح . وأيا كان هذا الصراع كامنا أم علنيا فانه يمارس تأثيره الشامل على سلوك الأفراد فى معظم تكتلاتهم وتجمعاتهم الطبقية .

ويمكن ايجاد كثير من التعبيرات والدلائل الواضحة البارزة عن الصراع الطبقي فى السياسة والتي يعتبر الاقتصاد مفتاحا رئيسيا لها كما يدعى ماركس . وخلف وتحت صراع الشعارات السياسية والمبادئ والشخصيات يكمن دائما ضغط متواصل للمصالح الاقتصادية المتصارعة . وتزداد حدة وشدة الصراع ، ويعد العديد من التسويات الصعبة compromises ينتهى الصراع بانتصار أحد الطبقات المتصارعة . اقترح ماركس فى البيان الشيوعى communist manifesto ان الصراع قد يقود أحيانا الى هلاك طرفيه ولكنه لم يطور هذا الافتراض الذى لايتوافق مع الخطوط الرئيسية لتفكيره .

(راجع النص رقم ١)

٨ - نظرية الدولة :

رغم أن الصراعات الطبقية تنشأ أساسا بسبب صراع المصالح الاقتصادية الا أنها أيضا صراعات سياسية . تظل قوة الدولة القائمة بعيدة عن مسرح الصراع دائما ، ولكنها على أهمية الاستعداد للتدخل وينبغى أن يوضع ذلك فى الحسبان . وقد تكتسب العلاقات السائدة للملكية قوة التقاليد

والاستعمال المألوف واعتبارها ، ولكن حينما تواجه
باعتراض وتحدى حقيقى فانها تعتمد على اجراءات اقتصادية
وسلطة لتدعيمها . ويتم حسم النزاعات المتعلقة بالمسائل
الاقتصادية بوسائل الدولة وليس عن طريق المفاوضات
العادية . وكما عرف ماركس فان الدولة تتميز عن الحكومة .
فالدولة تتكون من هذه المؤسسات - المحاكم ، الشرطة ،
الجيش - وربما لاتصبح الطبقة المسيطرة اقتصاديا هي
الطبقة المسيطرة سياسيا فى أى مرحلة ، ولكن مالم تصبح
كذلك فان مصالحها الاقتصادية وفعالية المجتمع ككل ستصبح
هدفا للاحباط والفشل المستمر . وعندما يشتد الصراع
ويتأجج تظهر الدولة صراحة على مسرح الأحداث باعتبارها
هيئة تنفيذية executive committee للطبقة المسيطرة
والحاكمة . فمن الضرورى استيلاء الطبقة الجديدة عليها .
ومن جانبها تبدأ فى خلع أردية الاطراء على الدولة والباسها
مسوح الحياء وجعلها وكأنها فوق الصراع والمعارك أو كأنها
أداة لتحقيق الصالح العام .

وعبر تاريخ البشرية ومنذ انهيار المجتمع البدائى
وحتى وقتنا الحاضر وصف نمط الصراع الطبقي ووصف
دور الدولة فى هذا الصراع بشكل واضح . وتبعا لوجهة
النظر التى يشارك فيها كثير من اشتراكيى القرن التاسع عشر
فان الدولة أكبر من كونها أداة ادارية ضرورية لرعاية
الحاجات الضرورية للمجتمع والاهتمام بها . انها جهاز القهر
المائل للناظرين على هيئة كيانات منفصلة لرجال مسلحين
يقفون خارج اطار الجمع الشعبى ولن تختفى الدولة قبل
اختفاء الاستغلال الاقتصادى للانسان بواسطة الآخرين ،
وذلك الاستغلال الذى يعتبر مصدرا لكل أشكال الاستغلال
كما يرى ماركس . وسيصل هذا الاستغلال لنهايته بالضرورة

عندما يتم اخضاع وسائل الانتاج للملكية الجماعية **socialized** وهذا ادعاء وافترض مبالغ فيه كما سنرى . طالما أنه لن يوجد فى مثل ذلك المجتمع طبقة خاصة للملاك، ونظرا لان كل المواطنين سيصبحون ملاكا وفى نفس الوقت منتجين ، فتبعاً لتعريف ماركس فإنه مجتمع لا طبقي **classless society** وتصبح بطبيعة الحال كل أنواع تقسيمات العمل أكثر مرونة من الوضع الحالى ، لان التقسيم المفترض للعمل لن يكون صارماً بهذه الدرجة ان لم يختلف تماماً . ولكن من المفترض طالما أن هذه التقسيمات لن تؤدي الى تنظيم وتقنين الاستغلال الانسانى ، فانها لن تحتاج لآية أدوات أو أجهزة خاصة للقهر والتسلط وعندما تقوم الاشتراكية من الممكن التحدث عما يشبه «قواعد المرور» لتنظيم العلاقات الاجتماعية . وسيوجد «شرطى المرور» ليدبر وينفذ القواعد ، ولكن لن تكون هناك غرامات أو عقوبات أو سجون لتجبرهم على تنفيذها . وفى اعتقاد ماركس أن كل شخص سيكون له دور فى هذه العملية ، وفى حكم وتولى أمور المجتمع ، فى العمل الجسمانى وأيضاً فى العمل الترفيهى كالحروج لصيد السمك .

وبصرف النظر عن مدى الموضوعية والواقعية التى عبر بها ماركس عن استشرائه وتوقعاته لهذه الصورة الوردية المشرقة والمتفائلة للمجتمع اللاتبقى ، فلا جدال أن ماركس اعتقد فى تميز وانصاف المجتمع اللاتبقى وتفردته بتحقيق مستوى أعلى للحياة وحرىات ثقافية وسياسية أوسع وغياب وانعدام أى نوع من القهر والظلم ، وبشكل لم يتحقق ولن يتحقق فى أى مجتمع من المجتمعات الطبقيّة سواء كان ديمقراطياً أو ليبرالياً . وقبل أن ننهى هذه النقطة ، ينبغى ملاحظة أن توقعات ماركس المتفائلة ليست مختلفة كثيراً ،

أو أقل تطرفاً من تصورات الاشتراكيين الطوباويين في القرن التاسع عشر والتي سخر منها وهزأ بها وبمناهجهم في فهم وإدراك الاشتراكية . وعلى سبيل المثال فإن وليام جودين William Godwin في كتابه العدالة السياسية political justice يتحدث عن المستقبل غير المنظور والذي فيه «لن توجد حروب» جرائم ، ولا إدارة لتنفيذ العدالة ، كما تسمى ، ولا حكومة . بالإضافة لعدم وجود أمراض ولا آلام ولا أحزان ولا قلق ولا وسيبحث كل فرد بحماس فائق التصور عن خير الكل «وقد أقنع ماركس نفسه باعتقاده أن المجتمع والحكومة سيمارسان وظيفتهما بدون الدولة . ولا يوجد دليل أمامنا على أنه أولى اهتماماً وتفكيراً أكثر للمشاكل التي ستثيرها رؤيته هذه . فلقد كان جل اهتمامه منصبا على كيفية تحقيق الاشتراكية حالما تكون الشروط والوضع التاريخي الموضوعي مهيناً وممكناً ، وقبل مناقشة نظريته حول الثورة الاشتراكية ينبغي أن نعرض باختصار نقده للرأسمالية كنظام اقتصادي .

٩ - النظرية الاقتصادية :

لقد طور ماركس نظريته الاقتصادية بعد عدة سنوات من صياغته وتكوينه لنظرياته التاريخية ، وفي الطبقات ، ونظريته في الطريق نحو الاشتراكية . ولقد صيغت نظريته الاقتصادية لتوضح أن التطور التاريخي للرأسمالية ينتج شروطاً تمهد الطريق للمجتمع الاشتراكي . ولقد تنبأ بعدة اتجاهات ونزعات أساسية مصاحبة لنشأة الرأسمالية مثل تمركز الصناعة ، وتمركز رأس المال فترات الازدهار والكساد الدورية ، ونمو الاحتكار . ولقد أدرك العديد من

الاقتصاديين صدق هذه التوقعات وسلامتها رغم أنهم ليسوا
ماركسيين ولا حتى اشتراكيين . ولكن محاولة ماركس
اشتقاقها من نظريته فى القيمة ، والمقتبسة عن ريكاردو (١)
تعتبر محاولة مثيرة للجدل والنقاش ولقد قوبلت بقليل من
القبول لدى الاقتصاديين المعاصرين .

لقد عرف ماركس الرأسمالية كنظام اجتماعى توظف
أدوات الانتاج فى اطارها لتحقيق الفائدة الخاصة لأولئك
الذين يمتلكونها . من خلال جهد وعمل العمال الذين لا هم
عبيد ولا اقنات بل هم رجال أحرار . فالفائدة والربح
profit هما الهدف الأول والأخير لعملية الانتاج فى مثل هذا
النظام . فكيف تنشأ هذه الفائدة ؟

أكد ماركس أن قيمة السلعة تتحدد من خلال مدة وقت
العمل labor time الضرورية لانتاجها . وليست أية مدة
عمل . لانه لو أنتجت السلعة على يد عامل كسول أو من يعمل
بأدوات تقليدية بائدة antiquated tools فان قيمتها ستكون
أكثر من قيمة السلعة التى ينتجها عامل يعمل بأدوات حديثة .
ينبغى أن يكون لوقت العمل ضرورة اجتماعية .

وتتفاوت هذه الضرورة الاجتماعية للمهارات السائدة،
وقوة الجهد ، والظروف التكنولوجية للانتاج فى أى عنصر .
فالعامل يبيع قوة عمله labor time فى السوق باعتبارها
سلعة . ويتحدد سعرها كأية سلعة أخرى . أى ، عن طريق
الضرورة الاجتماعية لوقت العمل المطلوب لانتاجها واعادة
انتاجها . ويتلقى العامل من خلال التبادل والمقايضة مبلغا
من المال عن الوقت الذى يعمل به . وقيمة هذا المبلغ تساوى

(١) ديفيد ريكاردو (١٧٧٢ - ١٨٢٢) اقتصادى انجليزى مؤسس نظرية قيمة العمل
ووفقا لها تتحدد القيمة التبادلية بالعمل المستخدم لانتاج سلعة ما ، وتفترض القيمة
الاستعمالية للسلعة عن القيمة التبادلية لها . (الترجم)

بالكاد مايسد رmqه ويقيم أوده هو وأسرته والحياة عند مستوى الضرورة - ولكن وفقا لماركس فان وقت العمل لايمثل اطلاقا أية سلعة أخرى - فانه يخلق ويبعد قيمة أكبر من قيمته المتداولة فى السوق ، أى ، قيمة أكبر من القيمة التى يستحقها ذاته ، فلو باع الرأسمالى السلعة بسعر التكلفة على الأقل لانتاجها (تكاليف غير مباشرة ونفقات عامة ، المواد الخام ، الآلات ، الضرائب ، أجور الاداريين ، والأجور المدفوعة للعمال) فانه لن يحقق أية فائدة ولن يستمر ويبقى فى العمل - فليس هناك أى مبرر لكى يوظف أمواله فقط للحصول على وظيفة مدير ، فهناك كثير من الملاك لايدبرون مؤسساتهم ومع ذلك تدر عليهم الربح -

لقد رفض ماركس التفسير الشائع لمصادر وأصول الربح والفائدة وأكد أن :

(أ) العمل فقط هو مصدر القيمة -

(ب) فائض وقت العمل هو مصدر فائض القيمة ، وهو الذى يستهلك أكثر من الوقت الضرورى اللازم لخلق قيمة مساوية لاعاشة العامل وسد رmqه -

(ج) هذا الربح مثله كمثل الربح والفائدة *rent and interest* يشتق كلية من فائض القيمة والتى يخلقها العامل ، الآلية ، الاختراعات الجديدة (فيما عدا كونها أشكال عمل) ، وتقلبات السوق لاتضيف أية قيمة لأى شىء ولهذا لايمكن اعتبارها مصدرا للربح والفائدة -

وطالما أن العامل ينتج قيمة آثمن مما يدفع له ، فان ماركس أشار الى أن عملية الانتاج الرأسمالى ليست أكثر من نظام استغلالي مثل النظام العبودى والاقطاعى التى تجبر

العبد أو القن «الشفيل» على العمل فى ظلها بدون مقابل •
ويمكن غموض الانتاج الرأسمالى فى حصول العامل ظاهريا
على كل قيمة السوق full market value مقابل قوة عمله •
ومفتاح وحل هذا الغموض تبعا لما يراه ماركس هو أن
العامل يحصل فقط على قيمة قوة عمله وليس القوة الفعلية
المنتجة من خلال قوة عمله •

والسعى خلف الربح يعتبر روح وعماد عملية الانتاج
الرأسمالى • فلقد ازدهر وتطور من خلال ايجاد وسائل
جديدة وفرص لزيادة فائض القيمة - مصدر الربح - باطالة
يوم العمل • وعندما يكون العمال من القوة بحيث لايسمحوا
بذلك ، فان التبرير والاسراع بعملية الانتاج يتم بوسائل
أخرى لزيادة الانتاج عن طريق تحسين أدوات التصنيع
والتقنية أو اختراع وسائل جديدة - وتحت تأثير المنافسة
فان الانتاج الرأسمالى ينبغى مضاعفته وتوسعه بشكل يتناسب
مع زيادة الاستثمار وتوظيف رؤوس الأموال التى تذهب
مباشرة للمؤسسات والآلات وليست لصالح العمال • وتتخلل
هذه العملية أزمات دورية نتيجة لحقيقة مؤداها أن كمية
السلع المنتجة أكثر مما يمكن بيعه فى السوق ، ليس بسبب
عدم الحاجة اليها ، بل بسبب ضعف وعدم ملائمة القوة
الشرائية للأجور • وتكون النتيجة ما لم يتداخل أو يتعارض
نظام الانتاج الرأسمالى مع أى شئ خارج النظام - المزيد
من تركيز الصناعة ورأس المال اللذين يؤدىا مع الاحتكارالى
تضاؤل وانخفاض نسبى لقوة العمل ، تزايد حجم البطالة ،
اتساع نطاق المعاناة ، فالأغنياء يزدادون غنا ، ويقل عددهم
نظرا لافتراسهم بعضهم البعض ، ابان محاولتهم تضخيم
كياناتهم الاقتصادية • والفقراء يزدادون فقرا وبؤسا ،
ويتزايد عددهم ، ويقل وينخفض مستوى مهارة العمال نتيجة

للالحلال والتغيير المستمر لهم بالماكينات والآلات المعقدة والتي لايتطلب عملها شيئا أكثر من الالتزام بدفع المفتاح أو الزر .

لايمكن للرأسمالية فى اطار هذه النظرية أن تستقر بذاتها ، بل ينبغى أن تتوسع والا لاقت حتفها . ففى مسار تطورها وتوسعها تتابع الأزمة تلو الأخرى ، ويتم التغلب عليها أحيانا وتتفاقم بفعل الحرب أحيانا أخرى ، حتى يهبط العمال ويأخذون المبادرة وينتزعون ملكية أدوات الانتاج فى المجتمع ، ويديرونها ويتعاملون معها طبقا لتخطيط اقتصادى اجتماعى جديد للخدمة ولصالح الجميع . وتتحرر الانسانية من «عبودية وتقديس السلعة» ومن الحكم الظالم الفشوم للمنتجات التى صممتها بيديها . وبمساعدة العلم سيتم التخطيط لتوظيف كل موارد المجتمع وباستخدام التكنولوجيا وذلك لاجل المزيد من الرفاهية للانسانية . وسيشرق فجر الوفرة والرخاء .

ولم نخبرنا نظريات ماركس الاقتصادية بمعدل سير الأسعار يوما بيوم ، ولا بالتغير فى قيمة الأسهم ، أو نشأة صناعات جديدة . وهى لم توضع لهذا الغرض فاهتمام ماركس كان منصبا على كشف قوانين تطور الرأسمالية وايضاح أن عملياتها الأصلية والجهورية والتوسع الضرورى فى تسهيلات الانتاج تقود المجتمع الى النقطة التى لايمكن للنظام عندها أن يقوم بوظيفته . فهى بنجاحها الباهر تعفر قبرها أو بدقة أكثر هى التى تبدد قوتها وتصبح خائرة القوى وهى التى تخلق القوة التى بها تقتل .

١٠ - الطريق نحو الاشتراكية :

لو أن الانسان هو الذى يصنع تاريخه بنفسه فانه رغم انهيار المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية فلن تقوم أخرى جديدة من تلقاء ذاتها لتقوم بوظيفتها . وينبغى تحقيق الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية بالعمل والحركة السياسية . ومالم تكن الظروف مواتية ومهيئة فلن يمكن نجاح وقيام الاشتراكية وستبوء محاولات تحقيقها بفشل ذريع . ولكن قد يكون الموقف ملائما وناضجا ولا يحدث تقدم مماثل وموافق له . فقد يترك الكثير من الفاكهة الناضجة على أغصانها لتذبل أو تتعفن وتهترأ . فلكى يتم التحول نحو الاشتراكية من النظام الرأسمالى المنهار يتطلب ذلك وعى الطبقة العاملة ويستلزم القيام بدورها . فهى بمفردها التى ينبغى أن تؤسس قاعدة منظمة للجموع تكون أساسا للحركة الاشتراكية .

لماذا ينبغى أن تكون الطبقة العاملة هى صاحبة الدور الطليعى لتحقيق الاشتراكية ، وليس الفلاحون أو المزارعون الأجراء أو الطبقات المهنية أو فاعلو الخير من أى طبقة ؟ واجابة ماركس هى ، أولا لان أعضاء الطبقة العاملة أكثر عددا من أى طبقة أخرى ، واكتسبوا مقدرة وتدريباً خاصاً على التنظيم بفضل دورهم فى عملية الانتاج ، ثانيا لانهم يحتلون دوراً استراتيجياً *strategic role* فى المجتمع وبامكانهم اصابة الاقتصاد بالشلل عن طريق الاضرابات العامة ، ثالثاً والأهم لأنه يمكن تسوية أية صراعات بين كل المجموعات الأخرى بدون تغيير العلاقات الأساسية للملكية بأية وسيلة ، فى حين أن الصراع بين العمال ومن يملكون وسائل الانتاج يعد صراعاً طويلاً الأمد يندلع المرة تلو

الأخرى فى شكل حاد وخطير ولا يمكن حله الا بتغيير النظام ككل عن طريق الثورة الاجتماعية التى يتم انجازها سلميا فى البلدان الديمقراطية وبطريق العنف فى البلدان غير الديمقراطية .

ولا يمكن للطبقة العاملة أن تنجح فى مهمتها التاريخية بدون قيادة تلهمها وتنير وعيها وتقودها وينبغى أن تجهز هذه القيادة وتزوده بهؤلاء الاشتراكيين الذين استوعبوا وتعمقوا فى ادراك نظريات ماركس . ولكى يميز بينهم وباقى الاشتراكيين الذين يتبنون نظريات أخرى ، أشار ماركس اليهم على أنهم الشيوعيون وذلك عام ١٨٤٨ ولكنه عاد مؤخرا لاستخدام مصطلح الاشتراكيين عندما نظم الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى وحتى عندما كان ماركس عضوا فى العصبة الشيوعية communist league وهى جمعية علمية صاغ ماركس بيانه الشيوعى باسمها ، فانه كان يميز نفسه عن «أولئك الشيوعيين الذين كانوا يودون تحطيم الحرية الفردية ، وتحويل العالم الى ثكنات ضخمة أو مستودع هائل» .

ولقد حددت ووصفت المهمة بوضوح لأولئك الذين يتفقون مع ماركس . فعليهم أن يشاركوا بشكل يومى فى نضال الطبقة العاملة ، وتشجيع تنظيم نقابات للعمال ، وقيادة كفاح المناضلين لتحسين ظروف ومستوى معيشتهم . عليهم ألا يخلدوا للراحة، ينبغى ألا يخلدوا للراحة والاكتفاء بمجرد التهييج والاثارة من أجل الاصلاحات الفورية وتحسين الظروف بل ينبغى التركيز على تسييس politicalize نشاطات الطبقة العاملة وايضاح أن كل نضال طبقى هو نضال سياسى . وينبغى عليهم ألا يؤسسوا حزبا خاصا بهم

ضد الأحزاب الأخرى للطبقة العاملة لكن ان يناضلوا من أجل توحيد صفوفهم وتكتلهم فى جبهة واحدة . وفوق هذا «لا يضعوا مبادئ جامدة صارمة يتحكمون بها فى الحركة البروليتارية proletarian» « وألا يفرضوا سياسة الحزب بل يؤكدوا على مافيه مصالح الطبقة العاملة ككل . وفى نفس الوقت عليهم أن يحاولوا جذب القطاعات الجماهيرية والمضطهدة لصف وجانب العمال من خلال عوامل الاستياء داخلها . وفى النهاية عليهم أن يحافظوا على حرية أحزاب الطبقة العاملة وتحريها من التعصب القومى الضيق ، ففي هذا العالم المترابط والاقتصاديات المتشابكة ينبغى أن نعى ونعلم أن المصالح الأساسية للطبقة العاملة الأممية هى التى يجب أن تحظى باهتمام مبدئى (راجع النص رقم ١) .

وباختصار ، لم يتصور ماركس «حزبه» باعتباره جيشا تأمرىا منظما تحت الأرض ، أو كمجموعة تهدف لفرض الديكتاتورية على البروليتاريا ، ولم يتصوره حتى باعتباره حزبا سياسيا خاصا . فلقد كانت مهمته مبدئيا ممارسة القيادة التربوية . ورغم ذلك ، كلما تزايد حجم أتباعه كان ماركس يشجعهم بحماس حتى ينظموا أو يحولوا المجموعات والحلقات العمالية الموجودة الى أحزاب ماركسية . ولقد مضت ممارسات ماركس السياسية بالكاد وفقا لنظرياته حول العلاقة التى ينبغى أن توجد بين الاشتراكيين والطبقة العاملة .

ولقد حصر ماركس تفكيره فى استخلاص استراتيجيه الطريق نحو الاشتراكية . ففي البلدان المختلفة ستصل الطبقة العاملة للسلطة بطرق مختلفة ولكن لن يتحقق أى تغيير اجتماعى أساسى بضربة واحدة . فالعملية تتكون من :

١ - تحقيق الانتصار السياسى الذى به يتم تحطيم الشكل القديم للدولة واحلاله بشكل جديد .

٢ - اخضاع وسائل الانتاج الرئيسية للملكية الجماعية socialization وتأسيس معايير قانونية جديدة للملكية غير الشخصية non-personal

٣ - ظهور «المرحلة الأولى» للمجتمع اللاتبقى حيث يظل يحمل بعض سمات وعيوب المجتمع الرأسمالى ، ويكافىء الأفراد تبعاً لما ينتجونه .

٤ - ظهور «المرحلة الأعلى» للمجتمع اللاتبقى والذى فى ظله سيشارك الأفراد تبعاً لقدراتهم ويكافأوا بحسب حاجاتهم (١) .

وهذه الخطوات أو المراحل ليست متميزة بشكل صارم عن بعضها البعض أو ذات أهمية بسبب التطبقات وسوء الاستخدام الذى تلاها على أيدي لينين وستالين . ففى أحد مواضع نقده لبرنامج جوته Gotha والذى أقره المجلس الاتحادى لمجموعتين اشتراكيتين — the lassalleans and eisenachers والذين تكون منهما الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى (كان ماركس يسميه «حزينا») كتب ماركس «تقع بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى فترة تحول ثورى من أحدهما للآخر . وترتبط بذلك فترة انتقال وتحول سياسى والتى لا تكون الدولة فيها شيئاً ملموساً بل توجد الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا» (٢) .

(١) ويعد شعار هذه المرحلة كما هو معروف فى أدبيات الماركسية من كل حسب قدرته ولكل بحسب حاجته . (المترجم) .
(٢) انتقد ماركس برنامج جوته فى رسالة الى براك (٥ مايو ١٨٧٥) وبالمثل انتقد انجلز نفس البرنامج فى رسالة الى بيل ، ويلور تقدمها حول مسألة الدولة وارتكز النقد على خبرة تجربة كومونة باريس . (المترجم) .

وعبارة «ديكتاتورية البروليتاريا» التي برهنت مؤخرًا على ذلك النزاع المصيرى الحاد بين أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ماركسيين لم تستخدم فى أى عمل رئيسى منشود لماركس الا مرتين فى مراسلاته • وتبعًا لماركس ، وحتى فى ظل الديمقراطية السياسية ، حيث تكون وسائل الانتاج ، مملوكة لعدد قليل ، ونتيجة لذلك توجد الديكتاتورية الاجتماعية لأولئك الذين يملكون ويتحكمون فى وسائل الانتاج ، بسلطتهم فى منح فرص العمل أو حجبها أو سحبها ، وممارسة سلطة استبدادية على حياة أولئك الذين ينبغى أن يعيشوا على استخدام هذه الوسائل والأدوات — وتؤدى الدولة وظيفتها باعتبارها أداة للطبقة المسيطرة اقتصاديا ، وتقوى وتدعم سلطتها • وعندما يؤسس العمال دولتهم ، فإن الوضع سينقلب عن طريق جعل الانتاج جماعيا ، يصادر العمال «الملك السابقين» بصرف النظر عن ديمقراطية الأشكال السياسية والعمليات التي ينفذ بها ذلك ، فهو فى الواقع ديكتاتورية اجتماعية للعمال على الملك السابقين •

وكما تصورها ماركس ، فإن التعبير السياسى لـ «ديكتاتورية البروليتاريا» الاجتماعية يتخذ شكل ديمقراطية العمال • ولقد اعتبر كل من ماركس وانجلز كميونة باريس (١) Paris commune «ديكتاتورية بروليتاريا» وهى التى شاركت أحزاب عديدة فيها ، وكان أتباع ماركس

(١) كميونة باريس (١٨ مارس — ٢٨ مايو ١٨٧١) حركة ثورية جماهيرية قام بها العمال والطبقة الوسطى ، ضد حكومة قرساى ، وقامت الكوميونة بتعطيل آلة الدولة القديمة ، وإلغاء الجيش الدائم وإقرار بدء انتخاب جميع الموظفين وقابليتهم للعدل ، وجردت الشرطة التى كانت حتى ذلك الحين أداة فى أيدي الحكومة — من كل صلاحياتها السياسية وحولت الى أداة مسئولة أمام الكوميون ويمكن إلغاء التفويض الممنوح لها فى أى وقت وكان يتعين أداء الخدمة العامة بدءًا من أعضاء الكوميون فثنازلا لقاء أجر يساوى أجر العامل اختفت جميع الامتيازات والعلاوات ولم يدم ذلك بل سقطت الحركة الثورية • وصحقت لموامل كثيرة كامنة فى بيئتها وفى الظروف الموضوعية المحيطة بها •

أقلية ضئيلة ولقد وسعت العملية الديمقراطية كما توجد في ظل الرأسمالية بحيث تتيح للشعب ممارسة نفوذ مباشر وأوسع على إدارات الدولة عن طريق الاستفتاء والاقتراع . ولأن الماركسية باعتبارها حركة متطورة قد لاقت سوء فهم تماما مثلها مثل عبارة «ديكتاتورية البروليتاريا» وذلك في كل بلد ديمقراطى سياسى مالم يتم احياؤها على أيدي أتباع لينين وتاروتسكى .

١١ - طبيعة الأيديولوجية : Ideology

كان ماركس يعتقد جازما بأن الأفكار والمفاهيم تلعب دورا هاما في الشؤون الانسانية ، رغم أن أصلها وتأثيرها مشروط اجتماعيا . واعتبر أن أفكاره ستصبح أفكار العصر وافترض أن اعتناقها سيسهم لحدا ما في النجاح المرتقب والمأمول للحركة الاشتراكية .

وسواء عرف الانسان بأنه حيوان ناطق أم لا ، فمن المؤكد أنه المخلوق الذى يقدم عللا وأسبابا لتبرير أفعاله . وهذه الأسباب في معظمها لاتفسر حقيقة أفعاله ، ولكنها تضلل الآخرين بمثل ماتضلل واضعيها عن أهداف وبواعث سلوكهم . واعتقد ماركس أن الأفكار والمفاهيم الاجتماعية التى تستشهد بها لتفسير سلوك البشر والمؤسسات هى بمثابة قناع لصراع المصالح الاقتصادية . والصراع لاحراز القبول والاعتناق يتحرك من خلال الصراع الاجتماعى الفكرى ، وأيا كانت المنظومة المنتصرة فهي تحدد فى النهاية المعتقدات والمفاهيم السائدة والمهيمنة للمرحلة فالمعتقدات المهيمنة فى كل عصر هى دائما أفكار الطبقة المسيطرة . حيث يدرك العداء والتنافر بين الطبقات علانية وبشكل صريح ، ويترتب

عليه صراع آخر مصاحب ومرتبط بالأفكار والمفاهيم المتصارعة لتحديد الخير والشر الحسن والقبح ، وأحيانا الحق والزيف .

وبكلمات أوضح ، يعتبر ماركس كل الفلسفات الاجتماعية أما أساطير وخرافات أو نظريات ذات أساس علمي . والأسطورة نوعان : الأفكار الخاطئة الزائفة ، المرفوضة أو الممكن تفنيدها بالدليل والبرهان ، والأفكار التي رغم قدرتها على حشد والهام جموع هائلة أو تثبيط عزمهم وتشويشهم ، فهي على درجة من الغموض بحيث لا يمكن التحقق منها . وكلا النوعين من الأساطير أداة تبرير سيكولوجي psychological للمصالح التي لا يمكن تحقيقها أو الاقتناع بها وقبولها لو تم الدفاع عنها بشكل صريح ومباشر ووفقا لرأى ماركس فان كل الفلسفات الاجتماعية التي تدعى أن كل المصالح الموجودة في مجتمع طبقي هي مصالح مشتركة وعامة ، تعتبر فلسفات أسطورية بل وأكثر من ذلك فان الفلسفات الاجتماعية المختلفة والمتعارضة مع فلسفته ومؤداها تقديم تفسير حقيقي لبناء المجتمع وتطوره، هي أيضا فلسفات أسطورية .

ولقد استخدم ماركس مصطلح « الايدولوجية » كمصطلح مفهوم لكلا النوعين من الاسطورة myth خاصة التي يقصد توظيفه كتفسير تبريري للوضع الراهن status quo . ولقد اعتبر ماركس ان افكاره الاجتماعية ونظرياته . نظرية علمية . وحقيقة لقد وضعت وفصلت لتأييد نضال الطبقة العاملة حتى تتحقق الاشتراكية ، وهذه الحقيقة لا تؤثر في سلامتها وصحتها لقد اعتقد ماركس ان افكاره يمكنها الصمود أمام أى اختيار صارم دقيق . وهذا ماسنقوم به في الفصل التالي .

الفصل الثانى

تقييم اسهامات ماركس

النقد الصارم هو الشئ الذى لن تصمد أمامه أفكار ماركس لانها لم تصغ بدقة • وانصافا لغايته وقصده ينبغى اعادة تحديدها وتأويلها غالبا • فهى تكون خليطا من الحقائق، والمبهمات الغامضة ، والزيف •

وينبغى أن يكون واضحا لأى قارئ واع أن ماركس يكتب مبدئيا كناقذ للرأسمالية ، كرجل ينقد بأفكار مشبوبة وحماسية ليزيل التفاوت الاجتماعى ، الفقر والظلم الماثل فى عصره • وكثيرا مما قاله كان مفهوما وبشكل جيد بإعتباره كوصف للمجتمع الرأسمالى فى عصره ، وكتنبؤ للتطور التاريخى المحتمل لأى نظام رأسمالى مع افتراض عدم تداخل أى شئ خارج هذا النظام ليؤثر على تطوره ، وخاصة المؤثرات السياسية • ولقد نشأت أخطاء ماركس الأساسية من الاستنتاجات الاستقرائية غير الناقدة *uncritical* مما لاحظته فى المجتمعات الرأسمالية وتعميمه *extrapolation* على كل المجتمعات الطبقية ، ومن تجاهله للمؤثرات الضخمة السياسية ، والقومية والقوى الأخلاقية ، والتى مارست دورها وتأثيرها على تطور الرأسمالية كنظام اقتصادى •

١ - المادية التاريخية :

الدراسات التاريخية المعاصرة حتى لو لم تكن ماركسية بشكل واضح وصريح فانها تعكس الأثر العميق لأفكار

ماركس ولو في صورة وشكل طفيف . فلقد أثرت هذه الأفكار الكتابية التاريخية ، وجعلتها أكثر واقعية وهبطت بها على سطح الأرض (١) ، *down to earth* ، وطرحت القضايا ذات الاهتمام على بساط البحث . حتى أن مؤرخا مسيحيا مثل البروفيسور بترفيلد *Butter Field* أظهر تقديرا للتأثير الإيجابي المفيد لمنهج ماركس على المعرفة والعلم التاريخي . وكنتقدير أولى ، فإن نظرية ماركس في التاريخ تقدم تفسيراً مقبولا ظاهريا في الغالب للطابع العام للمجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، ولعملية تحديث الحضارة ، واخضاعها للطابع التجاري *commercialization* وأثر النتائج العديدة للعلم على المجتمع ، وللصراعات السياسية الرئيسية لهذه الفترة ، والتوسع الإمبريالي الأوروبي *imperialistic* للسيطرة على العالم .

وبصرف النظر عن مدى انصاف تأويلات ماركس ، فإنها على أية حال لا تقدم تفسيراً لعملية الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية . فلقد تواجدت المجتمعات الاقطاعية في مناطق كثيرة وفي فترات مختلفة . ولكن ظهرت الرأسمالية ونشأت فقط في أوروبا في ذلك الركن الصغير من العالم . ولم تظهر وتتوسع في أى مكان آخر كنتيجة لأى قانون داخلي لتطور العلاقات الاجتماعية للاقطاع بل بفضل الفوز أو تهينة واعداد المجتمع وتعديله للتكيف معها *adaptation* (مثال اليابان) . وحتى لا توجد أية أدلة بأن الانتقال من المجتمعات العبودية الى الاقطاعية كان عالميا ، أو انه حيثما يتم الانتقال وفقا لتصوير ماركس ومخططة . ولقد اشتق ماركس

(١) يقصد المؤلف دور ماركس في تحويل اهتمام الباحثين التاريخيين للاهتمام بالمشاكل الإنسانية في التاريخ - وحصر علل تطوره في القوانين العلمية لتطور الواقع والفعل - وليس البحث عن علل قننتى لعالم الميثولوجيا واللاهوت . (المترجم) .

ادعاءاته حول المجتمع البدائي من مورجان Lewis H. Morgan
والتي رفضت مؤخرا بفضل الاكتشافات الحديثة
للانثروبولوجيا anthropology

وتعتبر نظرية المادية التاريخية غير ملائمة فى معظم
صيغها المألوفة حتى بالنسبة للمرحلة الرأسمالية . فهى
تبحث فى تفسير كل التغيرات السياسية الهامة والتغيرات
الثقافية فى حدود تطور نمط الانتاج الاقتصادى ولا يمكن
اقامة واثبات هذا الادعاء الشامل بدون أساس احصائى
وبعد انجاز الأبحاث الجزئية للظواهر السياسية
والثقافية الهامة . فضلا عن تجاهل النظرية لحقيقة ان
الأساس الاقتصادى للمجتمع فى أى عصر غالبا ما يتسق
ويتوافق مع أكثر من شكل وصيغة سياسية ، ولهذا فان درجة
ومستوى وجود الديمقراطية او غيابها فى أى قطر ربما يتم
تفسيرها من خلال عدة عوامل مختلفة بالاضافة للنمط
الانتاجى للمجتمع .

وتعتبر الاستعارات المجردة للنظرية مضللة ويمكن
ان تستخدم ضدها . حيث ينظر لنمط الانتاج كقاعدة
واساس للمجتمع . ولكن الاساس لا يحدد كلية أى المباني
التي ستبنى فوقه ، وعدد الطوابق ، طابعها وطرازها
المعماري ، وظيفتها ، ودورها ، واستخدامها والأساسات
والقواعد لا تتطور . فهى تبني لغرض واحيانا تدمر لغرض
ويمكن استبدالها عند الضرورة بدون التأثير على البناء
الفوقى super structure وكما ان الاساسات قد تحدد
امكانيات اى تشييد اضافى فغالبا ما يحدد نمط الانتاج
الامكانيات السياسية والثقافية . وقد يجعل وجوده تحقق
بدائل سياسية معينة أمرا مستحيلا نسبيا . ولكن ليس

بإمكانه منع الإنسان من محاولة تحقيق المستحيل التاريخي .
ويمكن أرجاع سبب الكارثة الناجمة عن المحاولة إلى قرار
محاولة الوصول للمستحيل بقدر ما هي بسبب العوائق
والصعاب التي أدت إلى فشل هذه المحاولة .

وتخلط المادية التاريخية في صيغتها القطعية الارثوذكسية
orthodox بين العلل القريبة والمباشرة والعلل المطلقة والنهائية
ultimate وتتناسى أن العلم ليس معنيا بالبحث في العلل
النهائية . وتعترف ، عند الضرورة ، بوجود تأثير متبادل بين
العوامل المختلفة ، وبين العلل الاقتصادية والمؤثرات السياسية
والثقافية ولكنه يخفض هذا التأثير للحد الأدنى باعتباره
عرضيا وثانويا ، وفي معظم الأحوال فإن الشكل وال قالب
القبلي priori وهو نمط الانتاج يؤكد عليه ليكون دائما
المؤثر الحاسم في « التحليل النهائي » - وحتى التطورات
المستقلة والتي ليس لها أصلا أدنى علاقة أو صلة بنمط
الانتاج الاقتصادي ، كنظرية النسبية relativity التي أدت
إلى انطلاق الطاقة النووية nuclear energy ربما كان لها
تأثير بعيد المدى على السياسة في عصرنا ، وبالفعل لها تأثير
على نمط الانتاج الاقتصادي ذاته ، أكثر من تأثير أي
قانون داخلي لهذا النمط .

وتميل المادية التاريخية إلى اعتبار كل من أبطال الفكر
والعمل مجرد رسل أو تعبير عن القوى الاقتصادية في
نهاية الأمر ، ولكنها لاتستطيع أن تفسر حقيقة كون شخص
صانعا للأحداث event marking person مثل لينين Lenin
كان له تأثير سببي هائل وبعيد المدى على ثورة أكتوبر
البلشفية عام ١٩١٧ في روسيا ، بل وأعظم من تأثير وضع
قوى الانتاج أو درجة تطور علاقات الانتاج ويوضح وجود

دول مثل أيرلندا Ireland واسرائيل Israel نمطا آخر من الظاهرات التاريخية التي لم تتنبأ بها النظرية ولا يمكنها تقديم تفسير مقبول لها من خلال أدواتها ومصطلحاتها ولو حتى بعد وقوعها .

وتبدو المادية التاريخية بوصفها نظرية أحادية الجانب monistic في سعيها خلف الحلول الكلية الشاملة ، غير واضحة وغير مفهومة وتستخدّم فقط كمبرر للابتعاد عن التفكير في المسائل الشائكة والقضايا المعقدة . ولكن بوصفها نظرية تعددية تؤمن بتعدد وكثرة العوامل في تفسير تطور التاريخ pluralistic فإنها تعطى وزنا كبيرا لنمط الانتاج الاقتصادى . وتعتبر مبدء موجهة ومفيدا لتناول مشكلات متخصصة . وينبغى أن نمرّب عن اتفاقنا مع ملاحظة انجلز المتعلقة بهذا الخصوص بأن الدليل على وجود الفطيرة هو تناولها وأكلها the proof of pudding is in eating ولكننا قد أكلنا كمية من الفطير تكفى للسماح لنا بقدر ملحوظ من الشك فى الادعاءات الضخمة للنظرية فربما كان لنمط الانتاج الاقتصادى الكثير ليقوم به لتحديد وتقرير الأحداث السياسية الرئيسية فى اوروبا من ١٧٥٠ م وحتى عام ١٩١٤ . بشكل أكبر مما يقوم به أى عامل آخر ، رغم أنه يبقى فى حاجة لاقامة الدليل النهائى . وجدير بالملاحظة أنه لا ماركس ولا انجلز ولا أى زعيم قيادى بارز للمادية التاريخية قد تنبأ بظهور الفاشية fascism فى أى شكل من أشكالها . والفاشية والأشكال الأخرى للشمولية totalitarianism والتي ليست اشتراكية ولا رأسمالية ليس من السهل افساح المجال لها فى تحليل ماركس .

وبدون انكار التأثير المتواصل لنمط الانتاج الاقتصادى على الاطلاق ، لا يبدو أن له تلك الأهمية القصوى منذ ظهور

الشمولية كأهمية تأثيرها الواضح . فلقد كانت للقرارات السياسية قوة تأثير كبيرة على التطور الاقتصادى أقوى من تأثير نمط الانتاج الاقتصادى على الشؤون السياسية ، قرارات مثل معاهدة فرساي treaty of versailles الاتفاق الجديد للسنوات الطوال فى استرضاء ومحاربة هتلر Hitler الفشل فى مساندة النظام الديمقراطى الشرعى فى أسبانيا، الحرب ضد هتلر ، استرضاء ستالين ، تسريح الجيش الأمريكى فى اوروبا ، مشروع مارشال و UNRRA تورط الولايات المتحدة فى كوريا ، واعادة تسليح الغرب لمواجهة الزحف الشيوعى . (راجع مطالعة رقم ٢٣) .

٢ - التطور التاريخى :

لو كان حقا كما ادعى ماركس انه «لايوجد ثمة نظام اجتماعى يزول قبل كل القوى الانتاجية التى بالنسبة له كعجزة قد تطور بداخلها» اذن فمن الصعب أن نرى لماذا ينبغى أن يزول أى نظام اجتماعى ، لم تدمره الحرب أو الكوارث الطبيعية . بينما يوجد أمامه عدد لا محدود من امكانيات التوسع والامتداد . فالعبودية لن تختفى حتى تصبح على الأقل ظاهرة عالمية . والرأسمالية قد تحتفظ باستمرارية وجودها من خلال المجالات الجديدة المفتوحة للحاجات التى تتطلب صناعات جديدة لاشباعها . ونظريا ، فان الابداع الانسانى قادر فى ظل أى نظام على ايجاد الوسيلة تلو الأخرى لتطوير القوى الانتاجية . وتاريخيا ، ليس هناك أى دليل أيا كان على أن الرأسمالية كانت تمضى فى مسار تطورها المألوف عندما تقلد الشيوعيون السلطة فى روسيا فى أكتوبر ١٩١٧ . ولم يقدم ماركس من جانبه أية حالة مقنعة على تأكيده بأن الرأسمالية ينبغى أن تتبعها الاشتراكية وليس

أى شكل آخر للنظام الاجتماعى • حيث توجد بدائل أخرى قد تجاهلها ، مثل أحد الأشكال التى تحتفظ باستمرار الملكية الخاصة لوسائل الانتاج مع وجود توجيه اجتماعى واسع لعملياتها ، أو الاقتصاد المختلط لكلا القطاعين الخاص والعام للانتاج • فلقد ألقى ماركس هذين البديلين من مفاهيمه عن الاشتراكية والرأسمالية وهما أقرب وأكثر التصاقا بالواقع الحاضر والمعاش فى بلدان كثيرة •

٣ - الصراع الطبقي :

رغم أن مفاهيم الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي لم تكن محددة وواضحة لدى ماركس ، فانها قد استخدمت بطريقة رائعة لتثير بعض الفترات الحاسمة فى التاريخ المعاصر ومنذ عصر ماركس أصبحت هذه المفاهيم جزء من الأدوات العقلية لكل المؤرخين التجريبيين empirical وكى ندرك دور الطبقات أيا كان فى الحياة السياسية والاجتماعية فذلك شئء معلوم • أما افتراض أن للطبقات الاقتصادية بصرف النظر عن تعريفها ، دورا ملحوظا ومهيمن بالنسبة للتقسيمات الطبقيّة الأخرى الدينية ، القومية ، أو العرقية ، فذلك أمر مختلف تماما • فلقد كان واضحا أن مصالح الطبقة العاملة فى كل البلدان تدفع لمعارضة الحرب العالمية الأولى وتعهّدات أحزابها السياسية الرئيسية بالقيام بذلك قبيل اندلاع الحرب • ولكن ما ان نشبت الحرب الا وهى تدعو وتحث على تأييد حكوماتها القائمة بحماس وطنى لا يقل عن حماس بقية الطبقات الأخرى •

ولقد استخدم مصطلح «طبقة» لدى ماركس بمعان مختلفة ، تشقّق كلها من بعضها البعض على نحو دقيق • فاحيانا يكون تعريفها الدور الذى تلعبه جماعة فى الانتاج ،

واحيانا أخرى النمط السائد لجماعة ما فى الحياة ، متضمنا الثقافة والتقاليد ، و احيانا مصدر الدخل او مستواه ، وفى بعض الأحيان تعنى المهنة أو فى الحالة المتعطلين غير العاملين احتياجهم لمهنة ما - فلو كان الأمر كما أعلن البيان الشيوعى « ان كل التاريخ هو تاريخ الصراعات الطبقيّة فبال تأكيد لن يكون صحيحا أن الصراعات الطبقيّة كانت اقتصادية بأى معنى من المعانى السالفة الذكر - بل وليس صحيحا أن كل التاريخ هو فقط تاريخ الصراعات الطبقيّة ، بل هو بالمثل ان لم يكن أكثر ، تاريخ التعاون الطبقي فغالبا مايبقى العداء الطبقي مستترا وكامنا عندما تشترك قواتهما فى مواجهة خطر مشترك أو يتحدا فى عمل مشترك من أجل منفعتهما المشتركة - ويعتبر تواتر وحدة شجب وادانة الماركسيين للتعاون الطبقي class collaboration ابلغ شهادة على وجود وانتشار هذا التعاون حتى فى المواقع التى قد يتوقع المرء فيها صراعا وتصادما صريحا وعلنيا بين المصالح - وثبت ان « قانون الصراع الطبقي » ليس قانونا ، طالما له مثل هذه الاستثناءات العديدة ، أو له فعالية ومصداقية محدودة -

هنا وكما فى اى موضع آخر من فكر ماركس ، ليس مفهوم الصراع الطبقي هو غير المنطقي والشاذ بل امتداده اللانقدي والنزعة خصوصا لدى اتباعه لتفسير الصراعات الثقافية والدينية والعقلية وبالمثل التطور العلمى كنتائج تلزم عن الصراع من أجل نصيب أكبر من الثروة الاجتماعية والسلطة - ومما لاشك فيه ان الصراع حول الثروة والسلطة مظهر مصاحب وملازم لتلك الصراعات و احيانا يعتبر عاملا سببيا حقيقيا وطيد الصلة بها - ولكن بالعلاقة بمجالات ارحب فى الثقافة وخاصة العلوم والفنون ، وبعض الأحداث

بالغة الأهمية ، مثل بعض أحداث الحروب الصليبية ونشوء كثير من الحركات القومية ، او الحرب ضد الهتلرية Hitlerism ، فقد تم تجاهلها جميعا ، أو اعتبرت ذات أثر مساعد وبدرجة ثانوية .

٤ - النظرية الاقتصادية :

توجد هناك صعوبات خاصة فى النظرية الماركسية حول القيمة وفائض القيمة والتي لم تعد ملائمة بقدر كاف اولا ، حيث يبدو متعسفا بدرجة كبيرة مفهوم ان كل عمل بما فيه كل أنواع العمل الماهر يمكن اختصارها الى عدد معين من قوة العمل المتجانس . وحيث توجد هناك اختلافات مميزة ولا يمكن اختزالها بين أنواع معينة من العمل . وعلى سبيل المثال ، العمل البدنى والتفكير التأملى والذى يمكنه استنباط أية نتيجة رياضية بدون اى عمل بدنى على الاطلاق فهما مختلفان عن بعضهما البعض كالفروق التى توجد بين الألوان والأصوات . وربما يكون لهما مقياس مشترك common measure ولكن ليس لهما مادة مشتركة substance «تجانس تكوين العمل الانسانى» كما ادعى ماركس .

ثانيا لايمكن تصديق فكرة أن استخدام الآلات وكل وسائل توفير العمل لاتضيف للسلع أية قيمة ماعدا تلك ذات قوة العمل المستخدمة فى انتاجها ، ولايمكن أن تتفق هذه الفكرة مع حقائق التبادل .

ثالثا ، لو أن قوة العمل هى المصدر الوحيدة للفائدة ، اذن فان اتفاق مبالغ متساوية من رأس المال مع اختلاف النسب المنصرفة على الآلات . . الخ ، والعمل ، سوف تظهر ، لو أن مستوى الاستثمار ومعدله ثابت فى جميع الحالات ، ان

مستوى ومعدل الربح سيختلفان بالتالى مع تحقيق معدل أعلى من الربح عندما تكون نسبة تكاليف العمل أعلى بالنسبة لاجمالى المبالغ الاجمالية المخصصة .

وهكذا ، فلو أن هناك مبلغ مليون دولار قد خصص ووظف منه ٩٠٠.٠٠٠ تسعمائة ألف للآلات والتجهيزات . . . الخ ، ١٠٠.٠٠٠ ومائة ألف للعمل ، ومبلغ مماثل وظف منه ١٠٠.٠٠٠ مائة ألف للتجهيزات ، وتسعمائة ألف ٩٠٠.٠٠٠ ألف للعمل ، ولو أن قوة العمل تؤدى بنفس المستوى من الجهد ، اذن وفقا لنظرية ماركس ، فان مستوى الربحية ومعدل الفائدة للمشروع الأول سيكون ١٠٪ ، وللثانى ٩٠٪ . ولكن فى الواقع فان مستوى ومعدل الفائدة متساويان تقريبا . ولقد حاول ماركس تجنب هذا التناقض بتوسيع مفهوم العمل ليتضمن كل الكيانات الانتاجية للمجتمع . ولقد برهن على أن اجمالى مبالغ أثمان كل السلع المنتجة فى المجتمع مساوية لاجمالى قيمة هذه السلع . ويعتبر هذا مجرد تحصيل حاصل ولايقدم شرحا البتة ما الذى يحدد سعر أية سلعة معينة ، بما فيه سعر قوة العمل ، وأيضا مصدر الربح .

وتتسم تنبؤات ماركس المتعلقة بتطور الانتاج الرأسمالى بدرجة عالية من النجاح . فلقد استشرّف وتنبأ أن رأس المال سينمو فى وحدات أكبر فأكبر وسيحقق ممارسة احتكارية . وأدرك التأثير الثورى للعلم على التكنولوجيا الصناعية . وتنبأ بنمو البروليتاريا ، وبدورات الازدهار والكساد الاقتصادى ، وبالتوسع الامبريالى . وكان صائبا عندما رأى أن النجاح المستمر فى تحقيق تراكم رأس المال سيخلق باستمرار صعوبات طالما أن الرأسماليين يسعون ويبعثون دائما عن تجدد فرص الربح .

ومن ناحية أخرى ، فلقد قلل ماركس وأبنخس من قدر القوة المتجددة للرأسمالية لتجاوز آزماتها الدورية والتغلب عليها ، وتنوع الأشكال التي تتخذها هذه الأزمات ، ومن التأثير الاقتصادي للحركات النقابية العمالية ، وإمكانية ممارسة ضغط العمال ودورهم من خلال اتساع نطاق الديمقراطية السياسية ليشمل توزيع الثروة والضمان الاجتماعي social security وظهور فاعلية القوة الشرائية للاجور ، وتحسين مستوى المعيشة والصحة . وبرغم تقدير ماركس للأثار المأخوذة عن العلوم التطبيقية إلا أنه قلل من أهميتها في مضاعفة وزيادة صناعات جديدة وأدرك دلالة انفصال الملكية عن التنظيم والإدارة في الرأسمالية الحديثة ولكنه أخفق في ادراك ما يترتب عليه من تزايد التنظيم الاجتماعي للصناعة ومن تحولات اجتماعية عديدة . واقتنع بشكل واضح بإمكانية أن تصبح الصناعة تابعة للدولة وبشكل مستقل عن مصالح مالكي وسائل الإنتاج وذلك عن طريق تتابع ضبط وتوجيه الأسعار والأجور والأرباح وبنفس الدرجة من خلال قانون العملة ، وتمويل العجز في الميزانية ، الضرائب ، والبنوك العامة يمكن للدولة أن تمارس تأثيرا على قنوات إعادة توظيف الأموال وليس فقط في أوقات الحرب .

اعتقد ماركس أن أي نظام رأسمالي «نموذجي ideal مثال : النظام الذي يتطور نسيبيا بمعزل عن التأثيرات السياسية لتدخل الدولة أو لتدخل الطبقة العاملة المنظمة ذاتها لا يمكنه أن يحقق ويدر أرباحا كافية لتكون حافزا على إعادة توظيف الأموال ، وأن يوفر فرص عمل لكل من يرغب ويقدر على العمل ، ويمتدح في نفس الوقت مستوى ملائم للمعيشة أعلى من مستوى الضرورة وإقامة الأفراد للجموع .

ولم يبرهن ماركس حقيقة على هذا ولا حتى بالنسبة لذلك النظام «النموذجي» ، الذى لم يوجد قط ، ومن المرجح أنه لن يوجد أى نظام مثالى للرأسمالية وعلى الأصح بالنسبة لأى نظام آخر .

ولا تمنح الفائدة فى النظم الرأسمالية المعاصرة لكل الرأسماليين بل لعدد معين . وهذا العدد قد يكون كافيا ليحتفظ باستمرار الانتاج فى وضع يسمح بتشغيل معظم العمال وبحيث يتلقى أولئك الذين لا يعملون مؤقتا مساعدات اجتماعية . ومما لاشك فيه أن ماركس كان محقا فى توقعه لدورات الاضطراب الاقتصادى طالما بقى السوق يعمل فى ظل اقتصاد غير مخطط . ويبقى مطروحا للبحث سؤال حائر ، حول ما اذا كانت فترات الاضطراب الاقتصادى حتى فى حالة الاقتصاد المخطط لن تحدث ، وأيضا هل لن تحدث بطلاة مقنعة خلف غمام التضخم ، وقوة العمل غير الفعالة .

وفى الوقت الحاضر يظهر لنا اقتصاد بريطانيا وأمريكا وأوروبا الغربية على أية حال صورة تختلف فى مجملها عما تنبأ به ماركس كطور لا مفر منه للرأسمالية . وبالمثل يختلف طابع الاقتصاد السوفيتى عن ذلك الذى توقعه ماركس بعد اختفاء الرأسمالية .

٥ - الطريق نحو السلطة :

بلغ ماركس درجة من النضج العقلى فى الوقت الذى لم تكن الديمقراطية فيه قانونا للحياة السياسية . حيث لم يتم اكتساب حق الاقتراع العام فى معظم الأقطار الأوروبية . وباستثناء فترات معينة فى التاريخ الانجليزى ، لم يتحقق أى مكاسب سياسية واجتماعية عبر مصاعب جمة الا ولاقت

معارضة حادة وعنيفة من قبل أولئك المتحصنين بالسلطة والقابضين على دست الحكم وكان ماركس متشككا فى احتمال تنازل المجموعة الحاكمة طوعية عن السلطة وتسليمها للأغلبية الشعبية التى تنتوى التغيير الجذرى لهيكل المجتمع • واستثنى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وهولندا ، معتبرا أنه بسبب التقاليد الديمقراطية فى هذه الأقطار فربما يتم الانتقال الى الاشتراكية بالوسائل السلمية والشرعية •

وأكدت الأحداث توقعات ماركس جزئيا فلقد كان تطور المؤسسات الديمقراطية فى أوروبا مؤثرا تماما حتى اندلاع الثورة البلشفية وحل الجمعية التأسيسية الروسية • قادت الأحوال المضطربة بعد الحرب العالمية الاولى بالاضافة للخوف من الثورة البلشفية والتى أشعل أوارها محاولات بعض الأحزاب الشيوعية الاستيلاء على السلطة عن طريق العنف ، أدى ذلك لظهور حركة متنامية مضادة من العنف الفاشى فى إيطاليا والمجر وألمانيا • وقوبل التحريض والاثارة الشيوعية بالترحيب من جانب الجماعات الرجعية لاتغاضه كذريعة للقضاء على العمل غير الشيوعى والحركات الاشتراكية • وفى بلدان مثل إنجلترا ، هولندا ، السويد ، النرويج الدانمارك وفرنسا حيث كانت التقاليد الديمقراطية سائدة والأحزاب الشيوعية ضعيفة لدرجة لاتمكنها من محاولة الانتفاضة المسلحة لاسقاط المؤسسات القائمة ، كانت مسيرة الاصلاح الاجتماعى والتشريع الاشتراكى مستمرة غالبا • وفى الولايات المتحدة سجل الاتفاق الجديد new deal تغييرا خطيرا فى الاقتصاد والسائد دعه يعمل laissez-faire الى بدايات دولة الرفاهية وصاحب ذلك اضطرابات أهلية ولكن أقل مز تلك المصاحبة لحركات الاصلاح الانجليزية فى القرن التاسع عشر •

ويشير كل ذلك الى أن النظرية الماركسية للدولة مفردة التبسيط لدرجة خطيرة - فلم تعد الدولة في البلدان الديمقراطية تلك الأداة أو اللجنة التنفيذية للطبقة الاقتصادية المسيطرة ولكنها أداة طبقة أو أى تحالف طبقي ينجح في كسب ثقة الناخبين - فأحيانا ينجح كبار رجال الأعمال ، وأحيانا الفلاحون أو العمال أو التحالف القائم بينهما -

وينبغي بهذا الخصوص التفرقة بين المفهوم الجوهرى substantial والمفهوم الوظيفي functional للدولة - فالمفهوم الأول يعرف الدولة من خلال ما يطلق عليه ماهيتها وجوهرها essence أو طبيعتها التى توظف كمجرد أداة للطبقة الرأسمالية وتفسر المكاسب التى يحصل عليها العمال أو الفلاحون تفسيراً سببياً بعيداً عن كونها امتيازات منحت لهم تحت الضغط - وكما لو أن استخدام القوة لانتزاع هذه الحقوق والتنازلات تحت الضغط ليس أكثر الأدلة اقناعاً على الرقابة الفعلية على الدولة بصرف النظر عن «جوها» الوثنى mystical

وتبعاً للمفهوم الوظيفي فإن الدولة هى ما تقوم به الدولة - والاجتهاد التحليلي التجريبي هو فقط الذى يمكننا من اكتشاف مصالح من التى تساندها وتؤيدها الأدوات التشريعية والتنفيذية والقضائية للدولة فى أى عصر معين وتوضح لنا السجلات التاريخية حيثما توجد المؤسسات الديمقراطية السياسية فإن التغيرات الديمقراطية فى الحياة الاجتماعية والسياسية لا تتوانى كثيراً -

٦ - المجتمع الاشتراكى :

لم يفسح ماركس الا جانباً ضيقاً من فكره حول بناء المجتمع الاشتراكى الذى افترض أنه سيتلو الرأسمالية ، نظراً لان اهتمامه كان منصبا على نقد الرأسمالية - فلقد استفرقت آثام الوضع الراهن لدرجة أنه لم يبحث اطلاقاً ما اذا كانت آثام ما بعد هذا الوضع القائم لن تكون أسوأ منه ، وخصوصاً لو أن الوسائل المستخدمة لم يتم فحصها من زاوية أهميتها للغايات المقررة والتي توجهها . ولم يناقش ماركس جدياً امكانية أن يصبح العمال مستغلين بنفس القدر وربما أكثر فى ظل نظام الملكية الجماعية حيث يواجهوا برئيس واحد ذى سلطة هائلة ، متشعباً بالقوة المسلحة للدولة ، بينما يوجد فى ظل نظام الملكية الخاصة أو المزدوجة الكثير من المدراء والرؤساء وغالباً ما ينشب النزاع بين بعضهم البعض . ولقد افترض ماركس بلا مناقشة أو تدليل أن المؤسسات السياسية الديمقراطية ستزدهر بالضرورة عندما يتم التخلص من الرأسمالية وأن العمل الحر فى الحياة العقلية سيزدهر بالضرورة عندما يلغى العمل الحر فى الاقتصاد وأغفل الحقيقة الممكن اثباتها بأن مستوى الديمقراطية السائدة يكتسب أهمية فى ظل الاشتراكية تفوق أهمية الشمولية الاقتصادية - لانه بدون الديمقراطية سيصبح الاقتصاد الشمولى على أحسن تقدير أداة احسان فى أيدي الطغاة والبيروقراطيين ، أو أداة رعب للظلم والاضطهاد لم تشهدا البشرية فى تاريخها من قبل . ولقد أظهرت الأحداث التاريخية حتى بالنسبة لمؤيدى ماركس أن التطبيق الاشتراكى socialization أو تغيير العلاقات القانونية للملكية لا يؤدى بالضرورة الى تغيير فى وضع السلطة والمكانة الاجتماعية أو الامتيازات .

وأوضح الأمثلة على النزعة الطوباوية لدى ماركس هي اعتقاده أن الدولة ستتلاشى في ظل الشيوعية وستقوم قواعد التوزيع على الحاجة فقط . ولكن حتى لو وجدت الشمولية المطلقة في ظل أشكال ديمقراطية سياسية فبلا شك سينشأ اختلاف وتباين حيث ان توزيع الانتاج والثروة سينصب على مجموعات اجتماعية ومهنية مختلفة . وربما يمكن الفصل في ذلك سلميا أو لا يمكن ولو لم يوجد ثمة عمل اجباري قهري ، فحق الاضراب يوجب احترامه . ولهذا السبب وغيره ففى كل الأحداث ينبغي أن يكون لدى المجتمع المعقد ورهن اشارته بعض أدوات القوة القمعية لتمنع وصول الصراعات لنقطة الاشتعال ، ولتكون بنفس القدر حارسا أميناً على المصالح العامة .

وفى عالم يكون مستحيلا فيه من الناحية الفنية technically انتاج أكثر من الكفاية في كل شيء في الوقت ذاته ، يعتبر اقتراح توزيع السلع والخدمات تبعا للحاجة فقط اقتراحا غير معمول به . فالحاجات غير محدودة ، ذاتية ، ولا حدود لممكناتها . وأينما توجد ندرة في الكم عند أى لحظة تاريخية ينبغي أن يوجد نظام لأولوية التوزيع مبنيا على مدى الأحقية أو المصادفة أو بعض المبادئ المختارة . وقد يكون من الممكن فنيا ترتيب الأشياء التي يحتاجها كل فرد أساسيا من حاجته للطعام ، الملابس ، المسكن والتي يمكن اشباعها بصرف النظر عن القدرة على العمل أو حتى الرغبة في العمل . ولكن ذلك يفصل عن الأشياء الترفيهية والكمالية ، وكل ما هو فوق وأبعد من الحاجات الأساسية ، ولا يضع في حساباته توزيعها .

وحتى مفهوم «الحاجات الأساسية» يعتبر متغيرا تاريخيا وماكان يدور في ذهن ماركس هو نظام المجتمع تمثبر روابط

تنظيمه تقريبا ميثاقا يوحد ويربط أسرة متحابه حيث يتم اشباع الحاجات المختلفة لكل فرد فيها بروح الاخوة أكثر من اشباعها وفقا لقواعد العدالة . ولكن ليس ممكنا أن يصبح المجتمع ككل كآسرة واحدة ، ولن تخلو كل الاسر من وجود الصراع ، وحتى فى الاسرة الواحدة المتحابه ، لايكفى الحب وحده دائما .

٧ - نظرية الأيديولوجية :

من الحقائق المؤكدة أن للأفكار تاريخا ويعكس لمدى معين عصرها ووسطها الاجتماعى وحاجات ومصالح أولئك الذين يعتقدونها . وعلى أية حال فان ذلك يؤكد النظرية الماركسية حيث وفقا لها تعتبر الأفكار حول الخير والشر والصدق والخطأ فى أى مجال تعبيرا فى صورة محرفة عن مصالح الطبقات الاقتصادية فى أتون الصراع . وحتى لو كان ذلك صحيحا فليس له أية علاقة بصحة الأفكار موضع المناقشة . بل وأكثر من ذلك لم يقدم ماركس سببا واحدا لاستبعاد النظريات الأخرى فى السجن العقلى للايديولوجية واعفائه نظرياته الخاصة من نفس الوضع .

وسيساعدنا فى تقييم نظرية ماركس حول الايديولوجية أن نميز بين :

(أ) أصل ونشوء الأفكار .

(ب) معنى الأفكار .

(ج) قبولها (اعتناقها) .

(د) مدى صدقها لكى نحدد ارتباط الظروف الاجتماعية

والصراعات الطبقيّة بكل تعريف .

(أ) (أ) المعلوم عن نشأة الأفكار قليل جدا ، وهذا مجال بحث علم النفس الفردي . وربما تتكون الأفكار سببيا من خلال أحد الأشياء فى بيئة الفرد أو خبرته ، اعتمادا على ايحاءه ، ذكائه ، التقاليد ، المخزون المعرفى . وربما تثير البيئة المتشابهة استجابات متباينة لدى أفراد مختلفين . ومن الحقيقى ، أن الأفراد ذوى المصالح المختلفة عندما يكونوا على وعى بها وبحقيقة صراعهم ، فانهم بالمثل يختلفون فى تفكيرهم المتعلق بالسياسات والبرامج المرتبطة بهذه المصالح . ولكن هناك مساحة واسعة من التفكير تتضمن بشكل ما المصالح الشخصية وخاصة المصالح الاقتصادية . وحتى عندما يتعلق الأمر بالمصالح الاقتصادية المتصارعة فالناس لا يكونون دائما على وعى بالصراع وربما لا يكفرون بشكل مختلف ازائها .

(ب) لا يمكن فهم معنى النظرية دائما من خلال مجرد تحليل العبارة التى استخدمت للتعبير عنها وبمعزل عن الطريقة التى استخدمت بها وعن سياقها . وأحيانا تكون الكلمات الدالة key words غامضة ولكنها تكون هامة فى الغالب لملاحظة كيف يتصرف الناس ويسلكون لكن ترى ما الذى تعنيه أفكارهم وعقائدهم بالنسبة لهم . وقد تؤثر الاختلافات والتباين فى الموقع والوضع الاجتماعى فى الطريقة التى تؤول بها العبارات والقضايا ذوات النسيج الاجتماعى .

(ج) يتأثر مدى قبول مجموعة من الناس لأفكار معينة وتفضيلها اياها على غيرها بمفهومها عما تحمله هذه الأفكار من تأثير على مصالحهم بصرف النظر عن صحتها

من عدمه • وربما يكون منتجو السجائر آخر من يؤمن
بالنتائج التي توضح تأثير التدخين على الإصابة
بسرطان الرئة • وتكمن هنا اسهامات ماركس الدائمة
فى دراسة التاريخ وبذور افكاره خاصة المتعلقة بالعدل
الاجتماعى والرفاهية العامة ، طبيعة الانسان وغاياته
الأصلية •

(د) تعتبر صحة الأفكار أو عدم صحتها ، صدقها أو زيفها
مستقلة تماما عن أى نوع من المصالح الاجتماعية أو
الاقتصادية حتى عندما تدور مثل هذه الأفكار حول
المصالح • ولهذا فان التحدث عن «حقائق طبقية» أو
«علم طبقى» سواء كان «رأسماليا» أو «بروليتاريا»
أو عن علم احياء «فاشيستيا» أو «شيوعيا» أو
«ديمقراطيا» يعد من قبيل الوقوع فى تناقض
المصطلحات وجزءا من الهمجية والبربرية الثقافية •
وتنطبق الملاحظات السابقة ليس فقط على النظرية
الماركسية للايديولوجية ideology بل تنسحب أيضا على معظم
مفاهيم علم اجتماع المعرفة sociology of knowledge
والتي استلهمت فكرها من ماركس •

٨ - ماركس الانسان :

هناك شىء ينبغى الاشارة اليه فى نهاية هذا التقييم
حول ماركس الانسان ، فلقد كان هدفا للتأليه والتقدیس
اللانقدى وللبنفض العنيف • ويظهر كلاهما التأثير بعيد
المدى لشخصيته ولأفكاره - ذلك التأثير الذى لايقدم المنظور
الأفضل للتقييم الموضوعى •

وهناك تباين غريب بين شخصية ماركس العمامة

والخاصة . فهو فى المقام الأول تأثر ويفصح معظم ماكتبه عن مزاج ثورى حاد ومتبرم . لم يدفعه الفقر ولا الاحباط وعدم السعادة فى علاقاته الشخصية الى التنكر لما كان يميز سيرته المألوفة . ولقد اختار مهمته تأسيسا على ما اعتقد أنه حقيقى حول طبيعة المجتمع وعلى العملية الضرورية لتغييره . وكان شعاره النضال . ورغم حقيقة أن نمط حياته يختلف قليلا من حيث دلالاته ومذاقه وقيمه عن أولئك المحافظين والذين ازدراهم ، الا أنه اعتبر نفسه فى حرب مع الأعراف والتقاليد السائدة فى المجتمع . وكان قادرا على الحب الفائق والصدقة والتضحية الشخصية ، ولكن كان ذلك معلوما وظاهرا فى اطار الدائرة الوثيقة الارتباط به من أسرته وحوارييه السياسيين . ومن الناحية العقلية اتسم بالتعطرس تجاه الآخرين ، مفرط الحساسية ازاءالنقد ، ولايميل لدحض الافتراءات والاكاذيب . وأما اذا دعت الضرورة فلديه مقدرة خارقة على النضال الصارم . كان يهتم بتقييم الناس فى ضوء الدور الممكن لهم فى المعارك السياسية الراهنة فقط ، باعتبارها حلقة مرتبطة بالنضال الدائم من أجل الحرية الانسانية منذ القدم وحتى الوقت الحاضر .

ولقد مجد بروميثوس (١) Prometheus فى أحد كتاباته المبكرة باعتباره «أول قديس وشهيد فى تاريخ الفلسفة» وربما اعتبر ماركس نفسه كبروميثوس فى الطابع الرومانسى الخالى فى القرن التاسع عشر .

لقد كان ماركس الانسان الذى عاش وفقا لأفكاره .

(١) بروميثوس بطل اسطورى اغريقى تجرأ وسرق النار من الاله زيوس وعلم البشر كيفية استعمالها ، استخدم رمزا فى تاريخ الفكر والادب والفن على مخاطرة الابداع والابتكار ، ففى للموسيقى مجده يبتهون بكونشيتوا فى البيانو وعادة ما يستخدم لوصف الأعمال التجديدية - (المترجم) .

وبدون الوقوع فى أى خطأ وبلا تجنى يمكن القول أن حاسة من الاستقامة الخلقية كانت تؤازره مقنعة باحساس يسمو ونفاذ البصيرة • الا أنه كان فظا تجاه خصومه السياسيين وكان يفسر اختلافهم مع آرائه على أنه انحلال أخلاقى وارتداد أو حماقة سياسية • وبلا شك أن حياته المقهمة بشظف العيش هى التى استثارت هذه السمات غير المستحبة فى شخصيته • فلقد مات أحد أبنائه متأثرا بنقص التغذية المزمن • ولمدة سنوات اعتمدت الأسرة فى مآكلها على مساعدات انجلز وعلى القروض والرهونات •

ورغم رفض ماركس الاحتكام الى المبادئ الأخلاقية ، كان لديه احساس متقد بالظلم الاجتماعى وتوهج هذا الاحساس فى كل كتاباته • وسيكون من المضحك له اعتباره يقف على خط واحد مع الأنبياء اليهود ، ولكنه كان يتحدث أحيانا عن قوانين التاريخ كما لو كانت عقابا من الاله «يهوه» JEHOVAH للمجتمع الفاسد الظالم ، وعن الثورة الاشتراكية كما لو كانت مقدمة مأساوية لحكم الهى جديد •

ولم يكن ماركس فخورا بجنسيته أو قوميته • اعتبر نفسه أوروبيا وأعجب كثيرا بالشعراء التراجيديين اليونانيين ، وبدانتى Dante وشكسبير Shakespeare وبلزاك Bizac كان ماركس ديمقراطيا راديكاليا لا يضع فى حسبانته ارادة الأغلبية غير المستنيرة ، فردى النزعة يحده ولم يعر اهتماما لفكرة الانضباط الحزبى أو الولاء لأى شئ فيما عدا ذهنه الخلاق • وسيصبح المهيج والمحرك العقلى فى أى مجتمع بطوبائيته الاشتراكية socialist utopia والثى من نبت خياله الجامح • ولقد عبر عن شخصيته بدقة عندما اختتم مقدمته لرأس المال capital بفقرة من دانتى :

«امض فى طريقك ، ودع الناس يتحدثون»

الفصل الثالث

الماركسية السلفية (الارثوذكسية) *

كاوتسكى - بليخانوف - دي ليون

خلف كارل ماركس تراثا عقليا خصباً وغماضاً في نفس الوقت . يجهله قطاع عريض من العالم المتحضر . ولقد جاء معظم أتباعه المعاصرين له من مثقفي الطبقة الوسطى أساساً ، فنشروا أفكاره وأكسبوها شعبية ووضع التطبيق لتوجيه النضال السياسى والاقتصادى للطبقة العاملة الأوروبية . وأصبح مدعاة للفخر اعلان ماكان فى السابق مجرد نظرية سرية وهوطقة حلقة سرية غير شرعية ، حتى ولو كان فهمه غير كامل ، فلقد أصبح نظرية لأحزاب الجماهير فمجرد موت ماركس كان الحزب الالمانى القوى قد ظهر لميز الوجود . وتقلص تأثير برودون وباكونين — Proudhon Bakunin فى فرنسا . وتكون الحزب الماركسى بقيادة جويسدى ولافارجوى Guesde, Lafargue وحتى فى انجلترا برز للوجود الاتحادى الاشتراكى الديمقراطى social democratic federation بقيادة هندمان Hyndman وبلفورت باكس Belfort-Bax

ولقد استحضرت الترسانة العقلية «للاشتراكية العلمية»

(*) فضلت ترجمة Orthodox marxism بالماركسية السلفية لدقة الدلالة على المعنى المراد وهو تبني الثوابت الفكرية والحرس على النسق الفلسفى الموروث وعدم تجاوزه وإن جاء على حساب ما يرد فى الواقع من متغيرات ، ولم يؤخذ ترجمة عدنان الجابرى (الماركسية السنية لضيق المعنى وخصوصيته الدينية - (الترجمة)

واستعين بها لتقوية وتدعيم المطالب العضوية للعمال في أوروبا الغربية حول العدالة الاجتماعية . لكن ينبغي تفسير النظريات الماركسية قبل وضعها موضع التطبيق نظرا لغموضها وتعقيدها . بل كان يتوجب مواجهة النقد المتزايد للماركسية مع تنامي الديمقراطية الاشتراكية social democracy وأكدت التفسيرات والتأويلات السائدة للماركسية الوليدة . والتي يطلق عليها هنا «الماركسية السلفية - الارثوذكسية» - على تلك الملامح لتفكير ماركس وهي الحتمية أو الجبرية deterministic والتطورية evolutionary ، الديمقراطية democracy وظل هذا الاتجاه مهيمنا حتى الحرب العالمية الأولى .

ولقد أكد انجلز ذاته على اتجاه التطور وأشار اليه ، وهو أول وأعظم الماركسيين السلفيين والارثوذكس ، ويظهر ذلك في كتاباته النظرية أو بياناته الحركية ، فلقد كتب قبيل وفاته «نحن ، الثوريين ، الانقلابيين - ننمو ونزدهر في ظل الأساليب الشرعية أفضل كثيرا مما في ظل الوسائل غير الشرعية والتخريبية» ولكنه لم ينكر بأية حال حق الاشتراكيين في حمل السلاح في حالة لجوء الطبقة الحاكمة ذاتها للعنف والقوة لتعطيل الدستور أو ابطال والغاء الفوز البرلماني للعمال وحلفائهم .

ومن المفيد مناقشة تأويل وتفسير الماركسية السلفية «الارثوذكسية» في كتابات ثلاث شخصيات من بلدان ثلاثة مختلفة اختلافا عميقا عن بعضها البعض ، ألمانيا ، روسيا والولايات المتحدة ولكي نوضح مدى انتشار هذا الاتجاه . سنعرض بايجاز لآراء كارل كاوتسكي Karl Kautsky جورج بليخانوف Georgi Plekanov ودانييل دي ليون Daniel de Leon

١ - كارل كاوتسكى

(١٨٥٤ - ١٩٣٨)

ظل كارل كاوتسكى الزعيم المنظر للدولية الاشتراكية الديمقراطية international social democratic لاينازعه فى ذلك أحد حتى وفاته . ولقد اتسمت كتاباته بالرصانة وتوهج الوعى أكثر من اتصافها بتألق الاسلوب وعمق الفكرة ولم يمنعه ولاؤه لماركس وانجلز من ادخال تعديلات وتنقيحات على بعض التفاصيل فى نظرياتهم . ولكنه اعتبر نفسه مريدا مخلصا من الألف الى الياء . وأطلق عليه عند منتصف عمره «أحد أفراد الحرس القديم للماركسية الارثوذكسية» . وفى عام ١٨٨٣ عام وفاة ماركس ، أسس كاوتسكى وحرر جريدة «العصر الحديث Neue Zeit» والتي أصبحت المصدر القيادى النظرى للماركسية فى العالم أجمع . واحتدمت المناظرات والمناقشات الاشتراكية عبر صفحاتها لمدة الخمسين عاما التالية وقد لعب كاوتسكى دورا تعليميا رئيسيا فى تربية واعداد جيلين من الماركسيين ، بالإضافة لعمله الصحفى البارز ونشاطه العام ، وجعل نظريات ماركس الاقتصادية فى متناول العامة وقام باصدار الكتاب الرابع من «رأس المال» لماركس ، وقام بعدة تطبيقات مستقلة للمادية التاريخية . ومن بين أعماله المنشورة توجد دراسات كرسث لدراسة المدينة الفاضلة لتوماس مور Thomas More ودراسة

أحدى الطوائف المسيحية البروتستانتية Anta baptists (١)
والحروب البيزنطية ، ودراسة الصراع الطبقي فى مرحلة
الثورة الفرنسية ، وأصول ويناييع المسيحية . فيما عدا
الدراسة الأخيرة ، يتسم معظمها بالابتذال ولكنها تلقى الضوء
على أحداث ظلت لوقت طويل تدرس وتتناول فى اطار ضيق
دينيا وسياسيا .

(أ) نظرية التاريخ :

ويعد «المفهوم المادى للتاريخ» والذى ظهر عام ١٩٢٧
من أنضج أعمال كاوتسكى بل ومن أفضل التفاسير التى
عرضت للموضوع فى أية لغة . فلقد أخذ على عاتقه فى هذا
العمل صياغة الاطار المنهج للنظرية وتبويبها بعد بلورتها
من الحالة البدائية التى تركها عليها ماركس وانجلز .
وأجاب على الانتقادات والاعتراضات التى وجهت اليها ،
وقام بتصحيح المفاهيم الخاطئة عنها ، وقدم تعريفات مفيدة ،
وأولى اهتماما وادراكا أكبر لتعقد العملية التاريخية
مما كان مالوفا فى كتابات الاشتراكية الـ
التقليدية . فعلى الرغم من الاعتراف بمبدأ الدور المبدئى
للفعل الانسانى وارادته ، فيظل مبدأ منصبا على أولوية
وسيادة الظروف الاقتصادية موضوعية التى تقرر وتجبر
ارادة البشر فى التاريخ . فوخرا على المضى فى الاتجاه التاريخى
الذى حددته . فالبشر يقاتلون ويتعبدون ويستأن
الحيوانات ، لكن الاختلاف فى قواعد ومبادئ الحرب
والزواج يعته . مبدئيا على اختلاف النظم
للمجتمع . فلو كان ممكنا معرفة كنه المجتمع

(١) طاقة بروتستانتية تضطرر إعادة تعيد البالغين
للكنيسة - (الترجمة) .

فيمكننا ان نعرف ماينبغي أن يكون عليه انسان المستقبل .
(راجع النص رقم ٨) .

أكد كاوتسكى فى كتابه هذا وفى أعماله الأخرى على مفهوم النضج أو الاستعداد التاريخى ووجه نقده للتسرع الثورى ونفاذ الصبر ، حتى عندما يكون له باعث أخلاقى ، ورثى لمحاولات اقتحام القمم غير الممهدة للتقدم الاجتماعى بدلا من تمهيد واجتياز الطريق مرحلة تلو الأخرى . ولقد جادل ليس فقط ضد الثوريين الاشتراكيين الذين يحاولون فرض حلم باهر عن المستقبل على أناس غير مؤهلين له ، بل أيضا ضد الثوريين الذين يحاولون استرجاع ظروف مرحلة ماضية ، مثل قادة ثورة الفلاحين الذين فشلوا فى مهمتهم ، فالاشتراكية حتمية ولكنها لن تأتى الا فى وقتها المناسب .

أنكر كاوتسكى — بدون أية دلالة — أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى باعتباره حزبا ماركسيا يكون حزبا ثوريا . ولكنه قد ميز وفرق بين الحزب الثورى والحزب صانع الثورة . فالثورة لاتصنع ولافتعل . الثورة تحدث كنتيجة تلقائية للعملية الاقتصادية والاجتماعية والتي لايمكن للانسان أن يفعل سوى القليل لكبحها وارجائها أو استباقها والتعجيل بها . «نحن نعرف أن هدفنا لايمكن انجازه الا من خلال الثورة ونعرف أنه ليس بمقدورنا خلق هذه الثورة الا بقدر ضئيل وبالمثل ليس بمقدور معارضينا والمناهضين لنا منها أو الوقوف ضد حدوثها» ومن غير المجدى محاولة احداث ما يأتى حتما بأى شكل . وكل ماعدا ذلك لا طائل من ورائه ، ولهذا فان من العبث تحويل الأحزاب الاشتراكية الى منظمات سرية تأمرية .

وتكمن صعوبة وجهة النظر القائلة بحتمية المستقبل فى

اعتبار الجهود العقيمة لتجنب حدوث هذا الحتمى أو للتأثير فيه حتمية بالمثل . ولهذا فانها لاترسى أية قاعدة للقرارات السياسية العملية فى الحاضر أو اعتبارها أساسا للسياسات المعلنة للمستقبل ، الأمر الذى لايمكن لأى حزب سياسى تجنب وتجاهل القيام به . فربما تكون الثورة الاشتراكية حتمية ، ولكن كيف يمكن انجازها - هل بالمصادرة التامة للملكية الخاصة لوسائل الانتاج أم لقاء تعويض معقول سواء دفعة واحدة أو تدريجيا ؟ واجابة كاوتسكى فى مثل هذه المواقف هى دفاعه عن البديل الذى يوسع وجود وامتداد الممارسة الديمقراطية والذى يعتبر واعدا بقدر كبير من الاقرار السلمى للمسائل موضع الخلاف . يظهر الصراع الطبقي فى كل حدث ، ولكن يعتمد نشوبه واندلاعه فى جانب منه على الأقل على المثل الأخلاقية *moral ideals* التى يحملها العمال عن الضال وأيضا على مستوى المدنية والحضارة *civilization* *culture* الموجودة فى المجتمع وفى أى عصر . وتوضيحا لما ذكره آنفا فضل كاوتسكى التعويض على التجريد ومصادرة الملكية وذلك كى يمنع وقوع الثورة المضادة *counter-revolution* وحدث العنف ، ورأى أن استخدام وسائل معينة لم يكن حتميا : وهو لم يعتقد أن الغايات والأهداف تعتمد على وسائل لمدى معين ، والغايات أيضا ليست حتمية .

(ب) البرنامج الزراعى :

وضع ماركس الزراعة فى اطار نقده الاقتصادى للرأسمالية . وتوقع أن النزعة نحو المركزية والتى أكد عليها بالنسبة للصناعة ستنسحب على الزراعة . وأن الميكنة والزراعة العلمية ستؤدى الى اتساع المزارع باستمرار حتى

تدار وتشغل كالمصانع . وستختفى المزارع الصغيرة ،
وسيصبح المزارعون عمالا فى المزرعة - المصنع
Factory farm laborers وسيقودهم صراعهم ضد النبلاء
الزراعيين الى ادراك أنهم يشاركون البروليتاريا الصناعية
فى المصالح المشتركة .

كان ماركس صائبا فى توقعه للتأثير الهام للرأسمالية
وللعلم على الزراعة ، ونشأة المزارع الضخمة ، والاضمحلال
النسبى لأهمية الزراعة فى مجمل الاقتصاد . ولكنه أخطأ
خطأ قاتلا فيما عدا ذلك فى كل مايتعلق بالبرنامج الزراعى
الاشتراكى . فلم يخطئ الفلاحون والمزارعون كطبقة ولم
يصبحوا بروليتاريين ورغم الانخفاض النسبى فى عدد
أصحاب الملكيات الصغيرة الفردية . الا أن العدد الاجمالى
ظل كبيرا لدرجة أن الفلاحين والمزارعين كطبقة كانوا قادرين
فى الغالب على ممارسة تأثير سياسى ربما أكبر من تأثير الطبقة
العاملة وأحيانا أكبر من دور الرأسماليين - وانجلترا استثناء
ملحوظا من باقى البلدان .

ورغم الادعاء المتواتر ب «فناء الفلاح» الا انه لا يوجد
دليل حتى اليوم على تحول وتغيير وضعية الفلاحين الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية وفقا لما توقعه ماركس . ولقد
اختفت «الحياة الريفية المتخلفة البلهاء idocy of rural life
من البلدان الرأسمالية كنتيجة للثورة التكنولوجية لا الثورة
الاجتماعية كما توقع ماركس أن يحدث فى ظل الاشتراكية .

وتوضح كتابات كاوتسكى حول المسألة الزراعية الاسلوب
والطريق الذى سلكته الماركسية الارثوذكسية فى تمسكها
بعقيدتها ولو على حساب ماتنوء به من تبعات سياسية ولكنها
عندئذ تضطر لتغيير التأكيد على نقاط معينة ليصبح البرنامج

الحزبي وفقا للخطط الملائم للأحداث السياسية أكثر من ملاعته
للعنظرية الموروثة . وبدأ كاوتسكى دفاعه الصارم والحاد عن
موقف ماركس فى مواجهة نقاده البرجوازيين والاشتراكيين .
ولكن بعد أن تزايدت قوة الفلاحين شدد كاوتسكى من عدائية
البرنامج الاشتراكي . وبدأ يتخذ تدريجيا موقفا ذا روح
ماركسية مع بعض الآراء المحورية لماركس . وأنكر وجود
زيادة مستمرة بمعدل مرتفع فى الانتاج الزراعى . وتساءل
ما اذا كانت الزراعة قد حققت النسب المتفوقة فى الانتاج
كنتيجة للعملية الاقتصادية بمفردها . لأن ذلك قد تحقق فى
الاتحاد السوفيتى بوضوح كنتيجة للقرار السياسى . ولم
يكن كاوتسكى واثقا مثل ماركس من التفوق العالمى للزراعة
الشاسعة بمقارنتها بزراعة المساحات الصغيرة وتؤثر
العوامل الاجتماعية على القدرة الانتاجية . تأثيرا مختلفا عن
العوامل الاقتصادية الصرفة . وعندما تكون العوامل
الاجتماعية متماثلة ، يؤدى استخدام الميكنة الحديثة
والتكنولوجيا الزراعية الى تحقيق أقصى معدل له فى المزارع
الضخمة وأكثر مما يتحقق فى تلك الصغيرة والتي تعمل
بالطرق التقليدية . ولكن فى تحليل وانعتاق مروع من
ريقة ماركس ، وفى معرض مناقشته للثورة الزراعية فى
روسيا ذكر كاوتسكى أنه «عندما تعمل كل من المزارع
الضخمة والصغيرة بنفس الأدوات المعروفة ، فإن المزارع
الصغيرة تؤكد دائما أنها الأسى والأفضل ، لان مصلحة
الفلاح فى عائد مزرعته أعمق من مصلحة العامل الأجير فى
عمله بالمزرعة الضخمة» - ويمكن افتراض ذلك بصرف النظر
عن يملك المزرعة الضخمة سواء كان دولة أو بارو Baron
وضع كاوتسكى عدة ادعاءات مثيرة ، مثل ادعائه بأن
التنظيم البالغ الدقة للزراعة يتطلب نتيجة لتغير واختلاف

الظروف درجة عالية من المهارة والقدرة على اتخاذ الرأى والقرار من جانب عمال الزراعة بشكل أكثر مما تتطلبه الصناعة من عمالها . ويمكن أن يلائم عمل ماركهام Markham «الرجل ذو العزاقة man with the hoe» على المزرعة ذات خط الانتاج التجميعى assembly-line بشكل أفضل من المزرعة الحديثة . وفى النهاية ، يعترف كاوتسكى بأن التكنولوجيا والمعدات العلمية يمكن توظيفها توظيفاً مربحاً فى المزارع الخاصة متوسطة الحجم .

لم يضع كاوتسكى المضامين الكاملة لكل هذه المسلمات فى تصوره . لأنها تفترض امكانية أن تترك الزراعة تحت ايدى الملكيات الخاصة الى حد كبير فى ظل الاقتصاد الاشتراكى الديمقراطى ، وهذا مالا يمكن أن تتحملة عقيدته الارثوذكسية . ولكنها تفسر لنا ضمن أسباب أخرى ، لماذا أدان كاوتسكى الجماعية الاجبارية بالنسبة للزراعة فى البلاد الشيوعية ليس فقط لأنها صورة من الظلم البربرى ولكن لكونها تبديداً وتبذيراً اقتصادياً وانصافاً لكاوتسكى ينبغى ألا ننسى أنه وبرغم كتاباته الأولى المبكرة حول المسألة الزراعية ودفاعه عن الرغبة فى تأميم وخلع الصبغة الاشتراكية على الزراعة ، الا أنه أكد جازماً على ضرورة أن يكون التعاون الاختيارى voluntary cooperation بين الفلاحين أنفسهم شرطاً ضرورياً للبرنامج الاشتراكى .

وحتى لو وجدت صيغة التأمين الزراعى الخاصة التى دافع عنها كاوتسكى والتى تختلف عن تلك التى اقترحها ماركس . فحتى يتسنى فهم برنامج كاوتسكى ، ينبغى أن يضع القارئ الأمريكى نصب عينيه اختلاف الاسلوب الذى كان يعيش به الفلاحون الاوروبيون فى مزارعهم عن

الأسلوب الذى يمارسه الفلاح الأمريكى ، فهم كانوا يعيشون فى مستعمرات قروية صغيرة غالبا ماتزال من الحقول . ولقد اعتقد كاوتسكى أنه حتى فى ظل نظام الزراعة الاشتراكية - والذى تدل مسلمات كاوتسكى الخاصة على أنه غير ضرورى - ينبغى أن تبقى المنازل والبنائيات المحيطة بها وحدائقها المزروعة فى الفناء تحت الادارة الخاصة للفلاح ، وتظل فى اطار الملكية الخاصة له كما كانت فى عصر الملكيات الاقطاعية الشائعة ، وفى الجانب الآخر ينبغى زراعة الحقول زراعة جماعية على أيدي الجماعة ككل» .

ومن أهم الأسباب الظاهرة لاعتقاد كاوتسكى ورغبته فى تحقيق الزراعة الاشتراكية ضرورة امداد سكان المدن فى اوروبا الغربية المكتظة بالسكان بالقدر الكافى من الغذاء ، ولايطبق هذا الأمر بالتأكيد على معظم البلدان الأمريكية ، وربما لا يكون ذلك مقنعا بالنسبة لاوروبا فى حالة تطور التعاون الاقتصادى العالمى .

ومناقشة موقف كاوتسكى حول المسألة الزراعية من زاوية النقاط الأكثر اثارة وبرغم عدم اكتمال برنامجه وعدم الاتساق والتضارب الذى يتخلله ونزوعه الى الارثوذكسية النظرية ، والا أنه يعتبر مرنا وواعيا بالملامح الانسانية للموقف ومؤكدا على مبدأ الاختيار والارادة والتعاون ، ويتميز بالعقل المتفتح لاثراء الحلول ورفض الاذعان لفكرة اعتبار الجماعية التعاونية أفضل نمط انتاج زراعى وأفضل من الأشكال الأخرى الخاصة والمختلطة وفى كل الظروف .

(ج) الديمقراطية :

ولقد زعزع ميل كاوتسكى واتجاهه نحو البرامج النوعية المتخصصة من قناعاته بالحتمية التاريخية للاشتراكية وخصوصا عندما تقدم به العمر . فلقد كان طيلة حياته مؤمنا بوضوح بأن الديمقراطية والاشتراكية صنوان لاينفصمان . فالشكل الذى يتم به تطبيق تأميم الصناعة أو اقامتها على أساس اشتراكى هو الذى يحدد مضمونها . ورغم تحذير كل من ماركس وانجلز فى معرض مناقشتهم لاعتبار مؤسسات الدولة وكأنها الاشتراكية ، الا أن كاوتسكى أوضح ذلك وجعله محور مناقشته ككل . فالذى يحدد ما اذا كان التأميم خطوة للامام أو للخلف هو شكل عملية التطبيق ، أسلوب الادارة ، درجة مشاركة العمال فى وضع أهداف الصناعة وظروف العمل باختصار نشاطات النقابات العمالية الحرة فى المجتمع الديمقراطى من الوجهة السياسية «فالاشتراكية تهدف الى تحقيق التحرر والوجود الأفضل للطبقة العاملة . وعندما يصبح التأميم لصالح هذا الهدف ينبغى تأييده ، ولكن عندما لا يضعه فى حسبانہ ينبغى ألا نؤيده وكتب قبيل وفاته أن «الديمقراطية هى أقصر الطرق وأوثقها وأقلها تكلفة لبلوغ الاشتراكية . وأفضل السبل لتطور الشروط السياسية والاجتماعية لتحقيق الاشتراكية . وأن الديمقراطية والاشتراكية عروة لا انفصام لها» .

لقد كان كارل كاوتسكى أول من أكد على الحقيقة التى حرفها لينين مؤخرا والتى مؤداها أن مثقفى الطبقة الوسطى هم الذين يثورون على مشاهد التفسخ والاهتراء الانسانى الذى أفرزته الثورة الصناعية ، وتضطرم بداخلهم الرؤية الأخلاقية لمجتمع لا يوجد فيه أى استغلال للعمل ، وهم الذين

قدموا أمثال ونموذج الاشتراكية للبروليتاريا . ولم يجد
ماركس ولا انجلز الطبقة العاملة باعتبارها تضى فضائل
وقيماً خاصة على أعضائها . لان الطبقة العاملة لم تكن
بالنسبة لهم مرادفا «لبروليتاريا» أو «لعمال الصناعة»
والبروليتاريا هى صاحبة المهمة التاريخية لتحقيق التحرر
والانعتاق الاقتصادى ، وليس من أجل أن تنتقل هى ذاتها الى
طبقة حاكمة جديدة تقهر الآخرين بل لتقصى على حكم
الطبقة . وأفرادها ليسوا فقط أكثر من يوضع فى معترك
النضال استراتيجيا من أجل السلطة السياسية ، لكنهم أيضا
كما يؤكد كاوتسكى الرسل واندعاة الواعين بالمثال الأخلاقى
وبامكانهم احراز السلطة السياسية بفضل الدور الذى يلعبوه
فى عملية الانتاج . ويمكنهم فى الواقع الفعلى وبفضل وعيهم
وانضباطهم واستقامتهم الأخلاقية أن يفوزوا على غالبية
المجموعات الأخرى فى الطبقة العاملة . وأيضا على أغلبية
السكان فى النهاية .

ولقد صاغ كاوتسكى تعريفا ذا أربعة حدود من بين
تلك التعريفات الفصفاصة الشاملة للمصطلح «الطبقة
العاملة» الأول ، انها البروليتاريا المأجورة wage-earning
المفتونة بذاتها أخلاقيا ، الفخورة بمهاراتها فى العمل ،
المحنكة سياسيا ، الواعية بمسئولياتها التاريخية ، والثانى ،
ان اللا بوبروليتاريا أو البروليتاريا الرثة (١)
lumpen proletariat التى ربما يشعر المرء بالشفقة تجاه أعضائها،
والتي شوهت وأفسدت لدرجة أنها تستخدم فى الغالب

(١) اللا بوبروليتاريا أو البروليتاريا الرثة - تتفاض باتسائها الطبقي مع دورها
السياسى وبينتها الفكرية والقيمية نتيجة لتخلف الوعي وتشوشه ووقوعها تحت برائن
اللعاية البرجوازية كما توضحه لنا الأدبيات الماركسية حول وضع الطقة العاملة فى
العالم الثالث - (المترجم) .

كأدوات طيعة للرجعية - والتعريف الثالث أن البروليتاريا هي الجماهير العريضة التي عرفها ماركس على أنها الطابع المتخلف للبروليتاريا وهم مثل البروليتاريا يكدون لكسب أجرهم ، ولكن وعيهم السياسى فى مستوى البروليتاريا الرثة والتعريف الرابع والأخير أنها الطبقة التى تستجدى الصدقة *beg for alms* وهم على أية حال ، يستجدون العمل • ويتعاونون مع أصحاب العمل ومستخدميههم ويقرون بفضلهم، ويعتبرونهم كأصحاب فضل ومحسنين يهبونهم أجرهم أكثر من كونهم مستغلين لهم وفى النهاية ، هناك العمال الارستقراطيون *labor aristocracy* أو البروليتاريا الماهرة المعنية فقط بالحصول على فائدة احتكار مهاراتهم من أجل العائد الشخصى غير مبالين بسعادة ورخاء أولئك غير المهرة أو المتعطلين الذين يعانون البطالة ، وهم مثقلون بتفوقهم وعنصريتهم وتعصبهم الشوفينى *chauvinistic* ولولائهم للعمل ورأس المال ولقد عبر كل من ماركس وكاوتسكى عن ازدرائهم واحتقارهم لهؤلاء العمال البرجوازيين الأدعياء *bourgeoisified* الرأسماليين الصغار الفاشلين •

ويبدو واضحا من خلال هذه التعريفات أن البروليتاريا قد اقتطعت عملا شاقا لنفسها وكم هو شاق ، حقا لدرجة أن المرء يتعجب كيف يمكنها النجاح فى تعليم وقيادة مجمل الطبقة العاملة وأيضا كل القوى المقهورة دون أن تستسلم سواء لقوة أولئك الذين ينظمون قواهم ضدها أو لما يسببه نجاحها الفائق من افساد لها • ولكن سواء كان معقولا أم لا ، ساذجا أم غير ذلك ، فان مجمل مفهوم دور البروليتاريا قد تخلله الاحساس بضرورة القيادة الأخلاقية الناجحة للبروليتاريا من خلال السبل التعليمية ، وليس عن طريق العمل الانقلابى *coup d'etat* من أعلى قمة الهرم الاجتماعى كما اعتقد كل من

بلانكى **Blanqui** وباكونين (١) **Bakunin** ونيكائيف **Nechavey** وربما تكون الافتراضات التى أقام عليها ماركس وكاوتسكى اعتقادهم محض أوهام ، ولكن هذه الأوهام تتأكد وتتحقق فى اعتقادهم بسمو وعقلانية وشجاعة الانسان .

لم يقدم ماركس او كاوتسكى أية نظرية أخلاقية تتوافق مع مفهومهم حول القيمة والفضيلة العليا الكامنة فى انتصار البروليتاريين . بل ونظريتهم التاريخية وخصوصا كما فسرت على يد كاوتسكى تجعل من الصعب معرفة سبب البحث عن أى تبرير أخلاقى طالما أن مفاهيم الناس حول الصواب والخطأ هى مجرد تعبيرات البنية الفوقية عن المصالح الاقتصادية . ومادام القانون المزعوم الذى يحدد تتابع وتعاقب المصالح الاقتصادية سيحدد أيضا تتابع وتعاقب الانسان والمنظومات الاخلاقية . فان «الاسمى - الأعلى» ستعنى فقط «التالى أو اللاحق وضمنا . وعلى اية حال ، توجد فى آراء وأطروحات ماركس السياسية وبالمثل كاوتسكى العديد من الفروض الأخلاقية التى لايمكن تفسيرها فى اطار النظرية المادية التاريخية الا اذا فسرت المادية التاريخية بطريقة تسمح بقبول أكثر مماهى عليه ، أى بقبول التأثير التاريخى المستقل نسبيا للمثل الأخلاقية بعيدا وبصرف النظر عن أصولها ومنابعها المزعومة .

يبدو عقم وافلاس تحليل كاوتسكى للمسائل والقضايا الأخلاقية واضحا بصورة قاطعة فى نقده لكانط وأطروحته

(١) اجست بلانكى (١٨٠٥ - ١٨٨١) اشتراكى فرنسى وسط بين الماركسية وبوضوية برودون شارك فى ثورة ١٨٣٠ وتعاون مع ثورة ١٨٤٨ ومن مؤلفاته الوطن فى خطر ، الأندية والكواكب ، الجيش المسعبد ، النقد الاجتماعى .
ميخائيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) اشتراكى وفوضوى روسى كان المتحدث باسم جماعة المهاجرين الاشتراكيين الروس فى أوروبا عام ١٨٦٨ ، ثم انضم للاممية عام ١٨٧٣ ثم انفصل من ماركس ، وتدعو نزعته الفوضوية لالغاء الدولة والدين والزواج .

بأن الرغبة فى الاشتراكية تكمن فى حتميتها ، ويفترق هذا قليلا عن التناول الهيجلى لمآثرة شيللر .

وان الاشتراكية حتمية ناتجة عن حتمية انتصار البروليتاريا ، وهذا يرجع لحتمية الصراع الطبقي وينبغ ذلك بدوره من المحرك الحتمى لزيادة القوى الانتاجية لأجل ولصالح الدافع الحتمى لمضاعفة الفائدة والربحية يوجد هنا وكما فى أى موضوع آخر من الماركسية عنصر من التصوف الصرف *Sheer mysticism* والتعويل على الحتمية الكونية والعملية الاجتماعية الذى منح المرء تلقائيا مثله وقيمه الأخلاقية . المثل التى قدمت بشكل زائف عبر الحقيقة الكونية والفرضيات الاجتماعية .

٢ - جورجى بليخانوف

(١٨٥٦ - ١٩١٨)

لو كان كاوتسكى عميدا للاشتراكية الديمقراطية الارثوذكسية فان بليخانوف هو استاذها البارز والقيادى . فبعد بداية مبكرة فى دوره الجماهيرى ، أصبح المؤسس والمعلم الأول للحزب الاشتراكى . الديمقراطى الروسى والذى تطور من داخله الجناح البلشفى والجناح المنشفى bolshevik and menshevik wings ورغم خصومة لينين وعدائه السياسى لبليخانوف مؤخرا . الا انه أشار له باعتباره أعظم المفكرين وعيا فى الحركة الاشتراكية . فلقد ساهم بليخانوف فى مناقشة بعض مشاكل الماركسية المطروحة . مثل دور الفرد فى التاريخ ، مكانة الفن فى المجتمع ، وطبيعة فرضياتها الفلسفية . وتخصص بليخانوف فى الرد على الانتقادات المعادية للماركسية .

ولقد أكد بليخانوف فى تناوله النظرى للماركسية على طابعها الأحادى النظرية monistic وحذا حذو انجلز محاولا ربط الماركسية برؤيته للعالم . وتظهر كتاباته سعة اطلاع ملحوظ واحساس بشراء وتعقد الظاهرة الثقافية . ولكنه تحمس للمقيدة النظرية حتى عندما تكون النظرية غامضة . تطلقى على فطنته وحذره المنطقى . ولقد خلط بين الشروط الضرورية والكافية وأقر بالتسليم غير مدرك أنها تتناقض

مع نظرياته الأساسية ، ونادرا ماواجه الانتقادات الجوهرية
بشبات -

(أ) الفرد فى التاريخ :

قادت اهتمامات بليخانوف النظرية وشئون وقضايا
السياسة العملية الى بحث مشكلة دور الفرد فى التاريخ .
وباعتباره مفكرا ماركسيا ، اتخذ جانب المواجهة ضد بعض
المجموعات الثورية الروسية التى مجدت نشاط الارهاب
والعنف الفردى ضد الاستبداد القيصرى . لم يجد أية صعوبة
فى تحديد العبثية السياسية للعنف الفردى كسلاح للانقلاب
الاجتماعى . فقد يمكن تخفيف حدة نظام الحكم الاستبدادى
عن طريق الاغتيال ولكن لايمكن اقتلعه واحلال بديل عنه
ولكن فيما يختصر بالمسألة الأساسية . ما اذا كانت حياة
وأفعال فرد ما أكثر فعالية وحسما من القوى الاجتماعية فى
تحديد حدث ضخم لدرجة أنه فى حالة غياب الفرد فان الحدث
موضع التساؤل لن يقع ، وظل بليخانوف حائرا لم يصل
للاقتناع . وأوضح أن دواعى الفعل البطولى والشروط التى
يحدث فى ظلها لا يخلقها البطل . ويعتبر هذا ردا واضحا
وحاسما على موقف مثل موقف كارليل Carlyle ولكنه ليس
وثيق الصلة بالسؤال الذى لم يطرح : هل البطل أو الفرد
البارز يصنع التاريخ ككل او يخلق ظروف نشاطه ؟ لكن
السؤال المطروح هو : هل البطل يعيد صياغة التاريخ أو
تحديده ؟ وهل نمط التطور التاريخى كان سيحدث بنفس
الطريقة لو أن البطل لم يوجد قط ؟؟

يبدو أن التاريخ الروسى وبسبب طابعه الاستبدادى
يعدنا بديل ظاهرى على بعض الأفعال بعيدة المنال تحققت
على أيدي حكامه . خصوصا بطرس الأول
Perer The Fist

وكاترين الثانية Catherine II ولو لم يتقلدوا مناصبهم أو يتبأوا السلطة لم يكن بالامكان تحقيقها في عصرهم . ويقودنا انكار الدور الذى قد يلعبه الفرد لاعادة صياغة التاريخ باعتباره نقيضا متميزا ازاء العوامل الأخرى ، يقودنا لوجهة النظر القائلة بأنه ليس هناك قائد ذو دور جوهري فى تحقيق أى حدث تاريخى هام سواء كان خيرا أم شرا . ولو كان من المعتقد أن تعدد العوامل المؤثرة فى العملية التاريخية لايمكن تمييزها . أو تحديد الوزن النسبى المنسوب اليها فعندئذ لايمكن اقامة أى حكم سببى فى التاريخ . وتصبح النظرية المادية التاريخية والتي ترى أن سبب وعلة كل التطور التاريخى تكمن فى التغيير فى نمط الانتاج الاقتصادى ، تصبح هذه النظرية زائفة وهراء لا معنى له .

ويؤكد بليخانوف أنه لاينظر للفرد باعتباره قوة مهمة فى التاريخ . والانسان العظيم هو مجرد مصادفة «ويعتمد قدر الامة أحيانا على المصادفات التى ربما تسمى أحداثا عرضية من الدرجة الثانية» وهذا التسليم يعطى النظرية الواحدية للتاريخ . ولكن يبدو أن بليخانوف لم يكن يعبأ بذلك . وأكد أن الأحداث العرضية من الدرجة الثانية ليست من قبيل الصدفة هى ذاتها أحداث سببية عليّة فليكن حقاً تماما ولكن عندئذ سيكون السؤال : ما اذا كانت علل وأسباب وجود الرجال العظماء وهم الأحداث العرضية من الدرجة الثانية - أسباب اقتصادية أكثر من كونها بيولوجية ، أو سيكولوجية أو دينية ، أم لا ؟؟ يجيب بليخانوف بأن «فى التحليل النهائى» لايمكن تفسير فاعليات وآثار عمل الرجل العظيم الا فى اطار وحدود القوى الاجتماعية لعصره (اقرأ ملحق رقم ٩) ويعتبر هذا الرد مجرد *ignoratio elenchi* ايجابية على سؤال مختلف تماما عن السؤال المقصود ويتجاهل

ببساطة السؤال حول تفسير وجود الرجل العظيم . ولكن بالتأكيد فان تأثير نابليون Napoleon كان محددا ببيئته الاجتماعية . الحقيقة البديهية التي تحدد تأثير أى فرد . ولكن ما الذى يفسر الاختلاف بين تأثير الانسان العظيم وتأثير الانسان العادى ذى القدرة الوسطى mediocrity ؟ ربما تختار البيئة الاجتماعية وتنتقى رجلا عظيما . ولكنها لن تقدر أن تنتجه وتخلقه .

واضطر بليخانوف مجبرا بعقيدته الارثوذكسية المتصلبة والأحادية النظرة أن يعتقد فى قدرة القوى الاجتماعية للعصر وللمرحلة التاريخية ليس فقط على اختيار الرجل العظيم بل على خلقه وصياغته ، وان تاريخ أى مرحلة كان سيحدث كما هو تقريبا أيا كان الأفراد الذين عاشوا ولكن مجمل تاريخ الماركسية وتأثيرها عبر التاريخ من ماركس وحتى لينين وستالين يدمغ ذلك بالكذب .

(ب) الفن والثقافة :

طبق بليخانوف نظرية المادية التاريخية فى بحثه لمسائل واشكالات علم الجمال ، ليس بهدف امتحان مدى صدقها بل لكى يوضح ويثبت زعمها وادعاءاتها . ووفقا لرأى بليخانوف فان تاريخ الفن فى أكثر مناحيه المتميزة يمكن ارتباطه بتاريخ التطور الاقتصادى ، ليس فى مجمل تفاصيله بل فى اطاره العام ، وذلك ليوضح أن نمط الانتاج يشرح نشأة وتنوع واختفاء الأشكال الفنية ، وتقلب وتغير قيمها وتدورها ، وتغير معايير الابداع الجمالى . وعلى الرغم من تأكيده أنه لا يبحث عن اقامة ارتباط مباشر بين الفن والاقتصاد ، الا أن نقده يوضح بشكل ثابت الدليل على المبالغة فى التبسيط ، وتأكيده وتركيزه لا مبرر له على العامل

الاقتصادى وميل للتعميم الغير لازم - وعلى سبيل المثال - فى تناوله للفرن البدائى أكد أن مفهوم «الجمال» مشتق من صفة «الشمين أو النفيس» «percious» وما قد اعتبر أنه الأثمن فهو دائما حقيقة أو عامل مشتق من البيئة الاقتصادية الراهنة للقبيلة وكان بليخانوف محقا فى انكاره لكفاية الطبيعة البيولوجية للانسان لتفسير تنوع مضمون الخبرة الجمالية ، ولكن لم يكن لديه مبرر فى افتراضه أن «الشمين أو النفيس» هو دائما «الاقتصادى» - وحتى الانسان البدائى ربما يجد لذته أو بهجته الجمالية فى الأعمال الدينية ، العسكرية ، أو الجنسية أو أهداف ارضائه واشباعه ولقد اعتبرت معادن وأصداف معينة منها الذهب أشياء نفيسة وثمينة حتى فى حالة كونها غير نافعة أو تعتبر أثمن من أشياء أخرى نفعا وفى بعض الحضارات يفضل نماذج وأنماط زخرفية معينة فى الشكل واللون وهى غير مشتقة من نماذج وأشكال ذات هدف نفعى أو «اقتصادى» -

وتظل مناقشات بليخانوف للفرن الحديث أقل اثارة للاعتراض بمثل ماتبقى عند مستوى الوصف وبمجرد أن يقدم تفسيرات سببية ينحرف عن طريق الصواب - وسوف يسلم بتأثير عوامل نفسية خاصة ودينية وبشكل واضح عوامل غير اقتصادية على العمل الفنى ولكنه عندئذ يؤكد أن هذه المؤثرات «فى نهاية المطاف» أو «فى التحليل النهائى» يمكن ارجاعها فى الوقت المناسب للعلل الاقتصادية التى هى أسباب حاسمة - ولن ينهار بليخانوف ويتهاوى فقط أمام الواقع فى محاولة ارجاع هذه المؤثرات غير الاقتصادية الى علل وأسباب اقتصادية ، ولكنه سيتفاضى ويتجاهل حقيقة أنه لو نجح فى هذه المحاولة فانه لن يتمكن من اقامة تلك العلاقة بينهما ويبدو ذلك وكما لو أن شخصا ما يرى فى

مناقشة السبب «النهائى» أو الحاسم لموت ضحية صدمه سائق وهرب ، ليس ذلك السائق المغمور الثمل ولا سرعة السيارة التى صدمت الشخص الضحية ولكن السبب النهائى الحاسم هو الرأسمالية لان الويسكى والسيارات سلع • وطالما أن للأسباب ذاتها عللا وهى بالتالى لها أسباب الى ما لا نهاية ، فان البحث عن سبب نهائى أو «علل فى المرحلة النهائية» سينتهى أما عند «علة أولى first cause» وهى (فكرة لاهوتية) أو عند سلسلة لانهاية من العلل ذات الوجود الكلى - الذى لن يفسر شيئا معينا لانه يفسر كل شيء •

(ج) الديمقراطية والديكتاتورية :

تعتبر أوجه النقص والعيوب النظرية لبيخانوف سمة عامة للحركة الاشتراكية الديمقراطية فى عصره ، ولقد أفادته كثيرا عقيدته الارثوذكسية فى مجال السياسة العملية وجعلته فى موقف أفضل • فلقد أكد فى أحد كتاباته المبكرة على ضرورة وجود رأسمالية متطورة داخل روسيا كلازمة أساسية وشرط أولى متقدم وسابق على مرحلة الدخول فى الاشتراكية وان محاولة بناء الاشتراكية فى بلد متخلف سيكون مصيرها الفشل • فلو فرضت الاشتراكية بالقوة ، هكذا كتب بليخانوف فى وقت مبكر عام ١٨٨٤ وبمسحة تنبؤية ، فانها ستقود لا محالة الى «فساد وتشوه سياسى ، وبعد مثال الامبراطورية البيروفية Beruvian والصينية ، سيتجدد ويعود ثانية الاستبداد العنصرى مغلفا ببطانة شيوعية» •

وعلى الرغم من ذلك ، ولان الاشتراكيين الديمقراطيين كانوا يناضلون ضد الاستبداد السياسى الذى أنكر حتى حقهم فى اعلان دعايتهم السياسية • لم يكن بليخانوف واضحا

ولا متسقا في مفهومه عن «ديكتاتورية البروليتاريا» وساهم في غموض الديمقراطية المفترضة ضمننا للحركة الماركسية .
ولقد فسر المفهوم أحيانا وكما لو أنه سيقنن ويشرع التضحية بالعملية الديمقراطية من أجل مصالح البروليتاريين وسيوسع ذلك مدى الامتيازات الديمقراطية للجماعات غير البروليتارية التي في انتظار مدى القوة التي ستبلغها الحكومة البروليتارية وحتى الأغلبية البرلمانية قد لا يمكن تجاهلها بعد الثورة .
وعلى الجانب الآخر ، فلقد حقق أحيانا مصالح البروليتاريين معتمدا على توسيع الحقوق الديمقراطية لكل الجمهور . ولقد اختلفت على أية حال وقبيل وفاته كل آثار الغموض في موقفه ، وفي عام ١٩١٧ أصبح مناوئا صريحا لأية ماركسية مهما تنوعت لاتقر صراحة أنه حالما يتم الاطاحة بالاستبداد السياسي تقام في التو مركزية العملية الديمقراطية ولكن بمرور الوقت وصل دوره وتأثيره السياسي لنقطة التلاشي .

٢ - دانييل دى ليون

(١٨٥٢ - ١٩١٤)

يعد دانييل دى ليون من الشخصيات الهامة فى التاريخ الماركسى ليس فقط بسبب اسهاماته الذاتية وازافاته للتراث الماركسى ، ولكن لأسباب عديدة منها أنه أفضل مثال أمريكى للمعقيدة الارثوذكسية للاشتراكية الديمقراطية ، وفى أنقى صورة ، وهو الشخص الذى خاطر وتجراً بالتعبير عن أكثر صورها وأشكالها العقائدية . فلقد كان دى ليون عقائدياً متعصباً حتى أنه ظل يرثى لوقت أطول فى غضون عام ١٩١١ للوحدة التى دشت عام ١٨٧٥ وبين الجماعتين الاشتراكيتين الالمانية lasalleans and eisenachers باعتبار هذه الوحدة تكتلاً أظهر صحة المبادئ الاشتراكية ولم يساعد الاصلاحات الديمقراطية أو الثورة الاشتراكية . وبرغم عدم موافقة ماركس وانجلز على هذا التكتل .

أكد دى ليون على نقاء المبدأ وعلى صلابة الحزب والتنظيم ، مهما كان صغيراً فهو مدعم ومحصن باعتقاد متقد ومتوهج ويبدو أحياناً كأمنية دينية اعتقاده بأن قوانين التطور الرأسمالى ستقوم بكل العمل المطلوب من أجل الثورة الاشتراكية . وكان مدعوماً أيضاً بتطورية اجتماعية سائدة فى أمريكا ايان الربع الأخير من القرن التاسع عشر والتى تتشابه تشابهاً وثيقاً مع قوانين النشوء والارتقاء

البيولوجى - فالطبقات الاقتصادية تقارن بالأنواع البيولوجية ، والصراع الطبقي يقارن بالصراع من أجل البقاء - وأعلن دى ليون أن «القوانين التى تحكم المجتمع تجرى وفقا لخطوط موازية أو متطابقة تماما مع تلك التى وضعها العلم الطبيعى فى عالم الاحياء» -

ويرى دى ليون ضرورة اقتصار دور الحركة السياسية على مجرد كونها شكلا دعائيا form of agitation يسجل ويعلم مدى ماقد تعلمته الطبقة العاملة من تدهور النظام الرأسمالى . ولا ينبغي عليها أن تحصر نفسها فى المطالبة بالتحسين والاصلاح الراهن التدريجى للمساوىء الموجودة فالاهتمام بأشياء من هذا القبيل مثل الضرائب والاسكان ، التشريع الاجتماعى يعتبر شيئا بغيضا - لانها ستكون فغا وشراكا ووهما يحجب عن العمال حقيقة تنامى وتزايد عملية افقارهم الأبدية: «ان التنظيم الثورى لجيلنا ينبغي ألا يكون وسيطا أو توفيقيا un compromising كائى تنظيم قد ظهر من قبل فى أية مرحلة تاريخية فهو يطالب باستسلام النظام الرأسمالى غير المشروط بالغاء عبودية الأجر : والابادة الشاملة لحكم الطبقة هى هدفه ، لاشئ أقل من ذلك سواء كان كخطوة أولى مؤقتة ، أو أى نوع آخر من الخطوات - يمكنه فى وقت لاحق أن يلقي تقديرا فى معسكر الثورة الحديثة» - ووفقا لدى ليون سيتم الوصول للاشتراكية دفعة واحدة - ولكنها ليست من البساطة ولا وضاعة الشأن بل لا مفر من تلك الشروط المفرطة فى التعقيد بحيث تتطلب أن يصبح التمثيل السياسى للطبقة العاملة محرزا للأغلبية فى الكونجرس congress وعندئذ سيؤجل انعقاده لأجل غير مسمى Sine die وتسلم مقاليد حكم الأمة الى الاتحادات العمالية - والنقابات الضخمة والمنظمة ليس تبعا للخط المهنى crat بل على أساس

الخطوط الصناعية وسوف يستبدل التمثيل النيابي تبعاً للتقسيم الجغرافي بالتمثيل النيابي تبعاً للتصنيف المهني . وبمعنى خاص يمكن اعتبار دي ليون أول من عارض فكرة الحكم السياسى للنقابات الصناعية والتي تطورت فيما بعد بشكل مستقل فى روسيا على هيئة مجالس السوفيتات soviets (راجع النص رقم ١٠) . وعارض دي ليون بصرامة الاشتراكيين الذين يسعون لاحتراز اصلاحات فى وضع العمال وتحقيق الاشتراكية تدريجيا (نصف الرغيف ليس أفضل من لاشيء لان نصف الرغيف هو دائما مجرد حجر «وهاجم أيضا السندكاليين syndicalist (النقابيين) الذين رفضوا العمل السياسى لصالح أهداف مباشرة وصريحة . ينبغى على الحركة الاشتراكية أن تعتنق وتتمسك بوجهة نظر شرعية متحضرة شريطة ألا تهب وتنشب أية معارضة وموجة عنف ضد تفويض الشعب . فحتى ذلك الوقت كان يتوجب على الاشتراكيين كأولئك المنظمين فى حزب العمل الاشتراكى socialist labor party أن يطهروا صفوفهم من الاصلاحيين الذين يظهر الحزب على أيديهم كما لو كان مؤيدا للحلول المؤقتة والمهدئة كبديل للثورة الشاملة ، وهاجم دي ليون أسلوب تحريض العمال الصناعيين فى العالم للقيام بعمل مباشر استفزازى لانه قد يطلق العنان لحلقة ارهاب قد لاتنتهى ، ورفض دي ليون الدعوة للنقابية العمالية الخالصة والبسيطة، ودعى الى تنظيم النقابات العمالية المزدوجة والتي ستقحم نفسها فى اطار برنامج اشتراكى شامل . وستصبح النتيجة تضاعل حجم حزب العمل الاشتراكى ودلالته . وكلما تزايد ضعفه ازدادت ثقته وادعاءاته الماركسية القطعية ، وتمسكه بالماركسية الارثوذكسية (السلفية) .

وتميز دي ليون لأسباب أخرى بالاضافة لتعصبه

وأرثوذكسيته - وقد يعزى فشل الماركسية فى الاستحواز على الحركة العمالية فى الولايات المتحدة أحيانا الى طابع لغتها ، والى لغتها الاصطلاحية الغريبة . ومع ذلك كتب دى ليون مقالات واضحة وبسيطة بأسلوب أمريكى أصيل ، تتخلله الدعابة والفطنة الفطرية الأمريكية . واتسمت كتاباته الشائعة بالارثوذكسية النظرية ، ولكنه لم يورد فى مناقشاته أى استشهاد بنص كحجة يستند اليها . ولقد انشغل بقدر الامكان فى التنقيب عن مواد ودلائل من التاريخ الأمريكى ليوضح به النظرية الماركسية فعلى سبيل المثال ، استخدم بشكل فائق ورقة ماديسون *Madison's paper* فى الفيدرالى *federalist* لشرح بها نظرية المادية التاريخية ، ومع ذلك لم يكن لكتاباته وأفكاره أى تأثير يذكر على الحركة العمالية الأمريكية الرئيسية . ويؤكد فشله هذا أن الماركسية فى قالبها الارثوذكسى (السلفى) لم تكن أكثر قبولا لدى العمال الأمريكىين فى صورتها وأسلوبها ، الشعبى الجماهيرى منها فى صيغتها وأبجديتها الالمانية .

ويختلف دى ليون ويفترق عن معظم الاشتراكيين الأمريكىين فى المكانة المرموقة التى أفردتها للالتزام والانضباط التنظيمى ، وذلك رغم حقيقة رأيه فى اقتصار عمل ودور التنظيمات السياسية على اعلان الحتمية وان «المبادئ والتنظيم هما شئ واحد» ، وأكد أن أى خلاف معه حول التنظيم ، وأى معارضة لقيادته ، ستؤول الى عدم ولاء والتزام بالمبادئ الاشتراكية وستواجه بعزل وابعاد قورى . وفصل دى ليون المنظمات ذات النقاء النظرى على تلك ذات الفاعلية والحركة السياسية المؤثرة ، وذلك لتجاهله مدى دور الأفكار ، كأدوات للتغيير الاجتماعى وعلى أية حال تقترب نظريته من برهان الخلف *reductio and absurdum*

بتناولها كل شيء فى كل شيء ، لتجسد عقيدة الاشتراكية الديمقراطية فى تأويلها وتمجيدها للتاريخ ، والتأكيد المبالغ فيه على الجبرية وتقديس الشعارات ، والتنظيم أكثر من فكر أى قائد آخر لتنظيم ثورى ففى خطاب لكاوتسكى اعترف ماركس بشك معين تجاه «الاشتراكيين الأمريكيين yankee socialists كأصحاب أفكار غريبة ومتعصبين» والاشارة هنا ليست موجهة الى دى ليون ولكن الى قدر ومصير الماركسية الارثوذكسية (السلفية) فى أمريكا والذي يبدو أنه أكد وجدس وتوقع ماركس .

الفصل الرابع

التصحيحية التحريفية (١)

برنشتاين - وجوريس

لم تنبت بذور العقيدة الاشتراكية الديمقراطية التي نثرت في العالم الجديد حيث القرية القاحلة المجربة • ولكنها ازدهرت في بعض مناطق العالم القديم ، خاصة ألمانيا حيث نما الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في غضون عقود قليلة ، ليصبح قويا بدرجة لم تكن مأمولة ، وألغيت في الحال قرارات بسمارك Bismark التجريبية ضده وقدمت الإصلاحات العادية لعمليات الاقتراع والانتخاب بالدرجة تتيح للحزب امكانية الفوز بأغلبية مطلقة تأييدا لبرنامج • ويتنامى الحزب في غضون ذلك وبسرعة فائقة ، ويزداد حجم عضويته وتنظيماته المتعددة ، ويتسع مدار صحافته ويروج سوق توزيعها ، وحتى ممتلكاته الفعلية تتزايد •

وتتغير شخصية الحزب الاشتراكي الديمقراطي تدريجيا باطراد نجاحه • وأدت الضرورات اليومية للتسوية والتعامل مع الأحداث ، والتأييد الذي تلقاه الحزب من القوى والعناصر

(١) Revisionism اتجاه فكرى ماركسى تناول بالتعديل بعض المقولات الفكرية السياسية وتناول بالنقد حيلة التجارب والخبرات العملية للنظرية وهي في بوتقة الممارسة بغية التصحيح ويشار اليه في الأدبيات الماركسية اللينينية على أنه اتجاه تحريفي خائن للمقولات الماركسية - ومن الملاحظ أن اطلاق ودمج أى اتجاه تجديدي نقدى في المستقبل بالتحريفية أصبح سمة لازمة لا يخلو منها الفكر الماركسى • وليس آخر ما وصف به روجيه جارودى الفيلسوف الفرنسى بالتحريفية وهو أحد المنظرين المتميزين بالحزب الشيوعى الفرنسى قبل فصله منه (المترجم) •

الأخرى من الشعب ، والتعاون الوثيق مع النقابات العمالية البعيدة عن إثارة الاضطراب الاجتماعى حالما اكتسبت مصالح عريضة فى الأمن الصناعى *industrial peace* والنصر المحلى فى فوز الحزب بتنازلات سياسية . كل ذلك تعاون وتضافر وتآمر على تحول الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى ذى الثورية الواضحة الى حزب ديمقراطى اشتراكى اصلاحى النزعة . وكلما جنح نحو المزيد من الاصلاحية فى الممارسة ازداد تصليا وتشبثا بالعنف الثورى الخطابى الذى يتظاهر به تجاه العالم .

وينبغى أن يضاف لما سبق تطور عادات ثقافية معينة ابان القرن التاسع عشر ، أسهمت فى اضعاف النزعة نحو الحماس الثورى واحترام الألمان الفائق نحو السلطة ، وشدة تمسكهم بحرفية القانون ، وتبجيلهم واعجابهم العميق بالأبهة والرصانة الملكية ، ولما قويت مكانة ألمانيا فى الساحة الدولية ، أخذ الفرور بنفوس معظم الشعب بما فيهم بعض العناصر العمالية ، بانجازات بلدهم العسكرية . ولم تستطع اجراءات بسمارك لفرض الارهاب وتحقيق الرخاء أن تنتصر على الحزب الاشتراكى الديمقراطى . واتسعت آفاق المكاسب السلمية للامحدود أمام الطبقة العاملة بعد إلغاء القوانين المناهضة للاشتراكية وبدأ يسود تدريجيا الميل للاقتراب من الواقع والتعامل مع الوسط الاجتماعى ليس باعتباره شيئا يمكن تحوله كلية من حالة لأخرى بل شيئا يعاد بناؤه بالتدريج ومن مرحلة الى أخرى .

١ - ادوارد برنشتاين

(١٨٥٠ - ١٩٣٢)

أدرك ادوارد برنشتاين Edward Bernstein التفاوت والتباين الواضح بين الآراء المعتمدة والمملنة للاشتراكيين الديمقراطيين وممارساتهم ، وطالبهم بأهمية الوضوح فى التحدث وفقا لما يفعلوه . ولقد أثارت كتاباته جدلا واسعا لم ينقطع ليس فى ألمانيا فقط بل فى كل مكان كان للماركسية أى تأثير فيه . وعندما بدأ يدبج ملاحظاته النقدية حول التفكير الماركسى السائد ، ادعى أنه سيكون المدافع عن ماركس الحقيقى والفعلى ضد أولئك الذين حنطوه وأصبح على أيديهم سجين قالب جامد - وفى الغالب بنفس طريقة وليام أوكام (١) William Ockham الذى استأصل بنصله حلق الأرسطية الوسيطة مدعيا أنه قام بعمله تحت لواء أرسطو الحقيقى الفعلى . وبمرور الوقت أصبح برنشتاين غير قادر بأية حال على اقناع الكثيرين أنه قد قرأ ماركس بشكل صحيح ، ولقد أنكر برنشتاين ادعاء أنه وريث العبادة الماركسية ودافع عن مصداقية ورسومه موقفه أكثر من دفاعه عن أصالته الماركسية authenticity

(١) ويليام أوكام فيلسوف مسيحي وسيط باعث المذهب الاسمي فى القرن الرابع عشر ، ويلخص فصله فى القول « لا ينبغي أن تكثر من افتراض كائنات بدون ضرورة » واتخذ برتراند راسل الفيلسوف التحليل المعاصر أداة لمنهجه التحليلي (المترجم) .

ويعد أصدق تعبير عن روح واتجاه برنشتاين التصحيحي (التحريفي) للماركسية الارثوذكسية (السلفية) تلك الجملة المشهورة الواردة في كتابه الرئيسي المنشور في بداية القرن الحالى (١) «ان مايسمى بغاية وهدف الاشتراكية لايعنى شيئا بالنسبة لى ، فان الحركة والفعل هى كل شيء» ومايعنيه برنشتاين بجملته هذه ليس كونه معارضا لمثل وغايات الاشتراكية بل معارضته لأى مفهوم صوفى غامض لها ، ولوجهة النظر التى تستشرف وتستبقي التحقيق المفاجيء لهذه الغايات الاشتراكية فى التاريخ عقب ثورة عنيفة والتى من المحتمل الا تمضى فى مسارها وفقا للمثل والأهداف الاشتراكية . وتصبح اسيرة التعليق باللفظ ومجرد الكلام الأجوف عن النصر النهائى الشامل للاشتراكية مؤديا بذلك اما الى النفاق السياسى فى حالة عدم تجسد ذلك فى سلوك فعلى وآثار عملية ، او الى المغامرة فى حالة تشجيع المطالب المستحيلة والمطلقة . فالشخص الذى يضع نصب عينيه الصحة البدنية والعقلية كهدف قد يكابد لبلوغه فى وثبة واحدة أو من خلال تمارين وتدريب سريع ومختصر . أو ربما يتحدث عنه ويتوق له بدون أن يظراً على سلوكه أى تغيير يذكر وفى كلتا الحالتين تعتبر الصحة كما لو كانت شيئا منفصلا ومستقلا عن عملية الحياة اليومية . ولكن يعتقد الى حد بعيد ، أن الصحة المثالية تكمن فى الوظيفة الرئيسية للكائن الحى فى مجمل عمله يوما بعد يوم . ويزداد نمو المرء ويصبح أكثر صحة فى غضون هذه العملية بدون الاستمتاع بالصحة المطلقة أو الانشغال بشأنها . وفى كلمات أخرى ، فان الصحة تشير الى مسار عملية أكثر من دلالتها على نهاية سلسلة . كما هو الأمر فيما يتعلق بهدف الاشتراكية . ووفقا لما يراه برنشتاين

(١) المقصود هنا هو كتابه « الاشتراكية التطورية »

ليس مهما ما اذا كانت الحركة الاشتراكية ستصل لأهدافها المعلنة ، المجتمع اللاتطبقى classless والذي يوظف فيه مبدأ الاخاء كمبدأ للعدالة والمساواة وسيصبح العلم ذا تطور عال لدرجة أن مبدأ تقسيم العمل لن يظل فعالا . بل المهم فقط هو حقيقة اثرءاء الحركة الاشتراكية المستمرة لحياة العمال - بحيث تزيد مجال مشاركتهم فى الحياة السياسية والصناعية ، وتوفر لهم الحصول على مساكن أفضل ، وبناء التعاونيات ، ورفع مستوى معيشتهم وتحقيق أمن متزايد لهم ، وتحويل التعليم من سلعة للطبقة المترفة الى سلعة عامة متاحة لكل من لديه الاستعداد للتعلم ، ويأتى عقب ذلك تطوير تقديرهم واحترامهم لذواتهم self-respect فالاشتراكية أسلوب وطريقة حياة تمارس وتعايش ويستمتع بها هنا وفى الحال ، وليست شيئا يقدس كنهاية للتاريخ .

لفت برنشتاين الانتباه لحقيقة دور الاصلاحات التى تتحقق نتيجة لضغط النقابات العمالية والحزب الاشتراكي فى تغيير شكل ومدى شراسة الأوضاع الاقتصادية للرأسمالية كما تنبأت بها الماركسية الارثوذكسية . واستنتج من ذلك ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى انه بإمكان العمال كسب المزيد من الحلفاء والمزيد من الانتصارات عن طريق توسيع الوسائل والأساليب الديمقراطية وذلك بشكل أفضل من التحريض والدعوة لممارسة الحرب الطبقة . فالصراع الطبقة مباطن وكامن فى النظام الاقتصادى . ولكنه ليس بحاجة لاتخاذ شكل العنف . ونتيجة لذلك جعل برنشتاين البرنامج الاشتراكي تابعا للعملية الديمقراطية ومصالح الطبقة العاملة وسيلة لزيادة خير ورفاهية المجتمع ككل .

أثارت كتابات برنشتاين هجوما عنيفا وحادا عليه فى صفوف الحركة الاشتراكية الديمقراطية الالمانية وهرب بشق

الانفـس من محاولة طرده على أيدي أولئك الذين شعروا انه امتـهن المـعتقدات النظرية والمصطلحات الفنية لبرنامج الحزب بل جرده من أسلحته القاطعة - وقد يعد ذلك حقيقيا ولكن ليس بمعنى تأثير نظريات برنشتاين على فعالية السلاح النضالى للحزب الاشتراكى الالمانى أو أنها غلفته وأحاطته بغلالة من الرفاهية - ولكن بمعنى أنه قوض المهمة والرسالة التاريخية للحزب - فمن الصعب أن تصمد الأفكار الصوفية الغيبية أمام الأحماض الاكالة للاحكام التجريبية - وما أنقذ برنشتاين من الابعاد والطرء من الحزب ليس كونه صديقا لانجلز أو كل رجال الحزب وكبار مسئوليـه ، بل تأييد قيادات الحركة النقابية العمالية الالمانية لانهم كانوا متحررين من التحيز الحزبى - وشعروا أن برنشتاين يعطى تفسيراً صحيحاً لواقع الحركة الاشتراكية فى ألمانيا ، واعتقدوا أن السياسة التى يدافع عنها ستتيح تكيف وملاءمة تلك الأفكار الحادة والمبالغ فيها مع ما هو عادى ومألوف بالنسبة للعالم ومضى فى الوقت ذاته -

اكتسب برنشتاين ابان سنوات نفيه فى لندن من البيئة والمناخ العقلى الانجليزى عدم الميل والابتعاد عن التجريد غير الملائم للوقائع والأحداث حيث لايمكن تمحيصه من خلالها وعدم اعتبار التاريخ كمعيار للقيم - وانعكس ذلك على جهده الدءوب لبلورة التراث النظرى لماركس وتنقيته من الآثار الهيجلية وأدان (الدياليكتيك) الجدل dialectic باعتباره تعويذة ، ودافع عن الجانب النقدى للعقلانيين الفرنسيين مفضلاً اياه على محاولتهم تقديم تفسير تاريخى للأحداث يقتصر على عقلنة ماقد حدث - والأهم ، هو انكاره ارجاع التبرير الأخلاقى للاشتراكية واشتقاقه من ضرورات التطوير الاقتصادى والصراع الطبقي - فهناك أساليب

صحيحة وأخرى خاطئة للنضال من أجل الاشتراكية ، وليس بالامكان استنباطها فقط من النتائج الاقتصادية للعمل الانسانى أو من استراتيجيات السلطة السياسية . وينبغى تفضيل التسوية التى تفضى الى معاناة انسانية أقل وتمهد الطريق نحو المزيد من تخفيف هذه المعاناة ، بدلا من النصر الذى تصاحبه معاناة انسانية مروعة .

أكد برنشتاين بدون انكار العلاقة الوثيقة بين الدراسة العلمية لطبيعة الاقتصاد الرأسمالى والمجتمع وبين البرنامج الاشتراكى ، ان الحركة الاشتراكية باندفاعها وتعصبها وحماسها تعتقد فى امكانية التقدم والتحول الى نمط انتاجى مختلف عن ذلك القائم والى نظام لتوزيع السلع والخدمات ، مرتكزة فى اعتقادها على مبادئ أخلاقية . ان تطور الرأسمالية يجعل الاشتراكية شيئا ممكنا وليس مجرد أمل وشيئا مرغوبا فيه ، وهى تصبح مجرد رغبة ومطلب نتيجة للسعى نحو العدالة والرغبة فى الحرية والاخاء العميق بين كل البشر ، والسعى نحو فرص متساوية أمام كل الأفراد لتنمية شخصياتهم نحو الأفضل . واعتقد برنشتاين بضرورة الحاق كانط Kant كمتمم ومكمل لماركس . وبمعنى آخر تعتبر المصطلحات والحدود الأخلاقية فى تعبيرات الماركسيين مجرد نفاق محض . وبالتالى يمكن تفسير التبعات والمشاق والتضحية بالذات التى يتحملها الاشتراكيون فى نضالهم من أجل مجتمع أفضل تبعا للتناول التصحيحي «التحريفي» وليس تبعا لضغط القوى المادية والمصلحة الذاتية .

ليس هناك أى انسان يموت فى سبيل قضية ، كما قد فعل الاشتراكيون العلميون ، غير عابئين بالمصلحة الذاتية ، وبشكل خاص لانهم لم يضعوا فى حسابهم الحياة الأخرى

here after ولانهم اعتبروا بعض الأشياء أثمن وأفضل من الحياة ذاتها . وحث برنشتاين الحركة الاشتراكية على ادراك أن سياساتها الفعلية اصلاحية وليست ثورية ، وبالمثل ان مع بين البواعث الرئيسية لنشاطاتها الواجبات الأخلاقية المستمرة مع تلك الأفكار المعلومة فى التاريخ الطويل والعام للتححرر الانسانى من الجهل والاضطهاد .

ورغم اتهام برنشتاين بكونه « انتهازيا opportunist » ومرتدا backslider الا أنه دافع عن الأفكار الاشتراكية والديمقراطية بشجاعة وثبات تفوق العديد من نقاده ومهاجميه من الماركسيين الارثوذكس وكان ناقدا دائما للسياسة الخارجية الالمانية وواحدا من الزمرة البرلمانية التى رفضت التصديق على اعتمادات الحرب العالمية الأولى . وكان رجلا ذا شرف واستقامة عقلية ، لم يعكس الحقيقة لأجل حزبه ، مستعدا دائما لاعادة انتقاء واختيار مبادئه وامتحانها بمثل ما هو مستعد لنقد مبادئ الآخرين . وكان متسامحا فى كل الخلافات النظرية وأكثر اعتدالا مع معارضيهم منهم معه . ولسوء الحظ ، فان وجهة نظره هى التى أصبحت تدريجيا « الوجهة الرسمية للحزب الاشتراكى - الديمقراطى الالمانى ابان عصر جمهورية ويمار (١) weimar republic » واغفلت روح التسامح والجسارة والعزيمة لديه . وكان قدر برنشتاين ان العديد ممن بدوا وكأنهم يوافقونه على مسلكه التصيحى « التحريفى » ويعتقدون الاصلاح « ولكن على اساس عملى ضيق وليس على اساس اخلاقى كما هو لدى برنشتاين ، فمن السهل لهم والاقل اقلاقا لراحتهم ولحافظتهم على القديم ان يكونوا ديمقراطيين ، وأن - يسلكوا مسارا

(١) سبقت استيلاء هتلر وحزبه النازى على مقاليد السلطة فى مطلع الثلاثينيات من هذا القرن .

وسطا ، وان يتقدموا ببطء وتدرجيا ولكن عندما أصبحت الديمقراطية مجرد رهان ومغامرة في جمهورية ويمار ، وعندما لم يعد الطريق الوسط سهلا بل أصبح أكثر تحديدا وصرامة ، وتطلب الأمر الايمان والحماسة والشجاعة البطولية لحماية وانقاذ التقاليد الراسخة والمعقولة للمجتمع ضد التعصب سقط الكثيرون وتباعدوا عن اشتراكية برنشتاين . ولقد مات برنشتاين نفسه قبل اسابيع من تحطيم جمهورية ويمار بين المطرقة والسندان او شقى رضى الشيوعية والفاشية . « ترى لو ظل حيا » هل سيبقى ضمن اولئك الذين دافعوا عن مبادئه ومواقفه الديمقراطية حتى النهاية .

٢ - جان جوريس

(١٨٥٢ - ١٩١٤)

كان جان جوريس شخصية أكثر وضوحا ومجاهرة بالاشتراكية التصحيحية «التحريفية» وهو الزعيم الاشتراكي الفرنسي الكبير الذى سقط صريعا برصاصة غادرة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى . ورغم أنه اعتبر نفسه ماركسيا ، الا أنه أعلن «أن الماركسية ذاتها تتضمن الوسائل التى يمكن بها الاضافة اليها بالتعديل والمراجعة» - وهو الرأى الذى يتصدر دوما نقد الماركسية الارثوذكسية «السلفية» . ولم يخف جوريس البتة معارضته للماركسية الارثوذكسية ، بل وفوق ذلك عرفانه بديته لها ، وجدير بالذكر أنه كان أكثر حدة من برنشتاين فى نقده لماركس وانجلز ، خصوصا فيما يتعلق بالمسائل التقنية الاصطلاحية ، فلقد ركز برنشتاين فى الأساس على عدم صدق وتحقيق تنبؤات ماركس تبعا لتطور الأحداث - بينما أكد جوريس على خطأ بعض هذه التوقعات حتى فى الوقت الذى طرحت فيه .

ولقد استلهم جوريس اشتراكية من منابع غير ماركسية - المثالية الفلسفية الألمانية - اليوتوبيا الفرنسية utopianism ورغم أنه تقبل المادية التاريخية كأداة للبحث التاريخي ، الا أنه رفض المادية الفلسفية بكل ضروبها . فالعالم والكون لديه أكثر من كونه مجرد تنظيم وتركيب للمادة أو مجرد

طاقة متحركة عمياء بلا اتجاه تتحول من حالة لأخرى ففى الواقع ان الكون كان باعثا للمثل الانسانية والولع بالحب والعدالة مشيرا بذلك على تكونه من مبدأ روحى ، لأنه لا يمكن لأى شىء ان يصبح واقعيا ما لم يكن ممكنا وكامنا ومباطنا كلية فى الحاضر . وهذا المبدأ يبعث ويهب الحياة لكل الموجودات ، وبرغم الصراعات الظاهرية فهو علة وسبب النظام المتطور المتنامى والانسجام فى الطبيعة والتناغم فى المجتمع . وبدون هذا المبدأ والعامل الروحى الموحد والمؤلف والمجمع فان العالم سيظل يتحلل الى هويليات chaos .

اشتق جوريس اعتناقه للاشتراكية ومطالبته بها من حقوق الانسان باعتباره انسانا وبأن يكون شخصا وباعتباره فرداً واحداً وبتأكيد لفرديته وذاتيته ، ويطالب للعامل « بكل شىء ينتمى تقريبا للانسان ، الحق فى العمل ، الحق فى التطور المعقد لقدراته . التدريب المستمر لارادته الحرة ولعقله » . وسبق ان اوضح ماركس ان التطور التاريخى للملكية جعل من المستحيل على المجتمع اتاحة كل هذه الحقوق ما لم يصبح الشكل السائد للملكية اشتراكيا . ولن تتحقق الاشتراكية فى الملكية بمفردها فى الدولة او المجتمع بل تستلزم العديد من الأشياء المرتبطة بها والتي تجعل العامل عضوا فعالا نشطا متعاوناً ، فى النقابات العمالية ، الجمعيات المحلية التى ستمنحه كل الحقوق باعتباره شخصا ، وأيضا الأشكال المتعددة والمعقدة للملكية الاجتماعية والتي تحميه ضد الطغيان وظلم أى زمرة معينة أو طغيان الأمة ذاتها .

لقد كان جوريس اشتراكيا انسانيا يؤرقه البحث عن أساس للاعتقاد والعمل العام فى المعارضة السياسية أكثر من كونه عدوا طبقياً بل كرفيق حزبي ناقد . وكان هدفه والذي كثيرا ما خلطه بهدف التاريخ ، هو تحرير البشرية كلها من

الاستبداد السيامي ، والخرافات والأساطير الدينية ، الاستغلال الاقتصادي . وطالما ان البروليتاريا هي الطبقة التي تتكبد القسط الأعظم من المعاناة ، فان تحسين أوضاعها هو أكثر الهموم إلحاحا ، ولكن المبادئ التي سيتم بواسطتها تحسين أوضاعها ستطال وتشمل كل الطبقات . وترتبطا على ذلك ، ورغم ان الصراع الطبقي حقيقة لا يمكن انكارها ، الا انه بالامكان استخدام وتوظيف التعاون والتحالف الطبقي القائم على مبادئ موضوعة للعدالة لتحقيق الاصلاحات الاجتماعية وغالبا ما كان جوريس صوت الأقلية في حزبه ، واتهم كثيرا من قبل الاشتراكيين الارثوذكس مثل الجوسيد والبيل Guesde and bebel في الدولية الاشتراكية ، ودافع جوريس عن التأييد الاشتراكي والمشاركة الاشتراكية في الحكومات البرجوازية bourgeois لو كان بالامكان الفوز بالاصلاحات عندئذ وتجنب الشرور والمساوئ وشيكة الحدوث . ولقد ذهب فيما تعلق بهذه الناحية أبعد مما كان لدى برنشتاين .

كان جوريس اشتراكيا جذريا (راديكالي) Radical بسبب نزعته الانسانية لكنه لم ينضو تحت لواء الحزب الاشتراكي الراديكالي (١) واعتقد في صدق المبادئ الديمقراطية في كل مناحي الحياة . ويؤكد جوريس أن الديمقراطية الاقتصادية لازمة للديمقراطية السياسية ويعنى بالديمقراطية الاقتصادية ما هو أكثر من الصفقات التعاونية «فلو أصبح العامل حرا حقيقة فينبغي مناشدة العمال ليقوموا بدورهم في تنظيم العمل . وأن يحصلوا على حصتهم في

(١) الحزب الاشتراكي الراديكالي Radical Socialist party في فرنسا حزب ارتبط ارتباطا وثيقا بتأييد الرأسمالية وتكون أساسا من الفلاحين ومجموعات الموظفين الصغار - (المؤلف) .

الادارة الاقتصادية للمؤسسة ، تماما كما يتيح لهم الاقتراع العام حصة في الادارة السياسية للمدينة» وبمرور الوقت استكمل جوريس اكتشاف طبيعة الحكومة الاقتصادية للعمال، ومن الواضح أنه توقع اكتساب العمال لقوة متزايدة ، سواء بالأسلوب المباشر أو من خلال مجالسهم مثال مجالس الادارات •

يعتبر السلام العالمى كما يذهب جوريس شرطا ضروريا للحضارة الانسانية • ولهذا ينبغي تسوية الصراعات وحلها من خلال المفاوضات والتحكيم لا عن طريق القوة • ولا ينسحب ذلك فقط على الصراعات بين الأمم بل أيضا الصراعات الداخلية للأمم ذاتها • كان جوريس عنيفا حادا ومقنعا فى نقاشه وتفنيده وهجومه الموجه ضد عبادة القوة وخرافة النقابية (السنديكالية) حول الاضراب العام الذى كان له بعض التأثير على المجموعات الاشتراكية • وهزأ من فكرة فرض الاشتراكية على أية أمة من خلال أقلية ثورية • ووظف معرفته التاريخية الهائلة ليوضح أن الثورة الاشتراكية الناجحة فى الماضى «كانت ستنتهى للاشئ لو أنها لم تحدث وفقا «لارادة الأغلبية العريضة من الأمة التى تساندها» وألح جوريس بصدق يغالبه الشك أن حضور الأغلبية لن يكون من خلال سجلات الموافقة بل من خلال الأحداث التاريخية ذاتها • ولكنه كان أكثر اقناعا فى رأيه حول اقتصار دور الثورة الاشتراكية فى الماضى على مجرد نقل السلطة السياسية والشرعية للطبقة القوية والمحصنة اقتصاديا ، بينما تقتضى الثورة الاشتراكية وتتطلب تحولات اجتماعية أضخم كثيرا • وما هو أكثر إلحاحا وضرورة هو الحاجة الحالية للأغلبية الثورية «ففى عام ١٧٨٩ كان للثورة عمل سلبى فقط بتعاملها مع شكل الملكية السائد بحيث يمكن القول أنها

ألفته ولم تخلق شكلا مغايرا . . أما الثورة الاشتراكية فعلى النقيض من ذلك ، ينبغى ألا تقنع بالوقوف عند الغناء الرأسمالية ، بل ينبغى أن تخلق الأشكال الجديدة والتي فى ظلها يمكن أن تدور عجلة الانتاج» .

ناقش جوريس وكما فعل الانسانيون المعاصرون ، لو كان على البشر أن يحسموا مشاكلهم بشكل ملائم وصحيح ، وليس مجرد التحدث عنها ، فينبغى عليهم أن يتعلموا ويخبروها وسيصبح متاحا لهم حق المولد لمجمل الحضارة الانسانية والعلم الحديث . ولذا ينبغى أن يتلازم حق التعليم العالمى مع حق الاقتراع العام . ولو أصبح هذا التعليم ليبراليا أصيلا liberal فينبغى عليه التحرر من أى نوع من السلطوية authoritarianism ولذا ينبغى أن يصبح علمانيا تماما secular أى ضرورة فصل الكنيسة عن الدولة فى العصر الحاضر فصلا واضحا ويمكن بهذه الطريقة أن يتقدم الانسان الطبيعى ، المحدود الناقص ، يتقدم ويتطور انسانيا عبر استحضاره وتمثله للمثل والقيم الأبدية الخالدة فى أية عملية تاريخية حيث تتطور فى مسار حلزوني لولبى من خلال أطوار ودورات التطور الأبدى للتعاون الاجتماعى والاضمحلال الأبدى للصراع .

نقد جوريس تأليه اليوم المجيد الذى سيشهد النهاية المفاجئة للرأسمالية وبزوغ فجر الاشتراكية ، كما فعل برنشتاين من قبله . وبينما أصر برنشتاين على عدم وجود ضمانة بحلول هذا اليوم ، كان جوريس واثقا ببزوغه . واستبدل النظرية الارثوذكسية لحتمية الثورة المفاجئة بفكرة حتمية الثورة التدريجية . وعلى أية حال ، فان تأكيد كلا المفكرين التصحيحيين (التحريفيين) ينصب على الحاضر ،

وليس المستقبل - فلقد كان من المهم كثيرا «أن تحيا فى دولة ذات سمة اشتراكية ، تعمل دوما كل ساعة ، كل دقيقة» لتعيد صياغة العالم وتصبح أكثر التصاقا بأفكارنا الاشتراكية ، بدلا من التشبث والتعلق بعزاء وسلوى أن التاريخ يسير ويمضى لصالحنا وينحاز لجانبنا واعتقد جوريس مثل برنشتاين أن نقابات العمال ، التعاونيات ، الجمعيات الخيرية ، وكل النشاطات المختلفة للطبقة العاملة ، ينبغى أن تكون مدارس للحياة والاعاشة وفقا للاشتراكية - وبدلا من المقارنة بين الاصلاحات الاشتراكية والثورة الاشتراكية ، ينبغى أن تصبح الاصلاحات الوسائل التى بها يمكن تحقيق الثورة *

كان جوريس توفيقيا كبيرا ، وفوق ذلك رجلا ذا قلب طيب و ارادة خيرة لدرجة أنه حاول أحيانا التوفيق بين المتناقضات وباعتباره دريفيوسيا متحمسا ، رأى فى الدريفويسيين أفرادا مضطهدين وانهم جهلاء فحسب أكثر من كونهم ضعفاء * ورغم وجهته ونزعتة الفلسفية الا أنه أظهر ميلا واتجاها أكثر نحو تطبيق الأفكار الاشتراكية وملاءمتها للمسائل والشئون العملية يفوق اهتمامه ببلورة وتوضيح الأفكار والقضايا النظرية وتعاطف مع أية نظرية بإمكانها جذب البشر نحو الحركة الاشتراكية شريطة محافظتها على وحدة تلك الحركة والتى رأى أنها مهددة بالتفتت الطائفى والتعصب والتشدد فى التمسك بالنقاء النظرى والجمود الأرثوذكسى (السلفى) وكتب هجاء راقيا مهندبا لأولئك الذين يفضلون انضواءهم تحت آلوية اليسار بدلا من اليمين ، ولكنه قد يتحول أحيانا بأسلوب بلاغى لاسترضائهم *

اتخذ جوريس وابان المناظرة الكبيرة بين كاوتسكى وبرنشتاين موقفا متميزا عن كليهما ، ولكنه كان أكثر قربا

لكاوتسكى منه الى برنشتاين» عندما أوافق كلية على كاوتسكى
فبنفس الاسلوب أوافق على برنشتاين بوجه خاص» .
وباستثناء الدفاع الأخرق الواهى عن النظرية الماركسية
للقيمة (التي دافع عنها جوريس باعتبارها متسقة مع اعتقاد
برنشتاين فى امكانية التحسين المستمر لمستوى معيشة
العمال) ، فلقد تحول ايمان جوريس بالارثوذكسية الماركسية
الى مجرد ذبالة خافتة أو خيط واه .

وابتات تحول جوريس أمر يسير وواضح السهولة ،
بالاشارة الى نظرية المادية التاريخية التى غالبا ما أعلن
جوريس أنها ليست أكثر صدقا من نظرية المثالية التاريخية .
وطالب فى بعض الأحيان بالاعتقاد فى فاعلية نمط الانتاج
الاقتصادى كسبب وعامل نهائى لتحديد كل الظواهر الحضارية
وعندئذ أكد أنه لمن الصعب والعسير التمييز بين المؤثرات
السياسية وتأثير العلم ، والقوى الاقتصادية باعتبارها عوامل
سببية أو أن نفصل بينها لكى نفسر أى هذه الأسباب يعتبر
مجرد حيلة فكرية (الأمر الذى تتطلبه المادية التاريخية)
ويتضح أكثر تأكيده الجازم بأن القانون الديمقراطى ،
الفلسفة ، العلم ، الفن ، رغم تحديدها بعمل العوامل
الاقتصادية الا أنها ذات منطق وتاريخ تطور مستقل وهذه
القضية من الوضوح والصراحة بدرجة لا تتيح لأحد فرض
المادية التاريخية أو حتى الاقتناع بها ، فهى تدعى أن الظواهر
غيرالاقتصادية ليست لها تاريخ مستقل . ولكن ينبغى التحرز
والتأكد بأن جوريس مثل الماركسيين الارثوذكس بعد ادراك
التفاعل المتبادل بين العوامل المختلفة اجتماعية وثقافية أكد
على هيمنة وسيطرة الفاعلية النهائية للعامل الاقتصادى .
ولكن عندئذ يقلب المائدة على المادية التاريخية بادعائه أن
عملية ودورالعامل الاقتصادى تعتبر مظهرا وتعبيرا عن أولوية

الروح الانسانية ورغم ادعاء هيمنة وسيادة العامل الاقتصادى
الا انه فى الواقع الفعلى لا يحدد ولا يقرر دائما الوقائع
والأحداث الثقافية .لانه باختصار «لديمقراطية ، الكنيسة ،
العلم ، منطقا خاصا وبناء داخليا وقويا وآليات تطور خاصة
ينبغى التعامل مباشرة معها ، بغرض تشجيعها ودفعها للأمام
اذا كان عملها يمضى فى اتجاه اقتصادى مرغوب من جانبنا ،
أو معارضتها لو كان عملها مناهضا أو مضادا لنا» .

ويعد أضخم عمل منشور لجوريس تاريخه للاشتراكية
من ١٧٨٩ حتى ١٩٠٠ ، ولقد وصف فى المجلدات الاولى
القليلة تاريخ الثورة الفرنسية وصفا بذكاء وبراعة وأصالة
وتأثير العوامل الاقتصادية على الأحداث السياسية بدون وضع
الادعاءات المبالغ فيها والتي تميز كتابات الماركسيين
الارثوذكسية وربما تعد حياة جوريس أكثر دلالة من عمله
المنشور . فلقد كان أفصح وأبلغ مدافع (تريبون) *tribune*
عن الديمقراطية الفرنسية وعن محبى السلام فى أية بقعة
فى الفترة من ١٨٩٠ وحتى ١٩١٤ وكلمته الاخيرة خطاب
٢٥ يوليو ١٩١٤ . كانت نداء لعمال اوروبا لايقاف الحرب
العالمية الأولى . وينشره فى أول أغسطس كان جوريس قد
فارق الحياة وبموته . انتهت حقبة فى تاريخ الماركسية .

الفصل الخامس

لينين

لو لم تقع ثورة أكتوبر الروسية ، لظل أسم لينين مجهولا خارج روسيا . فقبيل عام ١٩١٧ الذى شهد الانهيار العسكرى والاجتماعى لروسيا القيصرية Czarist بعد ثلاث سنوات من الحرب ، لا يوجد شىء فى تاريخ لينين يمدنا بأى دليل على دور صانع الأحداث event-making والذى سيلعبه فى تاريخ العالم فيما بعد . • فهو ليس متميزا ولا بارزا من ناحية كونه منظرا ماركسيا بالمقارنة بآخرين • بل لم يتوقع حتى وقت متأخر قبل عام من سيطرته ومجموعته على السلطة فى روسيا ، انهم سيتسيدوا هذه الامبراطورية الضخمة ويجلسوا على دست الحكم فيها ، وفوق ذلك اندهش تماما للنتائج والآثار التاريخية المتعظمة لأفعاله •

كانت عبقريته وابداعاته فى الأساس ذات وجهة سياسية وعملية تطبيقية • ويدعمها دهاء فطرى ويوجهها ثبات واصرار حديدى على الهدف لا يتبدى دوما فى المرونة التكتيكية (القدرة على المناورة) المذهلة tactical التى ميزت عمله وأسلوبه • ورغم ذلك ، اعتمد فى نزوعه للعمل بجرأة وتشدد على تأكيد معين متميز أولا للنظريات الماركسية قبل استعداد وتأهب مجموعته الصغيرة للصدام والهجوم على النظام الديمقراطى الذى أعقب انهيار الاستبداد والشمولية • وعندما واجهته فرصة الاستيلاء على السلطة - وهى الفرصة

التي ساعد عناد لينين وتصلبه السياسى على خلقها - لم تكبح عنان قدرته وموهبته السياسية أى عقيدة قطعية dogma حول أسبقية وألوية الاقتصاد على السياسة • وأدى اقتناعه بالسهولة التي تم بها الاستيلاء على مراكز السلطة السياسية الى تأكيده المعلن والصريح نظريا على أهمية التنظيم الثورى والارادة الثورية بحيث خلف وراءه وقبيل وفاته مجموعات من التعاليم والمقولات والتي تكون وترسى دعائم انحراف عن أدبيات وتقاليد الماركسية الارثوذكسية ، انحراف أبعد مدى وأخطر من انحراف التصحيحية (التحريفية) التي أدانها لينين بشدة *

١ - الحزب الشيوعى كسلاح

اعتمد ماركس على تطور الرأسمالية فى اكتساب الطبقة العاملة لوعيها بوجودها كطبقة فعدم الاستقرار الاقتصادى للرأسمالية يؤدى الى غياب الأمان ، البطالة ، والجوع وسيصبح السوط الذى «يلهب ظهر الطبقة العاملة ويعمل على ايقاظها للمعارضة واثارتها لادراك وضعها الميئوس منه كطبقة طالما بقيت الرأسمالية مهيمنة وافترض ماركس الوجود المتاح لمفكرين على شاكلته يقومون بتعليم الطبقة العاملة وتوعيتها برسالتها ومهمتها كطبقة ، ويوضحون ويحددون الفكرة المتكاملة عن المجتمع الاشتراكى • وان هؤلاء المفكرين الاشتراكيين سيكونون روادا ومعلمى الطبقة العاملة - بامدادهم اياها بالشخصيات البارزة والقيادات الملتزمة فى شكل واطار جماهيرى صريح • وأن هؤلاء الاشتراكيين لن يكونوا شرادم تقود الطبقة العاملة قيادة فوقية من أعلى أو من خلف ظهرها عن طريق الحلقات والزمرة السرية •

سبق ورأينا أن الماركسيين الارثوذكس (السلفيين) أظهروا اتجاهًا متواصلًا لتأويل المادية التاريخية بالطريقة التي تجعل السياسة مجرد انعكاس بسيط للاقتصاد واستنتجوا من ذلك أن العمل السياسى للطبقة العاملة لا يمكن أن يتجاوز تخوم الامكانية الاقتصادية بشكل ملموس . فليس يكفى التحدث عن الثورة الاشتراكية ، لكى يحمل المرء على وضع الفكرة دليل عمل جاد بحيث تصبح الرأسمالية على شفى الانهيار أو تنهار فعلا .

وعبر هذا الاتجاه عن نفسه فى روسيا بنزعة فكرية متطرفة عرف باعتبارها «نزعة اقتصادية» أو «ذيلية العمل السياسى» tail-endism وهى تدعى أن الطبقة العاملة ستقدم رؤية سياسية اشتراكية ملازمة تلقائيا ومصاحبة لنضالها الاقتصادى ولذا فهى تؤكد على أولوية النضال الاقتصادى ووقف لينين موقفا مناوئا لهذه النزعة ، ورأى أن الاعتقاد فى الاشتراكية والعمل السياسى لتحقيقها لا ينبثق كنتيجة تلقائية لخبرة العمال فمثل هذا الاعتقاد والفاعلية يعتمد على الدعاية الاشتراكية propoganda وتحريض الطبقة العاملة . فالوعى السياسى ليس نتاجا تلقائيا لقوانين التطور الاقتصادى . وبطريقة أخرى كيف نفسر وجود النقابات العمالية الكاثوليكية catholic trade unions أو النقابات البسيطة العمالية الصرفة مثل (A. F of L) ؟ فالوعى السياسى عامل مستقل نسبيا ولا يمكن استنتاج وجوده من النضال الاقتصادى الطبقي ومع ذلك يساهم بقوة فى تحديد محصلة النضال من أجل الاشتراكية وينبغى غرس الوعى السياسى واشاعته بين الجماهير عبر نظرية ثورية (تسمى بشكل غير دقيق الايديولوجية ideology يروج ويدعو لها التنظيم الثورى الذى ينبغى أن يعد للانقضاض والهجوم على

السلطة ، بعد كسبه لتأييد الجماهير لبرنامجهِ وعندما يصبح
الوضع ملائماً والموقف ناضجاً - ولقد كان هذا العنصر الارادى
فى فكر لينين خافئاً فى البداية ، ولكنه اتسع وازدادت قوته
قبيل ثورة أكتوبر ١٩١٧ وفى أثرها مباشرة وعندما توفى
لينين كان قد اكتسب عامل الارادة الثورية عمقا بدرجة
اخترقت وتجاوزت الاطار العام ومجمل المادية التاريخية .

لم يعتقد لينين البتة فى الانهيار والسقوط التلقائى
للرأسمالية - حيث تؤدى نجاحاتها عبر الصعوبات والعوائق
المتوالدة والمتوالية الى انضاجها للانتقال الى الاشتراكية ،
وما لم تقطف وتجنئ فى موسمها ووقتها المحدد فبامكانها
تجديد ذاتها وامادة واطالة حياتها لامد غير محدد مع اتساع
رقعة اهترائها - وأعلن لينين ذات مرة «لا توجد أوضاع أو
أزمات لاتنفصم أو لا سبيل للخلاص منها بشكل مطلق» -
ورغم تقديسه للتاريخ ، كان يعرف أن التاريخ لايفعل شيئاً
من تلقاء ذاته - والتاريخ لايمنح السلطة أبداً - بل ينبغى
انتزاع السلطة دائماً والاعداد لانتزاع السلطة مهمة التنظيم
الثورى التى ينبغى ألا يتجاهلها أو يتغافل عنها ، وهى المهمة
التي تحركه وتقوده فى كل مايدرسه أو يقوم به - وجعل
لينين انتزاع السلطة السياسية ، وتدمير الدولة القائمة
ومجمل وظائفها هدفاً للحركة الاشتراكية ولأجل الاشتراكية
كهدف نهائى فالاشتراكية باعتبارها شكلاً للنظام الاجتماعى
ومثالاً للاخاء والمساواة يمكنها فقط أن تصبح خاتمة المطاف
ورؤية نهائية بعد الفوز واحراز السلطة السياسية -

لم يعتقد لينين أبداً فى الفقر والحقن الاجتماعيه كأسباب
وعلى لظهور الحركات الشيوعية وهذه أحد ادعاءات الليبرالية
فبدون التنظيم الثورى الذى يشعل شرارة الغضب والتمرد

ليندلع بركانها المحموم ، ويدعمها ويوسع من دائرتها فى كل الاتجاهات ، بدون هذا التنظيم الثورى ستخمد نيران الثورة مخلفة وراءها بقعة جافة صلدة تحول دون انتشار لهب أية ثورة أخرى .

والحزب الشيوعى هو التنظيم الذى ينبغى أن يقود النضال من أجل انتزاع السلطة السياسية (استخدام لينين الاسم يعينه بعد ثورة أكتوبر ولأول مرة) . ويتسلح بالنظرية الماركسية . يعرف المصالح الحقيقية للعمال وبشكل أفضل مما يعرفونها هم أنفسهم وتقتضى ضرورة فعالية التنظيم احاطته بانضباط صارم . وألا تتضمن عضويته الأنصار والمتعاطفين ، وأولئك الذين يصوتون لصالحه وحسب فى الانتخابات ، أو المصلحين فاعلى الخير ، وأصحاب النوايا الحسنة الذين يرغبون ويتمنون بذل قصارى جهدهم لاجل العالم الذى يحيون فيه وأى عالم يخشى أن يحل محله . ينبغى أن يتكون الحزب الشيوعى فقط من أولئك الذين يفنون كلية فى قضية الحزب ، فهو حزب الثوريين المحترفين ، حزب منظم هرميا ، ذو قيادة مركزية ، رغم تشخيص وتوصيف لينين لبناء وتكوين الحزب الشيوعى فى بعض الأحيان أنه حزب «المركزية الديمقراطية» democratic centralism الا أنه يعنى بذلك تحديد وتقرير فرص العضوية لممارسة النشاط الديمقراطى من قبل المصادر المركزية — الادارة البرقراطية والادارة الذاتية الابدية للألة شبه العسكرية .

عندما لم يكن ليون تاروتسكى يشارك لينين فى مفهومه حول الحزب الثورى ، وتعقيبا عليه شجبه وأدانه باعتباره تحريفا تآمريا يساريا (يعقوبى Jacobean) حيث ان «تنظيم الحزب يحتل مكانة الحزب نفسه ، وتحتل اللجنة المركزية

مكانة الحزب ، وفى النهاية يحتل الطاغية الديكتاتور dictator مكانة اللجنة المركزية» (ولان مجموعة لينين فازت بأغلبية مؤقتة فى مؤتمر عام ١٩٠٣ للحزب الديمقراطى الاشتراكى الروسى حول مسألة بناء الحزب ، اكتسبت اسم البلاشفة bolsheviri وهى الكلمة الروسية المقابلة للأغلبية) .

وفى البدء قدم لينين مفهومه للحزب لروسيا فقط ، حيث أجبرت الأحزاب الاشتراكية على العمل السرى تحت الأرض بسبب الظروف الخاصة بالاستبداد السياسى السائد . ولكن فيما بعد وعقب ثورة أكتوبر ، قام بتعميم نظرية الحزب وجعلها عالمية وملائمة لكل الأقطار بما فيها بلدان العالم الحر والبلدان الديمقراطية ، بل وجعلها مقبولة وملزمة ومجبرة لكل الأحزاب الشيوعية المنسوبة للشيوعية الدولية . (راجع ملحق رقم ١٤)

٢ - الخط السياسى للحزب الشيوعى

طلما أن دور النظرية الثورية ينحصر فى امداد الحزب بالخطوط الموجهة للعمل التنظيمى يصبح من الضرورى تأمين الحزب ضد أية اختلافات نظرية فى صفوفه قد تضعف تماسكه وقوته الضاربة . فلم يطالب لينين بالانضباط فقط فى الحركة بل طالب أيضا بالخضوع والاذعان فى التفكير لخط الحزب فى كل القضايا الهامة . مثلا ، قيادة الحزب هى التى تقرر وتحدد مايشكل الموقف والرأى الهام وأى فرد له حرية النقد ولكن بشرط الاستقالة أو الفصل من الحزب . ولقد ناقش لينين عبارة «حرية النقد» ورأى أنها عبارة وقضية

ناقصة وتعبر عن زيف وخطأ داخلي متضمن بها ، ان لم تكن (فكرة مرائية كاذبة) ينبغي أن يكون النقد تابعا للحق والصدق والحرية العقلية في الحزب لاتعنى حق التعبير عن آراء مخالفة بل تعنى فقط حق التعبير عن الحقيقة كما حددها مجلس ومكتب الحزب على أساس الفلسفة العلمية «وأولئك الذين يعتقدون حقيقة بأنهم يطورون العلم لن يحتاجوا للحرية من أجل استمرار الآراء القديمة ومسايرتها بجانب تلك الآراء الجديدة ، بل استبدال تلك القديمة بالآراء الجديدة - وأن هتاف تحيا حرية النقد الذى يسمع اليوم بقوة بحيث يذكرنا ويعيد للاسماع خرافة وأسطورة البرميل الاجوف (والذى يصدر الضوضاء) ويرى لينين أن الحزب يؤسس ويضع خطه السياسى واتجاهه فى ضوء النظرية الماركسية له الحق فى ادعاء امتلاك الحقيقة ، أو انه أكثر قربا والتصاقا بالحقيقة من أية مجموعة أخرى» .

ولن يصبح لهذا التعصب النظرى أى تأثير على أية مجموعة من الشعب فيما عدا أولئك الذين قبلوا عضوية الحزب الشيوعى واحتفظوا بها ، وحتى يستولى الحزب على السلطة . وتبدأ النتائج المحتومة بالنسبة للآخرين من خارج الحزب حال تسلمه السلطة وجهاز الدولة فيمارس ديكتاتوريته باسم البروليتاريا ودفاعا عن الثورة ويفسر نقد خط الحزب الشيوعى تجاه أية قضية يعلن الحزب أهميتها على أنه ليس هجوما وحسب على وحدة الحزب ككل بل هجوما على أمن الدولة والثورة . وتبعاً لذلك يرتاب فى أمر أولئك الذين عبروا عن نقدهم لخط الحزب بل ويشتبه فيهم باعتبارهم عملاء مغرضين ومعاونين للثورة المضادة .

٣ - المادية الجدلية

يعد خط الحزب السياسى لمعظم الأحزاب الماركسية مجرد برنامج سياسى ولكن تبرير ذلك البرنامج وما يتعلق به من مفاهيم أوسع حول طبيعة الانسان والعالم تعد خارج بؤرة الاهتمام السياسى . ويعد كل هذا موادا للاعتقاد الخاص والشخصى تبعا لاحتياجه لها . ويعتبر لينين أول زعيم ومفكر ماركسى بعد بليخانوف الذى مهد له الطريق وحسب ، ليؤكد أن المادية الجدلية «dialectical materialism» جزء متمم ومكمل للاعتقاد الماركسى ووثيقة الارتباط أيضا ببرنامج الثورة وكما يدعى لينين ليس بمقدور من يعتنق المادية الجدلية كروية للعالم اغفال الاعتقاد بالشيوعية فى الفلسفة الاجتماعية وبالمثل النظرية الشيوعية حول الثورة الاشتراكية . وعكسيا ليس باستطاعة المراء الاتساق فى كونه شيوعيا مالم يعتنق المادية الجدلية .

تعد كل الموجودات فى العالم مترابطة وفقا للضرورة الجدلية كما تدعى هذه الفلسفة ويلزم عن هذا المبدأ أن الاعتقاد الزائف فى أى حقل ينتج حتما ان عاجلا أو آجلا فكرة زائفة حول طبيعة الواقع الاجتماعى . والأفكار الزائفة تؤدى الى أفعال خاطئة ، وبشكل خاص فى مجال السياسة . وطالما أن الحزب يعلم الحقيقة عن طبيعة المجتمع وهو القائد والموجه الاستراتيجى للنضال السياسى ، فلا يمكنه أن يبقى محايدا فى أى مجال للاعتقاد أو التفكير بل وأكثر من ذلك ، فكل حقيقة توجد وتكمن داخل جزء من النسيج الاجتماعى وكل نظام اجتماعى هو نظام طبقى وكل نظام طبقى متفصل ومشحون بالصراع . وكما يرى لينين ينبغى أن يندلع نضال الصراع الطبقي الحالى تحت قيادة الحزب

الشيوعى - واستنتج لهذا وجود عنصر تطورى evaluation
فى كل وصف للواقع وللنظرية - ولذا تختلف المادية
«وتفترق عن الموضوعية» objectivism فى ادراك «المادية»
للعلاقات الضمنية الكامنة لوجهة نظر الطبقة والحزب بكل
الحقائق فى حين انكار «الموضوعية» لها - ويكلمات أكثر
تحديدا وحسما ، يستنتج عدم وجود حقائق موضوعية
لا طبقية حول أى شئ فعال بالنسبة للانسان - ولكى تكون
موضوعية حقا ينبغى أن تظهر وتوضح الحقيقة روح الحزب
(الحزبية partinost) -

تتصف فلسفة لينين بالتناقض وعدم الاتساق الذاتى
وتعتبر زائفة بالاشارة لسلوكه الخاص - وتعد الأفكار فى
رأى لينين «صور images» للأشياء ، ولكن أفكاره الخاصة
ليست صوراً لأى شئ وجد فى الماضى أو موجودا فى الحاضر،
ولكنها خطط جسورة للعمل أو مساهمة فيما ينبغى أن
يكون - وفلسفته خليط من المادية والواقعية وبنيت على
اعتقاد خاطئ لطبيعة المنهج العلمى - وأفكاره حول الحقائق
الطبقية أو الحزبية تساير الحقائق العرقية وتحذو حذو تلك
القومية وتعد عرضة ومثار انتقادات حادة واعتراضات
خطيرة - وليس هذا مجال مناقشة عدم صلاحيتها من الوجهة
الاصطلاحية الفلسفية ولقد أصبحت كل أخطائها الضمنية
ظاهرة للعيان قيد تطبيقها بكل فداحتها فى ظل نظام
ستالين -

٤ - انتصار الارادة السياسية

بحلول عام ١٩٠٥ أصبح واضحاً للينين أن الحزب الشيوعي ليس فقط الحزب الثوري بل الحزب صانع الثورة ومازال تأكيده على الرغبة الثورية في السلطة السياسية . يقوده الاعتقاد بالمادية التاريخية . وينبغي أن يهيئ تطور الظروف الاقتصادية المسرح للعمل السياسي والا سيحدث انتكاس وتكوص لمغامرة بلانكي **Blanqui** وغوغائية **demagogism** باكونين **Bakunin** ولم يفترق لينين أبان هذه الفترة عن أولئك الماركسيين الذين أكدوا أن روسيا ناضجة ومهيئة فقط لثورة ديمقراطية من الوجهة السياسية وليست مهيئة لديكتاتورية ثورية تبدأ بثورة سياسية وتنتهي بثورة اشتراكية وذلك بسبب الظروف الاقتصادية المتخلفة . ولم يطالب لينين بأى تعاطف مع الفكرة شبه الفوضوية . **semi-anarchist** عن الثورة الاشتراكية «ان درجة التطور الاقتصادي الحالية لروسيا (الشرط الموضوعي) ودرجة الوعي الطبقي والتنظيم لمجموع البروليتاريا (الشرط الذاتي وثيق الارتباط بالشرط الموضوعي) يجعلان من المستحيل انجاز التحرر والاعتاق الفوري والكامل للطبقة العاملة» .

ويضيف لينين ، كما لو كان يزيل وينفى أى شك محتمل «كل من يحاول الوصول للاشتراكية عبر طريق غير الديمقراطية السياسية ، سيصل حتماً لنهايات ونتائج منافية للمعقول **absurd** ورجعية بالمعنى الاقتصادي والسياسي» .

ولقد أتاحت الفرصة أمام لينين لاغتصاب السلطة من نظام كيرنكسي **Kerensky** المعتدل الاحداث المتوالية للانهيـار العسكري لروسيا في الحرب العالمية الاولى وثورة فبراير ١٩١٧ ، ومجاعة مزارعي الارض . (أعلن لينين عند

وصوله من متفاه أن نظام كيرنسكى قد يعتبر أكثر التنظيم حرية في العالم ويتصف «بغيا ب وانتفاء الظلم والاضطهاد للجماهير») وبعدئذ بدأ لينين الاتجاه نحو العمل على الانتقال والتحول الاشتراكى أملا أن تلحقها وتدركها الثورات الاشتراكية فى الغرب .

ويعتبر هذا خطوة بعيدة المدى عن الموقف الماركسى الأساسى الذى أكد أن «لايفنى أى نظام اجتماعى قبل انهيار كل القوى الانتاجية التى بمثابة الحجره التى تطور داخل جدرانها» ويوجد بوضوح عديد من الحجرات لتطور القوى الانتاجية للاقتصاد الروسى عام ١٩١٧ وبالتأكيد ليس أقل مما هو متاح لاقتصاد الولايات المتحدة فى نفس العام ، والذى كان متقدما بعشرات السنين عن روسيا فى مجال التقدم الصناعى وعلى الرغم من ذلك ضاعفت روسيا قدرتها الانتاجية منذ ذلك الوقت .

فى البداية علق لينين ورفاقه هجومهم وانتزاعهم للسلطة بتفسير ماركسى زائف وادعى أنه لو أخذ الاقتصاد العالمى وتم تناوله فى مجمله سيتضح أن الرأسمالية قد استنفذت كل امكانياتها فى التوسع أو على الأقل ستتصف وتتميز بنمو وتطور اقتصادى وسياسى متفاوت . وكما يرى لينين ستنهار الرأسمالية عند «أضعف حلقاتها» والتى افترض أن روسيا هى الحلقة الأضعف للرأسمالية . واكتشف تاروتسكى Trotsky قانونا للتطور المعقد «يمكن البلدان المتخلفة من ايجاز واختزال مراحل التطور الاجتماعى وتخطى مراحل التطور الصناعى . ووجدت نظريات وثيقة الارتباط بهذا الموضوع تم تقديمها لتبرير أعمال سياسية ساهمت ظروف وبيئات معينة فى جعلها ممكنة التحقيق . وبالمثل يمكنها

تبرير الثورة الاشتراكية فى اسبانيا أو تركيا وهى مازالت
أضعف حلقات المنظومة الاشتراكية أو تبرير ثورة ١٩٠٥
الاشتراكية فى روسيا والتي أدانها لينين باعتبارها مغامرة
مضادة للماركسية ولو كانت هذه النظريات صادقة ،
ستسحب أيضا على عصر ماركس وانجلز . وطالما هم يعتقدون
أن الرأسمالية قد استنفذت كل امكانياتها فى التطور فى
عصرهم ، سيصبح تنبؤهم المبكر بوقوع الثورة الاشتراكية
فى البلدان الصناعية المتقدمة أولا تنبؤ لا معنى له ومحض
لغو فارغ . ولقد تقبل لينين وتاروتسكى باعتبارهما
ماركسيين موالين للماضى هذه التنبؤات كما بررت أو على
عواهنها .

مازال هناك كثير من النقاط الهامة ، مثل الافتراض
الأساسى بعدم وجود مجال لمزيد من التوسع للرأسمالية على
المستوى العالمى عام ١٩١٧ ، يصبح هذا الافتراض زائفا اذا
ماقيس بدلالة الانتاجية ، العمالة الربحية ، الأجور الحقيقية
والفعلية . وربما لن يكون مرغوبا أو مقبولا لتطور الرأسمالية
فى روسيا أو أى مكان آخر ولكنه لم يكن بالتأكيد شيئا
مستحيلا والشئ الحاسم والفعال ليس مجرد قوانين للتطور
الاقتصادى بل هو الارادة الملتهبة للحزب الشيوعى ابان الأزمة
الاجتماعية وعدم فعالية وكفاءة معارضى الحزب .

كان انتزاع البلاشفة للسلطة تمهيدا لمزيد من التخلي
والتنازل بعيد المدى عن الماركسية الارثوذكسية فاعتمد لينين
وتاروتسكى على قيام ثورات اشتراكية فى الغرب تمكن
الدولة الشيوعية الأممية من التخطيط لاقتصاد اشتراكى
أممى تصبح روسيا أكثر قسم متخلف فيه واذا ما أخفقت
الثورة ولم تقع ، يعد الشيوعيون أنفسهم للقيام بعمل قد

اعتبره كل الماركسيين على اختلافهم حتى الآن عملا مستحيلا، أى أن يبنوا اقتصادا اشتراكيا حتى بدون وجود الاقتصاد الضرورى والمفترض وجوده سابقا عليه . ولقد اختلفت المعايير السياسية الراديكالية هذه الافتراضات المسبقة فى مجال الصناعة والزراعة ، وفى عمليات أكثر شبيها بتشبيد وارساء أساسات جديدة لمنزل منها بعملية قطف وجنى ثمرة فاكهة ناضجة . لو أن الاشتراكية يمكن تعريفها على أنها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج أو كما عرفها لينين ذات مرة بأنها «كهربائية عالية لسلطة السوفيت electrification plus soviet power» عندئذ سينجح الشيوعيون فى مهمتهم ولكن كل نجاح لهم وحقق وفند النظرية التى من المفترض أنها تقودهم وتوجههم . وأولئك الذين أعلنوا ونصبوا أنفسهم الاتباع والتلاميذ الارثوذكس وحواريو ماركس هم الذين قدموا الدليل والبرهان الحاسم على خطأ وزيف ماركس .

٥ - ديكتاتورية الحزب

اعتنق لينين كما سبق مفهوما ديكتاتوريا لتنظيم الحزب الشيوعى . طالما أن هذا الحزب قد وصل للسلطة نتيجة للموافقة الحرة الممنوحة له من قبل الجماهير ، والتى كان ممكنا استمالتها واسترضائها بمختلف العمليات الديمقراطية أعلن لينين فى البداية أن هدف الشيوعيين هو «كل السلطة للسوفيتات all power to the soviets» المفترض أنهم يمثلون ارادة الجماهير ولكن عندما اعتقد لينين أنه ليس بإمكان الشيوعيين السيطرة على السوفيتات ، اعترف صراحة أن «كل السلطة للسوفيتات» ليس شيئا أكثر من كونها شعارا سياسيا يمكن استخدامه أو التخلي عنه تبعا لمقتضيات الاستحواز

على السلطة وأعلن في يوليو ١٩١٧ أن شعار «كل السلطة للسوفيتات» أصبح مجرد صيحة «دون (١) كيشوتية Quixotic ومحض شعار مضحك مثير للتهكم mockery ولقد وافق المؤتمر السادس للحزب الشيوعي رسميا على هذا التخلي عن الشعار وهذا التخلي يماثل الاعلان الواضح بأن الشيوعيين سيحاولون اذا ماكان ضروريا الاستيلاء على السلطة من خلف ظهر السوفيتات .

طرح لينين بعد ثورة كورنيلوف Kornilov المجهضة ضد كيرنسكي للمرة الثانية شعار «كل السلطة للسوفيتات» ثم جمده عندما رفضته الأحزاب الأخرى للطبقة العاملة والفلاحين وعاد الى طرحه فقط عندما فاز الشيوعيون بأغلبية في مجالس السوفيت بمدينة بطرسبرج St. Petersburg وموسكو Moscow واعترف تاروتسكي صراحة بأن الشعار الذي يتفذه الشيوعيون في ظله ثورتهم المسلحة يعنى فحسب «كل السلطة للسوفيتات البلشفية» .

وتبعا للنظرية السياسية الماركسية فان ما يطلق عليه «الديكتاتورية البرجوازية» الاجتماعية والاقتصادية يكون متسقا ومنسجما مع أنواع متعددة من النظم السياسية . والرأسمالية هي الرأسمالية سواء كانت في ظل الديمقراطية البرلمانية (النيابية) أو الديكتاتورية السياسية وبالمثل فان «الديكتاتورية البروليتارية» الاجتماعية والاقتصادية تكون متسقة ومنسجمة مع المؤسسات النيابية الديمقراطية أو بالمثل مع الديكتاتورية العسكرية وجليد بالملاحظة ، ورغم اعتقاد الشيوعيين بالنظرية المادية التاريخية ، الا أنه عندما

(١) دون كيشوتية شخصية خيالية في رواية حمل اسمها للأديب الأسباني سرفانتيس .
اتسم بالخيال الجامح وتجسيد الوهم وافتعال البطولات الوهمية في منازلات طواحين الهواء-
وانخذ كرمز شائع للإشارة لادعاء البطولة الوهمية (المترجم) .

تفتقد البلدان الرأسمالية ديمقراطياتها وتسقط تحت براثن الديكتاتوريات السياسية ، لايعتبر الشيوعيون ذلك السقوط والتحول نتيجة حتمية للتطور الاقتصادي بل يعتبرونه نتيجة الضعف السياسى أو الخيانة من جانب الديمقراطيين .

لماذا ، اذن ينبغى «لديكتاتورية البروليتاريا» الاجتماعية والاقتصادية أن تتخذ شكلا سياسيا ديكتاتوريا مبنيا على العنف «وحكم القوة الذى لايكبحه قانون» ؟ ولم يقدم لينين أو أى مفكر شيوعى آخر أى تحليل وتفسير فى اطار نظريتهم الماركسية فيما عدا تذرعهم باحتمال حدوث ثورة مضادة للاشتراكية من جانب أولئك الذين لم ينعموا بثمارها . ومايفرضه هذا الاحتمال من ضرورة الدفاع عن الاشتراكية . ويتفق هذا مع عملية تبرير اعدام شخص برىء لم يرتكب أى عمل غير قانونى فى الوقت الحاضر بحجة أنه قد يرتكب اثما وعملا مجرما قانونا فى أى وقت مستقبلا .

(النص رقم ١٤ د)

والتفسير الأكثر اقناعا هو ماتفترضه ضرورات الاستيلاء على السلطة بدلا من كسبها ديمقراطيا ورغم اتقان دلالة الألفاظ وتوظيف مصطلحاتها مثل «القيادة» الديكتاتورية «الديمقراطية» الا أن لينين لم يعتبر حكم الأغلبية شرطا ضروريا للديمقراطية كما تصورها هو حيث يعلن أن «لو فازت البروليتاريا بأغلبية الشعب ينبغى أن تتخلص أولا من البرجوازيين وتستولى على سلطات الدولة» .

والبروليتاريا التى يتحدث لينين باسمها صراحة لاتشكل أغلبية الجماهير بل لاتشكل أغلبية العمال فهى تتشكل من أولئك الذين يؤيدون برنامج الحزب الشيوعى . وتظل «البروليتاريا المنتصرة» أقلية بين جماهير العمال أنفسهم حتى

عندما تستولى على السلطة عندئذ فقط يقول لينين انه بإمكانها كسب تعاطف وتأييد أغلبية جماهير العمال حتى غير البروليتاريين . وباختصار ، يستولى الحزب الشيوعى فى البداية على السلطة ، ويجاهد عندئذ لكسب تأييد أغلبية العمال ، وتأييد ومساندة أغلبية الجماهير فى النهاية . وطالما أنه هو الذى يقوم بإحصاء الأصوات بمفرده ، ويدير الصحف ويسيطر على الشرطة ، ويقرر الأوضاع التى تحدد تأييد الأغلبية .

ومن الواضح أن ديكتاتورية البروليتاريا «لا تعنى شيئا أكثر من ديكتاتورية أقلية الحزب الشيوعى وهيمنتها على البروليتاريا ، بمثل ما هى على كل الطبقات الأخرى . وازدري لينين أولئك الذين وضعوا ديكتاتورية الحزب فى مواجهة «ديكتاتورية الطبقة» لانه بحسب تعريف لينين يعتبر الحزب فى علاقته بالطبقة ، كعلاقة الأب بابنه ، ويعرف ما هو الأفضل لصالح العمال ودائما يفعل الأفضل لهم وحتى فى حالة عدم معرفتهم بذلك مثل الأطفال .

ليس كل الآباء يعلمون ويمملون لصالح أبنائهم وحتى أولئك الذين يقومون بذلك ، لا يتوقعون الاحتفاظ بأطفالهم تحت الوصاية الدائمة وقيوما ما سيشب الأبناء عن الطوق وانصافا للينين ينبغى ملاحظة أنه يعتقد بأن العمال يوما ما سينضجون ويشبون عن الطوق وهذا اليوم البعيد سيكون متسما بالفناء النهائى للدولة والحزب والشرطة ، وحتى مجيء ذلك اليوم يتحكم الحزب الشيوعى بشكل مطلق فى الدولة ومن خلالها فى أقدار ومستقبل العمال وهذا هو السبب فى اعتراف لينين المتكرر بأن ديكتاتورية البروليتاريا هى «أساسا» ديكتاتورية الحزب . وقبل قيام الحزب الشيوعى

بدور مهيمن على الحياة السوفيتية ككل وعلى الثقافة والذي تجسد فى دستور ستالين عام ١٩٣٦ ، أعلن لينين «فى الاتحاد السوفيتى ، حيثما تكون ديكتاتورية البروليتاريا نافذة المفعول لايمكن تقرير أية مسائل سياسية هامة أو تنظيمية من قبل مجالس السوفيتات أو أى منظمات جماهيرية بدون توجيهات من الحزب» .

ولقد تأكد وتجسد مفهوم ممارسة ديكتاتورية الحزب على البروليتاريا من خلال مجمل تاريخ الاتحاد السوفيتى والذي اتسم بغرق مطلق لكل التقاليد الديمقراطية للماركسية . ويستتبع ذلك بالاضافة لوجهة نظر لينين حول الطبيعة الداخلية للحزب وتحريم كل الأحزاب السياسية الأخرى للطبقة العاملة ، والجماعات المنشقة داخل الحزب ، يؤدى ذلك لديكتاتورية قيادة الحزب وممارستها على الحزب نفسه ، والاطار المروع للحكم الشمولى totalitarian على المجتمع ككل .

٦ - من الانشقاق الى التآمر

فى مرحلة مبكرة من حياته الفكرية ، عندما كان لينين يتعامل بانطلاق وتحرر فى اطار التقاليد الماركسية ، غالبا ماكتب كما لو كانت آراؤه ينبغى فهمها وكأنها مقصورة التطبيق على روسيا وعلى سبيل المثال تقريره للحالة الاستثنائية للبلدان المتخلفة ثقافيا والراخسة تحت نير الاستبداد السياسى . ولكن بعد ابتعاده عن التراث الديمقراطى الأساسى للماركسية وتخليه عنه ، أصر لينين على مواعمة وصلاحيه نظرياته الأساسية للتطبيق العالمى . واعتبر قبول هذه النظريات شرطا للانضمام للدولة

الشيوعية الثالثة والتي أحد مهامها تقرير مدى دراسة وتطبيق هذه النظريات في كل البلدان . ولقد شجبت « الاستثنائية » expctionalism باعتبارها انحرافا سياسيا من الدرجة الأولى .

وحيث ان الهدف النهائي لكل الأحزاب الشيوعية وفقا لنظرية لينين هو الاستيلاء على السلطة وممارسة ديكتاتورية الحزب ، ينبغي اتخاذ وسائل على نفس المستوى من الكفاءة لتأكيد النصر . وينبغي تبؤ المواقع الاستراتيجية في المنظمات الجماهيرية للفوز بها . والتسلل الى المواقع الرئيسية في نقابات العمال ، والتعاونيات ، وينبغي تخطيط مجموعات المواطنين بمهارة وخاصة في الأماكن الحساسة . وينبغي اعداد وتأهيل المتطافين والأنتصار المؤيدين وصقلهم لكي يظهروا للعدو وجها خادعا . يل وينبغي استثمار القضايا الجماهيرية لاشعال عدم الرضا بالموقف الراهن وتحويله وتصعيده لحالة من العداء العنيف . وينبغي عزل الاشتراكيين النديمقراطيين وادانتهم باعتبارهم العدو الرئيسى للطبقة العاملة . ويلزم بناء القوة المتعاظمة الضاربة بالتدريج ووضعها على آهبة الاستعداد حتى يأتى الوقت الملائم والعمل والحركة . وينبغي فى حدود الممكن، استخدام الأشكال الشرعية لأقصى مدى وفى نفس الوقت ، -ينبغي تأسيس وتكوين مجموعات المحترفين الثوريين الخلفاء الأشداء فى شكل سرى تحت الأرض . وينبغي تشكيل مجموعات وخلايا الشيوعيين فى كل المنظمات والتنظيمات بلا استثناء (سياسية صناعية ، عسكرية ، تعاونية ، تعليمية، رياضية) وفى الأساس المجموعات العلنية والاضافة للمجموعات والخلايا السرية» .

ولقد أكد لينين على الوصية التالية خشية أن يؤول الشيوعيون فى البلاد الديمقراطية آراءه السابقة بحيث تلائم فقط البلاد التى تفتقر لوثيقة اعلان حقوق الانسان ولا تسمح بأية معارضة شرعية ، ويقول لينين فى وصيته «فى كل البلاد حتى تلك الحرة فان مصطلح «الشرعى» والسلمى بمعنى أن الصراع الطبقي أقل خطورة وحدة بها، سينضج الزمن الصراع بها كلية بحيث يصبح من الضرورى على كل حزب شيوعى أن يوحد ويدمج العمل الشرعى بذلك غير الشرعى ، والمنظمات الشرعية والأخرى غير الشرعية» .

طلما أن الخطوة النهائية فى عملية انتزاع السلطة تقتضى عملا ثوريا مسلحا ، وحيث أن الأدوات الدفاعية للمجتمع القوائم ربما تكتشف ما قد يحدث ويدور ، نصح لينين الشيوعيين بأهمية العمل السرى غير الشرعى وبشكل خاص فى صفوف الجيش البحرية والبوليس وبضرورته) وأولى تأكيدا راسخا على ضرورة المنظمات المساعدة لتوظيف كأدوات نقل وبث لتأثير الحزب .

هذا التحول الحاد للحركة الاشتراكية من كونها حركة ابتداعية (هرطقية) heretical وذات نشاط علنى الى حركة سياسية تأمرية يشكل مصدر اهتمام وقلق لأوروبا الغربية وأمريكا ويمكن قياس المسافة بين هذين النوعين للحركة بمقابلة ومقارنة سلوك الثوار فى عصر ماركس والذين جاھروا بأهدافهم صراحة وأعلنوها بشرف وصدق بصرف النظر عما يتكبدونه فى سبيلها ، بسلوك الشيوعيين فى عصر لينين الذى اتسم بالتحايل والخداع والتهرب ، فلقد طوروا تقنيات وأسلوب استخدام الحريات الممنوحة لهم فى اطار فنى رائع لتدمير هذه الحريات للأبد .

وادراك ومعرفة سيكولوجية الشيوعيين المتآمرين يتطلب الماماً ومعرفة بأيديولوجيتهم (نظريتهم) ففي البداية على الأقل، لم يكن لديهم أى منطلق اجرامى ، ولكنهم استلهموا عزيومتهم الراسخة من تعصبهم للقيام بعمل معين خيل اليهم أنه من الأعمال التاريخية . ولم يعنوا كثيراً بالحياة الانسانية لانهم أعدوا للتضحية بحياتهم اذا ماتطلب ذلك . ولم تحركهم نزعة الرحمة والشفقة الانسانية ، لانهم اعتبروها علامة ضعف ونفاق مثل نزعة السلام والمسالمة الفطرية ولم يتأثروا بحب الوطن لأنه فى نظرهم الحقيقى مفارقة تاريخية . ولان الاتحاد السوفيتى هو وطنهم الحقيقى والذى اختاروه بارادتهم . ونادرا ، ما يحركهم الاقناع والدليل العقلى ، لأن عقولهم قلبت وصبت فى القالب الثلاثى الأضلاع للعقيدة الماركسية اللينينية - الستالينية (١) والتي تتيح لهم بديلا بالايمان القطعى للانتصار على التجربة . وسرعان ما يفسد ويشوه الاعجاب الأولى بالشيوعية والرغبة المقدسة لتقليص الظلم الاجتماعى والمحن الانسانية ، وذلك عن طريق تلك الوسائل التى يستخدمونها . وتعد قدرتهم على التضحية الشاملة المدعومة باعتقادهم فى الحلول النهائية مصدرا ومنبعا لصلابتهم وتماسكهم وبالمثل خطرهم .

٧ - النزعة اللاأخلاقية

احدى المصاعب البارزة فى معظم الصيغ الماركسية هى عدم قدرتها على شرح السلوك الفعلى للماركسيين وتفسير

(١) اسقط مسار تطور الأحداث على صعيد الكتلة الشيوعية السالينية بعد اذانها امام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى لتصبح الماركسة اللينينية ، ولتتبعها اضافات وانتقادات وانقسامات على صعيد العالم الشيوعى (اللاوية - التيتاوية ، الشيوعية الاوروبية : ايطاليا اسبانيا فرنسا) (المترجم) .

الدور الذى تلعبه الأفكار والقيم فى التجربة الانسانية .
فقد يصاغ البشر ويعاد تشكيلهم أحيانا من خلال رؤية أى
مثال أو هدف وبطريقة مختلفة تماما عما يمكن توقعه لهم
من خلال تربيتهم وبيئتهم . وبعض الرؤى تقوى وتزيد حدة
القوة الطبيعية للاستعداد والقدرة على التمييز بين الواقع
والمأمول لكى تتمكن من ادراك بدائل الفعل ، ولكى تقدر
القيمة والشروط الأخلاقية للاختيار من هذه البدائل
والبعض الآخر قد يعمى ويحجب عن الفرد الاختلافات بين
الزام الوجود والزام الإرادة الحرة وليتابع عندئذ طريقه
متغافلا عن تعدد وتنوع الطرق المفتوحة أمامه .

وتعد رؤية لينين الماركسية التى لم توجهه وتقوده
بالفعل وفى الواقع لتحديد حركته السياسية بل حجبت عنه
الاختلافات بين القوى المحركة للنتاج وتلك التى تقود وتوجه
إرادته بل وساهم اعتقاده كماركسى يمتلك المفاتيح الأكيدة
للمستقبل فى اخفاء حقيقة أنه يختار فعليا بين الممكنات
التاريخية ولايقوم بتنفيذ الضرورات التاريخية ، وحجب
هذا الاعتقاد تلك الحقيقة عن لينين ورفاقه . فهو يقوم بإعادة
صياغة وتشكيل التاريخ وليس اتباع قوانينه المزعومة .
وفيما يتعلق بغايتهم وهدفهم الرسمى فإن ذلك يجعل مجمل
الأفعال وأعمال أولئك الماركسيين اللينيين غير مفهومة طالما
أنهم يعتقدون فى ضرورة حدوث الحتمية التاريخية من خلال
جهدهم الخاص بل ويفرغ جهودهم من المضمون لتصبح
بلا معنى ومجرد هراء ، ولايمكن تناولها وفهمها فى ضوء
الأفكار الاشتراكية . وطالما أن التاريخ هو الذى يقرر الغاية
النهائية ويحدد النتيجة من خلال قانون الصراع الطبقي ،
فإن أية وسائل وأى منهج يكون مسوغا ومبررا ومسموحا به
لو كان ناجحا . وذلك لامكانية ادعاء أنه مستنبط ومستنتج

من قانون الصراع الطبقي . وبالتالي يمكن تجاهل الأعباء
التي تتكبدها البشرية . بضمير مستريح باعتبارها ثمنا
وضريبة للتاريخ وليس كشيء فرضه اللينينيون على البشرية .
ويسفك دم المسؤولية الأخلاقية كقربان عند مذبح الحتمية
التاريخية .

ظهرت هذه النزعة اللا أخلاقية amoralism فى الغالب
عند مستهل سيرة لينين كمارسى . ففى احدى كتاباته النقدية
المبكرة للاشتراكيين الشعبيين populist الذين أكدوا على
الاعتبارات الأخلاقية ، كتب لينين «لايستطيع المرء انكار
صدق وانصاف ملاحظة سومبارت sombart بأن الماركسية ذاتها
تخلو من أية بذور أخلاقية من الالف الى الياء فهى تجعل
«النظرة الأخلاقية» تابعة لـ «مبدأ السببية» من الناحية
النظرية وترجعها وتهبط بها لاتون الصراع الطبقي ، وذلك
من الوجهة العملية» .

حاول لينين الدفاع عن المفهوم الشيوعى الأخلاقى بعد
تعرضه للاتهامات الموجهة ضده من الضحايا الأبرياء للعنف
والارهاب الشيوعى . وأدان ورفض مفهوم الانسان على
«السوبرمان» والمفاهيم الأخلاقية فوق الطبيعية ، لكن بدلا
من تأكيده على الأخلاق الانسانية أعلن صراحة «نحن نقول
بتبعية أخلاقنا كلية لمصالح النضال الطبقي للبروليتاريا . .
فبالنسبة للشيوعيين تتشكل الأخلاق ككل من التزام وانضباط
صارم متحد ووعى جمعى يناضل ضد المستغلين» .

(يراجع النصر رقم ١٤ ب)

تكنم الأخلاق اذن فى استخدام آية وسائل - حرفيا أى
وسائل ستنتج فى المعركة طالما أن النجاح يعتمد على اتباع
قيادة الحزب الشيوعى ، ومعك وبوتقة اختبار الاخلاق هو

السلوك الذى يزيد قوة وفاعلية الحزب - فلا يوجد أى معيار رئيسى واضح يحدد سلوك الشيوعيين وليس هذا استنتاجا تأمليا ، بل استقراء لخلاصة ممارسات الشيوعيين سواء كانت هذه الممارسات لدولة أو لمدرسة ، وسواء كان فى ممارسات المنظمات الجماهيرية ، أو ممارسات المسؤولين ، فيتوقع دائما من الشيوعيين وخلاياهم ووحداتهم الأساسية أن تتابع تعليمات لينين بشق طريقها لاختراق نقابات العمال وبذل الجهد الدءوب لازاحتهم والاستيلاء على مواقعهم - وينبغى عليهم أن يصمدوا فى وجه كل المحاولات لازالتهم «وتقبل كل تضحية ، وعند الضرورة ، عليهم أن يلجأوا لكل أنواع الخداع ، والمراوغة ، والوسائل غير الشرعية للتحايل والتملص والتذرع .. حتى يظلوا باقين فى هذه النقابات ، وليقوموا بتنفيذ العمل الشيوعى فيها بأية تكلفة» -

(النص رقم ١٤ ت)

٨ - المخادعة والتضليل Illusionsm

ذكر لينين أن الهدف النهائى للشيوعيين هو انتزاع السلطة السياسية ، ماهو الا وسيلة للاعتاق والتحرير الكلى والهدف المقدس للمجتمع اللاطبقى - ولكنه لم يدرك التواصل والترابط بين الغايات والوسائل-، وان كلماتنا لاتشكل ولا تصيغ المستقبل بحديثها عن الأهداف بل أفعالنا هى التى تقرر شكل المستقبل يوميا - ويرجع فشل لينين فى ربط وسائله بالهدف الشيوعى ، فى جانب منه الى غموض واياهام رؤيته لهذا الهدف - ومن حق المرء توقع فكرة واضحة عن طبيعة ذلك المجتمع الذى جاهد لينين من أجله واستعد لتدمير

حياة الكثيرين بل وحياته هو فى سبيله • ولكن المرء يبحث دون جدوى فى كتابات لينين عن نموذج واضح لهذا المجتمع الشيوعى الذى يتميز ويفترق عن تلك المرحلة الانتقالية التى تعقب الاطاحة بالرأسمالية ويتابع لينين ماركس ويحذو حذوه فى وصفه لانجازات كوميونة باريس مؤكدا على تحقيق المساواة فى الأجر المدفوع والاقتراع المباشر وحق العمال فى اقالة الموظفين الحكوميين • وسنجد هنا أن وسائله قد أحبطت هدفه المزعوم ، حيث ان الوسائل التى انتزع بها لينين السلطة جعلت كل موظفى الحكومة مجرد دمية وألعوبة للحزب الشيوعى وغير مسئولين بأية طريقة أمام العمال • بل ان المساواة فى الأجر والتى تحققت أوليا عقب ثورة أكتوبر قد ألغيت لتكون حافزا انتاجيا • وطالما أن حق العمل والمصوّل على لقمة العيش قد أنكرت على كل المعارضين والمنافسين للنظام ، فان مبدأ المساواة فى الأجر حتى لو لم يلغ ، سيكون له تطبيق محدود جدا •

قدر اهتمامنا بأفكار لينين حول المجتمع اللاتطبقى للشيوعية ، خاصة فيما يتعلق بما سيحل محل الدولة ، قدر ماتكشف مناقشة أفكاره هذه عن تبسيط مروع • فالمجتمع الشيوعى مجتمع مخطط يصبح الانتاج فيه اشتراكيا تماما • وسيعمل الأفراد وفقا لميولهم وقدراتهم ويتم مكافأتهم وفقا لاحتياجاتهم • ستختفى الدولة المكونة من هيئات خاصة من رجال مسلحين أو مؤسسات ردع وعقاب فكيف عندئذ سيتم حل وتسوية الصراعات والنزاعات بين الناس فى غيبة المحاكم ، والشرطة ، أو الأدوات الأخرى للدولة ؟ لو اكتسب البشر طبيعة ملائكية فى ظل الشيوعية ، فلن يكون هناك أى احتمال لحدوث صراع ، رغم أنه ستوجد اشاعات عن حدوث

صراع حتى فى السماء كما تفترض أسطورة ابليس -
بالإضافة للعصيان الذى حدث فى جنات عدن اللاتطبيقية !!

كان لينين واقعياً بدرجة كافية ليعترف بأنه حتى فى ظل الشيوعية ستحدث «تجاوزات» excesses كما أطلق هو على جرائم العنف - ولكن فى غياب الدولة فإن نشوب العنف والذى سيكون فقط أحد ضروب طائفة بأكملها للصراعات الممكنة تصورها والجرائم المتوقعة والتي سيتم تسويتها بنفس الطريقة التى يسوى بها الجمهور اليوم «التجاوزات» ويخبرنا لينين بأن «هذا سيتم فعله بالناس المسلحين أنفسهم وببساطة عن طيب خاطر كما تفعل أية مجموعة من الناس المتحضرين حتى فى أى مجتمع متحضر عندما يقومون بتفريق وفض تقاتل شخصين أو لا يسمحون باغتصاب امرأة واهانتها» وفى كلمات أخرى ، سيقام العدل فوراً وفى التو - ولهذا سيتم إحلال قوانين جديدة محل قوانين الدولة ، كما أن جيمس مارشال James Marshall كان أول من طاله قانون الاعدام بدون محاكمة lynch law فلو أن الجريمة قد ارتكبت ينبغى أن تستبق البحث الهادئ عن الدليل ، والعمليات المعتادة للقبض على المتهم ، وقرار الاتهام ، ثم الادانة والعقاب كل من هذه الاجراءات يتطلب أجهزة خاصة للدولة - ويؤكد إقامة العدالة للجماهير المسلحة - ولهذا ، ليس مدهشاً أن لينين قبل غروب شمس حياته تنبأ وبثقة أن الدولة ليست هى فقط التى ستتلاشى وتندوى فى ظل الشيوعية بل «التجاوزات» أيضاً «ستبدأ حتماً فى التلاشى» وفى النهاية ربما يظل الناس مسلحين فى ظل الشيوعية ولكنهم سيكتسبون نزعات ملائكية تحول دون ارتكاب تجاوزات ضد بعضهم البعض وضد المجتمع -

لقد استبدت بلينين فكرة الاستيلاء على السلطة السياسية والاحتفاظ بها لدرجة أن الأهداف والغايات الاشتراكية لم تعد مبادئ ومعايير للتقييم والحكم بل أصبحت ذات دلالة طقوسية . ولقد عرف سانتيانا Santayana الشخص المتعصب بأنه ذلك الشخص الذى فقد وتناسى هدفه، ويظل يكرر جهوده وبهذا المعنى يصبح لينين واحدا من أكثر المتعصبين فى التاريخ خداعا وتضليلا لذواتهم .

الفصل السادس

ليون تاروتسكى فى سبيل الدفاع

سيكون من غير الانصاف اختتام هذا النقد بدون مناقشة الدفاع البليغ الذى قدمه ليون تاروتسكى Leon Trotsky (١٨٧٩ - ١٩٤٠) عن الرؤية اللينينية للماركسية ويمكن اعتبار تاروتسكى بمعنى ما مؤلف هذه الرؤية مثله مثل لينين ذاته . فلقد ظل تاروتسكى ناقدا للبلشفية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وبالأخص ناقدا لنظرية لينين التنظيمية وتطبيقها وقدم فى الوقت ذاته ، قبل لينين بوقت كبير ، نظرية الثورة الدائمة permanent revolution والتى وفقا لها ، ستمج روسيا ثورتها الديمقراطية ضد الاتوقراطية القيصرية شبه الاقطاعية semi-feudal وتوحيدها مع ثورتها ضد الرأسمالية برغم تخلف روسيا الاقتصادى . وبالتالى فان اقامة ديكتاتورية البروليتاريا سيكون مقدمة للثورة الاشتراكية العالمية ، أو على الأقل ، الثورة الاشتراكية الاوروبية . وبحلول أكتوبر ١٩١٧ ، كان تاروتسكى قد تقبل مع بعض التحفظات نظرية لينين التنظيمية ، بينما أقر لينين وأيد رؤية تاروتسكى حول الثورة الاشتراكية العالمية التى ستندلع بمجرد تقلد الشيوعيين صولجان السلطة فى روسيا .

اتسم ليون تاروتسكى بتمدد المواهب ومجالات

انجازاته • كرجل عسكرى ، كاتب داعية ، مؤرخ ، ناقد ومفكر سياسى ويبرر ذلك تعريفه باعتباره ليوناردو دافنشى Leonardo Davinci البلاشفة • وبسبب ضيق المجال ولعدم تميز مكانته جوهريا عن لينين ، سنتناول فقط باختصار تأويله للتاريخ ودفاعه عن الأخلاق الشيوعية •

١ - نظرية التاريخ

عبر تاروتسكى عن دفاعه حول ثورة أكتوبر البلشفية فى العديد من كتاباته ولكن ليس بالبراعة التى فى عمله البارز تاريخ الثورة الروسية • والذى يعد تفسيرا مؤيدا ومنحازا لها صراحة ورغم ذلك يتضمن دلائل تجريبية كافية لتجعل قناعات تاروتسكى الرئيسية موضع شك • وكما اتضح لنا ، وأكد لينين وتاروتسكى ليس ثمة شئ غير ماركسى فى عملية الاستيلاء على السلطة فى بلد متخلف فبسبب الطابع الخاص والمتخلف للرأسمالية الروسية • والتى حولت الفلاحين الجهلاء الأميين ووضعت فى متناول أيديهم المارد الصناعى بين عشية وضحاها - وأيضا بسبب انهيار الرأسمالية العالمية ككل • ولم يخفوا فى نشاطهم وحركتهم السياسية ، سر اعتقادهم بأن الثورة لاتعتمد كثيرا على تعقد القوى الاجتماعية والاقتصادية بل تعتمد على شخصية الحزب الشيوعى وقراره • ولكن كلما اعتمد البلاشفة • وعولوا على ارادتهم وانتهازيتهم السياسية كلما تزايد تأكيدهم واصرارهم بأن ثورة أكتوبر كانت حتمية ، وتستمد حتميتها فى النهاية من طابع نمط الانتاج الاقتصادى القائم • وغالبا مايتحدث تاروتسكى مفعما بتوهج صوفى «ان مايميز الثورات العظيمة هو تقريبا اتباع القوانين الطبيعية

والانصياع لها» ومع ذلك ، وكما يوضح تاريخه للثورة الروسية ، ويكشف عن تهتك وتمزق نسيج الضرورة التاريخية فى متن تحليله وهى محاكاة بخيوط هزيلة وغير كافية من المصادفات التاريخية أكثر مما يقوم به تفسيره الجبرى -

هكذا ، يبدو أن تاروتسكى يوافق على ادعاء لينين بأن «نجاح الثورة الروسية والثورة العالمية يعتمد على نضال يومين أو ثلاثة» وذلك قبيل تنفيذ البلاشفة وقيامهم بانقلابهم ولذا سيكون من جموح الخيال التأكيد على حتمية نجاح هذا النضال ، أو انه قد تقرر من خلال طابع نمط الانتاج الاقتصادى سواء من اللحظة الأولى أو الأخيرة، أيا كان ماتعنيه اللحظة الأخيرة من معنى فلقد تقرر نجاح هذا النضال بالقيادة الثورية لكل من لينين وتاروتسكى معا ولقد قدم تاروتسكى رغما عنه دليلا تاريخيا مفصلا بأن لينين قد لعب دورا أكثر قوة وفاعلية من أية قوة أخرى فى احداث وقيام ثورة أكتوبر ، ووجود لينين فى هذا الوقت المحدد لم تقرر الظروف والقوى الاجتماعية ، بل وفوق ذلك فلم يكن بإمكان أى شخص آخر وحتى تاروتسكى نفسه أن يؤدى دور لينين - ونفس الشيء فى محاولة اظهار صعوبة تجنب انهيار روسيا القيصرية طالما أن الأمر لا يتطلب أية صفات خاصة كالارادة، الذكاء ، أو القيادة لاحداث هذا الانهيار - ولكن الأمر جد مختلف بادعاء أن ثورة أكتوبر بالمثل كان لايمكن تجنبها أو الهروب منها - وفى التاريخ تقرر القوى الاجتماعية الموضوعية وتحدد ماقد يحدث وأحيانا ما لا يحدث ولكنها فى النادر تقرر ماينبغى أن يحدث ، مالم يوضع فى الاعتبار الجهد الانسانى بأبعاده البطولية لقوى اجتماعية وكان لدينا فى الحالة الأخيرة تلك النتيجة غير الواضحة بأن مجمل القوى

الاجتماعية فى لحظة معينة تقرر وتحدد القوى الاجتماعية
ككل فى اللحظة التالية .

يوجد فى كل كتابات تاروتسكى التاريخية الرئيسية
صراع ملحوظ بين استنتاجاته التجريبية واختياراته السياسية
من جانب وايمانه المتقدم بالنظرية الماركسية الارثوذكسية من
جانب آخر ففى كتابه التالى خيانة الثورة *the revolution*
betrayed بحث عن أسباب فشل الثورة الروسية فى تحقيق
أهدافها الأصلية . ووصف فى مجال تلو الآخر المواقف التى
اتخذ فيها البديل الخاطىء دائما . ويعد هذا الأمر هاما
وضروريا لأطروحته ، حيث أنه فى غياب البدائل الممكنة
للفعل الاجتماعى لن يكون لكلمة خيانة أى معنى وعلى سبيل
المثال ، لو لم يكن بإمكان الاشتراكيين معارضة الحرب العالمية
الأولى ، لن يصبح لاتهامهم بخيانة الاشتراكية أى معنى ولو لم
يكن هناك بديل متاح أمام ستالين ، فلن يكون بمقدوره خيانة
الثورة ورغم ذلك قدم تاروتسكى تفسيرا ماركسيا لقضية
الخيانة . فلقد أدى إليها نشوء البيروقراطية *bureaucracy*
«الكفل الثقيل للبيروقراطية قد أثقل رأس الثورة» ولقد كان
نشوء البيروقراطية بدوره نتاجا لا مفر منه لتخلف قوى
الانتاج فى الاتحاد السوفيتى . حقا انها لضرورة ملحة
وصلدة ، أن تنبثق وتظهر البيروقراطية فى ظل مثل هذه
الظروف الاقتصادية . وهكذا سحب تاروتسكى البساط من
تحت أقدام عريضة اتهامه فتبعاً لرأيه ليست ثورة أكتوبر
فقط هى الحتمية بل أيضا خيانة الثورة كانت حتمية وإذا
مافشلت الثورة ولم تقع فى الغرب ، سيصبح ذلك بالمثل حتميا
ومع ذلك لم يظهر دليله الخاص ولم يوضح أن ثورة أكتوبر
كانت حتمية ولا حتى تطوراتها اللاحقة .

٢ - الغايات والوسائل

أخذ تاروتسكى على عاتقه المهمة الصعبة فى الرد على تلك الاتهامات الموجهة للبلاشفة بالنزعة اللاأخلاقية من جانب الاشتراكيين والليبراليين ، وذلك بعد نفيه وقبيل اغتياله بأيدى أحد عملاء ستالين بوقت قصير ورغم أن تاروتسكى ذاته أصبح ضحية للارهاب الشيوعى البلشفى والذى يعتبر هو مسئولا عنه كأي شخص آخر ، فلقد دافع باصرار عن نظام الارهاب فى بحثه الموجز «أخلاقهم وأخلاقنا» متضمنا الدفاع عن أسر الرهائن وقتلهم ، الإبادة الجماعية للبحارة الكروتستادات Kronstadt بعد استسلامهم وتصفية البوليس السرى وبدون ذكر اسم جون ديوى (١) صراحة فان هذا الكتيب الدعائى كان موجها ضده حيث كان يرأس اللجنة الدولية لتقصى حقائق محاكمات موسكو ولقد برأت اللجنة تاروتسكى من الاتهامات الموجهة ضده ولكن بناء على بحث وتقصى جون ديوى أكد أن شرعية هذه الاتهامات توجه منطقيا وتلزم عن الفلسفة الأساسية للبلشفية اللينينية .

عودا على بدء أقر تاروتسكى الموقف الذى دافع عنه فى حقبة مبكرة ولكن مع بعض الايضاحات الجديدة ، فى كتابه المعنون بـ الارهاب والشيوعية والذى وضعه ردا على كاوتسكى ويرتكز دفاع تاوتسكى على افتراضين الأول أن البديل الوحيد للأخلاق البلشفية هو أخلاق مطلقة فوق طبيعية super natural والتي وفقا لها تعد بعض الأفعال صحيحة أو خاطئة ضمنيا وذاتيا ومستقلة عن الزمان ، المكان ، الطبيعة

(١) جون ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٢) فيلسوف أمريكى ارتبط بالفلسفة البرجماتية ويعرف مذهبه بفلسفة الذرائع وله مؤلفات فى التربية وعلم النفس والسياسة ، ترأس لجنة التحقيق فى اتهام تاروتسكى ومحاكمته بموسكو عام ١٩٣٧ (المترجم) .

البشرية ، والمجتمع • ويبرهن تاروتسكى أنه ينبغي على أولئك الذين ينتقدون الأخلاق البلشفية ، الايمان بأن كل عنف خاطيء ، فليس من الصواب مطلقا أن تقتل وأولئك الذين يعارضون المخادعة البلشفية ينبغي أن يؤمنوا ليس من الصواب مطلقا التفوه والتحدث بغير الحقيقة ، وينبغي دائما اعلان الحقيقة أيا كانت النتائج وهذه هي مواقف كل من كاوتسكى وكانط Kant ومن السهل اثبات أن هذه الأخلاق المطلقة أيا كانت اما أنها متناقضة ذاتيا أو لايمكن تصورها أو تعلقها • فلو أن شخصا يرفض قتل أى شخص تحت أى ظروف ، عندئذ لو كان بمقدورنا قتل مجرم على وشك قتل أناس آخرين ، ولو أن قتله هو السبيل الوحيد لمنعه من ارتكاب جرمه . عندئذ يكون رفض القيام بقتل هذا المجرم ليس فقط تواطؤا أخلاقيا وتحريضا على موت ضحاياه بل يضاعف عدد أولئك الذين يقتلون • ولهذا يعد دفاع تاروتسكى عن الارهاب مبررا أخلاقيا لانه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأهداف والغايات الاشتراكية التى هى الغايات الاخلاقية الاسمى للانسان •

والافتراض الثانى فى برهان تاروتسكى ودفاعه عن الارهاب البلشفى ، هو أن السلوك الانسانى فى المجتمع يتحدد من خلال قانون مثل سلوك باقى الموجودات ، والقانون الاجتماعى الذى يحدد السلوك الانسانى بصرامة هو قانون الصراع الطبقي • وماهو مباح وجائر أخلاقيا يشترك فى النهاية من القانون الحتمى للصراع الطبقي وليس من الصعب اظهار زيف هذا الافتراض وعلى الأقل تعارضه مع الافتراض الثانى • فالبدل لوجهة النظر الأخلاقية البلشفية ليست أخلاقا مطلقة فوق طبيعية • وربما يكون المرء طبيعيا ، نسبيا ، انسانيا وفى نفس الوقت يرفض مبادئ الأخلاق

البلاشفية ، مثلما فعل جون ديوى فى نقده المذهب ولكنه مدمر لموقف تاروتسكى . والأخلاق الانسانية هى مايدركه المرء من تعدد الغايات الانسانية . وهى تبرر أى فعل معين باظهار أن الوسائل المستخدمة لتحقيق نتائج خاصة تحققها بشكل أكثر فعالية من أى بديل ممكن . طالما أن الغايات غالبا ماتتصارع ، ويكون من الضرورى أحيانا استبعاد احداها لصالح مجموعة من الغايات الأخرى التى يتم قبولها واقرارها بعد تفكير وروية . فالصدق وسلامة الطوية كلاهما غايات مقبولة ومرغوب فيها ، ولكن قلائل هم الذين يرفضونها ، وكما قال كانط Kant انه سيرتكب قول الكذب غير الضار لانقاذ حياة طفل من مجرم مهووس . وخلاصة القول لو لم يكن المرء ذا أخلاق مطلقة لن يكون لديه أى أساس لادانة البلاشفة ، وبذلك يكون تاروتسكى قد ترك المسألة دون حسم .

المواجهة والمناظرة الأخلاقية ضد الارهاب البلاشفى تكمن فى اظهار نتائج وسائل الارهاب التى تتناقض مع الغايات الاشتراكية التى أقروها ولكن ماهى هذه الغايات ؟؟ يؤكد تاروتسكى أنها «زيادة سيطرة وهيمنة الانسان على الطبيعة واضعاف سيطرة الانسان «فهل الوسائل التى استخدمها البلاشفة - الديكتاتورية التصفية الجسدية الارهاب الثقافى - كانت ضرورية لتحقيق هذه الغايات ؟؟ كانت نتيجة استخدام هذه الوسائل تبدو وكأنها ليست لتقليص سيطرة الانسان على الطبيعة ، أن يصبح من الضرورى اعطاء مزيد من القوة للحزب الشيوعى ولكى يمارس بها الحزب الشيوعى فى كل مكان أدت الى زيادة هائلة لسيطرة عدد قليل من الناس على جموع ضخمة من الشعب . ومن الحقيقى أن الشيوعيين لم يمكنهم اقناع أغلبية أى شعب ليفوزوا بحكمه ، حيث ان حكم

الحزب الشيوعى أمر ضرورى لزيادة سيطرة الانسان على الطبيعة وتقليص سلطة الانسان على الانسان . بل ان الشيوعيين ينتزعون السلطة قهرا ويقيمونها بالارهاب ، ولم يفوزوا بها من خلال الحوار والاقناع .

وفوق ذلك ، يدرك الانسان أنه ليس لكل القيم وزن متساو ومماثل فى الاقتصاد الأخلاقى ولقد أولى الاشتراكيون تأكيدا مبدئيا نحو تحرير الانسان من الظلم والقهر ، وتقليص سلطة الانسان على الانسان وتعمد زيادة سيطرة الانسان على الطبيعة احدى وسائل تقليص سلطة الاستبداد الانسانى ولكن الوقائع المقررة تؤكد أن الشيوعيين استخدموا زيادة سيطرة الانسان على الطبيعة كوسيلة لزيادة السيطرة وسلطة الأقلية وهيمنتها على الأغلبية ولن يحتاج المرء اذن ليكون مؤمنا بالأخلاق فوق الطبيعية كى يدين الارهاب الشيوعى . يحتاج فقط لاستخدام عينيه وذكاء ملاحظته ويكون دافعه هو روح الشفقة من أجل المعاناة الانسانية الزائدة وغير الضرورية .

سخر تاروتسكى وهزا من فكرة وجود أى معايير أو مبادئ أخلاقية تكون «ملزمة للجميع» بل وأكد أن هذه الفكرة محض تضليل «فمعايير الأخلاق الالزامية فى الواقع ذات مضمون طبقى عدائى ولذلك يرفض اداة أى عمل حتى يعرف ما اذا قد تم بأيدي الشيوعيين ضد أولئك غير الشيوعيين أو قام به الآخرون ضد الشيوعيين» ويمكن مقارنة ذلك بموقف رفض اداة ذبح الأطفال حتى تتبين وتتضح ماهية سياسة آبائهم . ويفرض الصراع الطبقي والذي تعتبر الحرب الأهلية أعلى أشكاله ، على الجماهير ويتطلب منها السلوك الضرورى للملائم لادارة الصراع ومواصلته . فهل

هناك ما هو أسهل على الانسان فى تقرير سلوكه بصرف النظر عما اذا كان ذلك السلوك بغيضا من أى شكل يتخذه السلوك فى صور الصراع الطبقي الضرورى ويعبر به عن نفسه ؟ وفقا لدفاع تاروتسكى عن الارهاب ، يعتبر من قبيل العاطفة المفرطة أو النفاق والرياء تأكيداً أن الحرب الأهلية التى يتم الانتصار فيها بوسائل ذبح الاطفال والاسرى الابرياء أو باستخدام وسائل هتلر Hittler وستالين ، لاتستحق خوضها لانها لاتقود ولا تؤدى الى الاشتراكية بل الى مجتمع من نوع ذلك الذى أقامه هتلر وستالين .

ينكر تاروتسكى ساخطا ادعاء اعتقاد الشيوعيين بأن غاياتهم تبرر استخدام أية وسائل ورغم انكاره فان موقفه السابق تلزم عنه نتيجة مشابهة لهذا الادعاء . لان الافتراض الثانى فى مناقشته ودفاعه عن الارهاب والعنف الثورى هو «التحرر الأخلاقى للبروليتاريا . . يستتبع قاعدة للسلوك تستمد من قوانين تطور المجتمع ، وبالتالي مبدئيا من الصراع الطبقي ، فهو قانون لكل القوانين» .

ولو كان ثمة صراع طبقي حتمى يمكن استنباط قاعدة للسلوك منه . اذن ليس من الضرورى ارتباط هذه القاعدة بالغايات الاشتراكية . زيادة السلطة على الطبيعة وتقليص السلطة على الانسان لان القانون الاجتماعى للصراع الطبقي لاتحكمه غايات أخلاقية بل يوجهه قانون بيولوجى للصراع من أجل البقاء . ووفقا لتاروتسكى وعلى النقيض ، فان محصلة الصراع الطبقي تحدد بالضرورة الغايات التى ينبغى الوصول اليها فالانسان يفترض ولكن التساريخ – والذى قانونه هو الصراع الطبقي – هو الذى يقرر .

ومن وجهة النظر الأخلاقية ، فان محصلة الصراع

الطبقى ، مثل محصلة أى صراع آخر ، لاتحدد ماهو خاطيء بل تحدد ماهو قوى ، ولاتحدد من الذى يمتلك الحقيقة بل من يمتلك القوة وينبغى ملاحظة وادراك أن القانون الذى يبرر قاعدة للسلوك فى الصراع الطبقي هو جعل هذا الصراع الطبقي رحمة للمعايير الأخلاقية . ولربما يتم كسب المعركة وأيضا الحق ولكن أصبحت الغايات الاشتراكية غير ذات علاقة بالموضوع تماما ويعترف تاروتسكى نفسه بأن «الكذب والشر» جزء ملازم للصراع الطبقي حتى فى أكثر أشكاله البدائية» وفى كلمات أخرى ، توجد نقاط أقل بكثير لادانة الأشكال التى يعبر بها الصراع الطبقي عن نفسه من تلك التى تدان بها الاشكال التى تعبر بها القوانين الطبيعية الاجتماعية عن نفسها . ويكتب تاروتسكى الرجل الذى كان ضحية لاحدى مكائد ستالين والتى تفاضى عنها ضد المناشفة **mensheviks** «ان مكائد ستالين ليست ثمار النزعة اللاأخلاقية البلشفية ، لا ، فهى مثل كل أحداث التاريخ الهامة ، نتاج الصراع الاجتماعى الملموس .» وهكذا ستذوب المسؤولية الانسانية وتتحلل فى الضرورة التاريخية المشكوك فيها .

يتصف تاروتسكى بصدق وأمانة تميزه عن الشخصيات البلشفية الأخرى ، ولقد تمكن بهذا الصدق من استنتاج نتائج تتسق ومقدماته القدرية حتى عندما لا يكون معنيا بمضامين تلك النتائج . لو اعتبر الانتصار فى الصراع الطبقي هو كل شيء والغاية النهائية للسلوك الشيوعى فان الهزيمة ستكون جريمة أخلاقية . وهذا سيجسد أخلاقيات محاكمات موسكو . وطالما أن الانتصار فى الصراع الطبقي يمكن بواسطة حزب منضبط وملتزم فانه لمن الواضح «أنه بالنسبة للبلاشفة يعتبر الحزب هو كل شيء» مدلا أنه حزب

حقيقى ويتحدد ذلك بانتصاره فى النضال ومثلما يمكن تفسير آيات السماء من خلال كنيسة حقيقية فقط ، فان قرارات الصراع الطبقي لاتفسر الا من خلال حزب حقيقى فقط . وينتقد نورمان توماس Norman Thomas لأن معياره الأخلاقى يوجد خارج الحزب» بينما بالنسبة للماركسى الثورى «لايمكن وجود تناقض بين الأخلاق الشخصية ومصالح الحزب، طالما أن الحزب يغرس فى وعيه أسمى المهام والغايات للبشرية» .

ولسوء الحظ لم يكن وعى تاروتسكى كذلك !! ولكن أيا كان وعيه ينبغى أن يؤسس موضوعيا فى حدود وسياق أنشطة الحزب نحو الغايات الاشتراكية ، وليس وفقا لحدود الضرورات المزعومة للصراع الطبقي . ومثلما فعل لينين ، وبعد استبعاد تاروتسكى للأغراض والدوافع الشخصية باعتبارها غير ذات صلة بالموضوع عندما يتعلق الأمر بأفعال الآخرين ، قدم تاروتسكى «وعيه بدوافعه الخاصة وأغراضه كدليل على خدمة الحزب للبشرية» وفى ضوء الصراع الطبقي تعتبر «البشرية» الانسانية مجرد تجريد ، فالطبقات هى الواقع الاجتماعى الحقيقة .

يصبح من الخطأ افتراض استعداد تاروتسكى للسماح للطبقة العاملة باختيار حرفى تحديد الكيفية التى يغرس بها الحزب الشيوعى الايمان بالمهام والأهداف الخاصة بالبشرية» . لو أن ديكتاتورية البروليتاريا تعنى أى شئ آخر ، فهى تعنى اذن ، أن طليعة الطبقة مسلحة بوسائل وموارد الدولة لدرء الخطر بما فيه الخطر الذى ينبثق من المخايء والمكامن الخلفية للبروليتاريا ذاتها» .

ولكن ماهى «طليعة الطبقة» ؟ انها الحزب الشيوعى .

وماهى «المواقع الخلفية للبروليتاريا ؟ انهم أولئك الذين لا يوافقون على برنامج الحزب الشيوعى .

والمخاطر التى يبرر الحزب الشيوعى استخدام سلطة الدولة فى مواجهتها . بما تتضمنه من اختلاق التهم ، المكائد ، التعذيب ، «الكذب - الاساءة» تشمل هذه المخاطر احتمال انكار وجود الحزب الشيوعى من قبل أولئك الذين يزعم أنه يعمل لصالحهم . فلقد كان تاروتسكى متسقا فى اخضاعه عملية الديمقراطية وجعلها تابعة لبرنامج الحزب الشيوعى «بالنسبة للماركسى يبقى السؤال دائما : الديمقراطية من أجل ماذا ؟ لأى برنامج ؟ فالإطار العام للبرنامج هو فى نفس الوقت إطار العمل للديمقراطية» .

رغم أن تاروتسكى أكثر اتساقا من لينين ، إلا أنه سقط فى هوة خداع عميقة . فهو يقدم كخلاصة نهائية للأخلاق الشيوعية هذه القاعدة الأساسية «ان خير وصالح الثورة هذا هو القانون الأعلى» وفى الواقع الفعلى أن كلا من لينين وتاروتسكى جعلوا خير وصالح الحزب الشيوعى هو القانون الاسمى . ولكن بالنسبة لمعظم الأجيال الاشتراكية السابقة ، ليس مصلحة وخير الثورة هو القانون الاسمى ولكنها الحرية وخير وصالح البشرية . ولم تمنح لهم حريتهم ورفاهيتهم تلقائيا من خلال مسار القوى الانتاجية بل كان عليهم أن يكتسبوها ويقوزون بها من خلال الوسائل التى تتلاءم فعليا مع تلك الغايات . والالتزام الخلقى يعنى أن تكون مدركا وواعيا ببدائل الفعل ومقدرا بأعبائها وتكلفتها الانسانية ولكن الشيوعيين كانوا مصفدين بأغلال نظرية التاريخ وفقا لها سيتم انجاز المثل والغايات الاشتراكية حتما كمحصلة للقانون الأساسى للتاريخ ، وهو الصراع الطبقي . هذا

الاعتقاد لن يشمل فعاليتهم ونشاطهم طالما أنهم يطالعون ارادتهم فى التاريخ - وهذا يزيدهم صلابة ويجعلهم غير مبالين وغير مكترئين بالوسائل التى يستخدمونها وتكون النتيجة ، رغم أنهم انطلقوا لبناء اقتصاد الحرية ، الا أنهم انتهوا الى مجتمع قد أصبح نموذجا لمزرعة حيوانات جورج أورويل (١٩٨٤) • George Korwell's animal farm (1984). (١)

(١) « ١٩٨٤ » رواية للكاتب الانجليزى جورج أورويل كتبها عام ١٩٤٨ على غرار جمهورية أفلاطون لكنها اتسمت بالتشاؤم والغزق ، يرى أورويل ان « ١٩٨٤ » ستكون آخر سنة ميلادية يعرفها البشر وتقوم حكومات استبدادية وينقسم العالم الى ثلاث دول أو شيانا (المحيطية ويقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية ، يوراشيا الأوروبية اسيوية) يقصد بها الاتحاد السوفيتى رايمستاشيا (آسيا الشرقية) يقصد بها الصين ، وتحكم الدولة سيطرتها على الأفراد حتى تلقى ارادتهم وتفكيرهم وتنشأ « شرطة التفكير » لاحكام الرقابة على اذعانهم والفاء ذاكرتهم وخضوعهم للحكم الشمولى الذى يفتقر للحريه والديمقراطية « لا ولاء فيه الا للحزب ولا حب الا للاخ الكبير الذى يقف على رأس الحزب » ورغم عدم تحقق نبوءة أورويل الا انها تعد صورة كاريكاتورية لما قد حدث ويحدث فى المجتمعات الشيوعية من سحق للفردية الانسان وتقييد لدور الشعب وتركيز للسلطات فى أيدي قادة الحزب الشيوعى (المترجم) •

الفصل السابع

روزا لوكسمبورج

١ - حياتها وأعمالها :

تعد روزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg واحدة من أكثر الشخصيات البارزة في الحركة الماركسية فلقد جمعت بين الحماس الثورى وذكاء متقد بالاضافة الى المامها بكل أبعاد القيم وأطرافها فى التجربة الانسانية واعتبرت نفسها ماركسية أرثوذكسية فى مواجهتها للتحريفيين المعاصرين على صعيد الفكر النظرى . واتسمت معارضتها لبرنشتاين بحدة ومبدئية أقوى من معارضتها لكاوتسكى . واتسم ايمانها بالماركسية الارثوذكسية بالطابع النقدى والاستقلالية ، فلقد أولت المبادئ احتراماً وتقديراً ، ولم تعتبر الأشخاص أو المنظمات كأشياء مقدسة ، حتى الآباء المؤسسون للماركسية لم يحظوا بتقديسها . وروزا لوكسمبرج شخصية مثيرة للجدل ولكنها حظيت بمزيد من التقدير فى صفوف الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى ، وهى فى نفس الوقت شخصية فعالة فى محيط الحركة الاشتراكية البولندية والروسية . ولقد تعرضت للسجن بسبب معارضتها فى ألمانيا ايان الحزب العالمية الأولى وتعتبر رسائلها من داخل السجن وأساساً تلك البعيدة عن المسائل السياسية ضمن الكنوز الأدبية للعصر .

اتخذت كتابات روزا لوكسمبرج المتنوعة من مقالات وكتب موقفاً مناوئاً ومعارضاً لكافة النزعات الاصلاحية

reformism بمختلف صورها ، فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى . فلقد انتقدت بشدة مشاركة الاشتراكيين فى الحكومات الائتلافية ، ووضعت بيانات مؤثرة ضد كافة أشكال الاعداد للحرب ، دون انكار أهمية وضرورة العمل البرلماني parliamentary ناصرت بحماس العمل الجماهيرى ، وبشكل خاص الاضراب العام باعتباره أكثر الطرق الفعالة التى يمكن للبروليتاريا الحصول بها على السلطة . وتعد روزا شخصية أممية تتسم بصلابة الرؤية ، فلقد رفضت باتساق مع قناعاتها ، استبدال التحرر الوطنى بالتحرر الاشتراكى ، أو مجرد التوحيد بينهما والثورة الاشتراكية ستحل تلقائيا المشكلات الثقافية للأقليات القومية بروح ليبرالية . واتخذت روزا موقفا متميزا ومعارضاً لرأى ماركس وانجلز بصدد المسألة البولندية ، حيث اعتبرت أن الشعار السياسى الذى أعلنه بحق تقرير المصير للشعوب خطوة متخلفة لأن المشكلة الاجتماعية هى التى تأتى فى الصدارة وستختفى المشاكل القومية فى الولايات الاشتراكية المتحدة لأوروبا وبعدها تختفى فى العالم بأسره .

دافعت روزا فى نفس الوقت عن النقد الماركسى للرأسمالية ، وطبقته بطريقة حية واستخدمت نتائجه كمقدمات لرفضها الحلول الإصلاحية ومطالبتها باستراتيجية ثورية . وناقشت فى كتاباتها تراكم رأس المال The accumulation of capital الذى نشر قبيل الحرب العالمية الأولى ، ان الرأسمالية بتطورها تتجه نحو التوسع من قطر لآخر ، ومن رقعة لأخرى . ويتطلب التوسع الرأسمالى سوقا دائما للتوسع . حيث ان السوق الداخلى غير كاف للتوظيف المستمر لرأس المال وتراكمه لتحقيق ربحية الانتاج ، ويؤدى هذا الى ضمور واضمحلال الرأسمالية

وانتقالها الى المناطق الغير رأسمالية فى العالم • ويتعتم على الرأسمالية القيام بذلك على الأقل لتدعيم قوة العمل الاضافية وتلافيا لفترات الكساد الرأسمالى ، ومن ثم ينتقد ماركس لفشله فى ادخال هذه النقطة فى غضون تحليله • وتبوء جهود الرأسمالية كى تصبح عالمية بالفشل لعدم قدرتها على حفظ توازنها الذاتى وهى تحتاج دوما لعوالم جديدة ليمضى دولاب عملها وطالما هذا محدود فان انهيار الرأسمالية مؤكد وضرورى منطقيا • وتعتمد اللحظة المحددة التى تتجسد عندها هذه الضرورة المنطقية فى ضرورة تاريخية على وعى العمال المؤهلين للنضال •

استنكرت روزا لوكسمبرج «الوطنية الاشتراكية» social patriotism عند اندلاع الحرب العالمية الأولى ، والتى تبناها الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الألماني بل وطالبت الأحزاب الماركسية باصدار منشورات وبيانات ثورية ضد الحرب والنظم الاجتماعية التى افرضتها ورحبت روزا بالثورة الروسية فى بدايتها • ثم مالبت أن كتبت نقدا حادا ، ولكنه غير عدائى ، للنظرية البلشفية وممارستها وتطبيقها ، ابان فترة وجودها بالسجن • ورغم عدم خلو تحليلها من التناقض ، الا أنه تحول الى اتهام خطير حول الكيفية التى ستتطور بها ثورة أكتوبر والتى أثبتت الأحداث فيما بعد صدق نبوءتها الخارقة •

نظمت روزا بعد اطلاق سراحها على يد الثورة الألمانية ١٩١٨ ، بالاشتراك مع كارل لينبشت Karl Liebknecht جمعية سبارتاكوس Spartacus (١) وحثت على العودة «لروح»

(١) كارل لينبشت (١٨٧١ - ١٩١٩) زعيم اشتراكي الماني بارز ، اشترك مع روزا لوكسمبرج فى تأسيس « جمعية سبارتاكوس » لتقود المقاومة ضد اشتراك الشعب الالماني فى الحرب الاستعمارية ، وأصبحت بعد ذلك نواة للحزب الشيوعى الالماني •

البيان الشيوعي ورفض العقيدة الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها نزعة تحريفية ليست أقل جمودا وجدبا من التحريفية المبكرة التي انتقدتها آنفا . وتمثلت استراتيجية روزا لانتزاع السلطة في المطالبة والدعوة الى الاضراب الفعال في مصنع تلو الآخر حتى تتراكم القوة الكافية لدى الجماهير وحتى تصبح المقاومة مستحيلة . ورغم ذلك بدأ وكأن الجمعية السبارتاكوسية قد تأثرت بالنموذج البلشفي أكثر من تأثيرها بتعاليم روزا . وخلافا لرأيها وضد مشورتها ارتفعت قبضة أعضاء الجمعية بالسلاح ضد النظام الانتقالي المؤقت والذي تربع عرش السلطة بعد تنازل القيصر . ولكنها وبالمثل رقيقها كارل ليننشت التزما بقرار الجمعية وواجه كلاهما ميتة وحشية بشعة أثناء اقتيادهما للسجن . واكتسب نقد روزا للبلشفية تأثير متزايد فيما بعد موتها وعلى الحركة الاشتراكية في الغرب ، ولم تحظ كتاباتها الأخرى بتأثير ملحوظ .

٢ - نقد الثورة الروسية :

رغم نقد روزا لنظرية لينين التنظيمية قبيل الحرب الا أنها تعاطفت مع برنامج البلاشفة والذي وضع الثورة الاشتراكية على جدول أعماله . فهي لم تكن معارضة لهدفهم في الحصول على السلطة السياسية بل عارضت طريقتهم في انتزاع السلطة ، والاسلوب الذي أقاموا به سلطتهم ، والمنهج الذي برروا به لأنفسهم القيام بكل ذلك . ولكنها بالغت كثيرا في امتداحها لشجاعة البلاشفة وأيضا في التماس العذر لهم والبحث عن ظروف مخففة لأخطائهم ومع ذلك أصرت على وجود هذه الأخطاء ، وعلى نتائجها المأساوية المفجعة . وألقت بمسئولية هذه الأخطاء الأخلاقية في النهاية على كاهل

كل الاشتراكيين الذين افتقدوا الوعي الكافى والشجاعة الأخلاقية والبدنية لايقاف الحرب وانجاز الثورة الاشتراكية فى البلدان الديمقراطية الغربية . واعتقدت ، بدون أى دليل على صدق اعتقادها ، ان ثورة أكتوبر طرحت بديلا واضحا بين أى من الديكتاتورية الثورية أو احياء الثورة المضادة ، ودون أن تحاول البحث حول مدى تغذية واسترفاد أى شكل من أشكال التطرف لنقيضه ، ادعت أن الاختيار الوحيد كان «اما كالدين Kaledin » (الجنرال القيصرى) أو «لينين» .

هذه الأنواع من النقائض anti-thesis من السهل انتاجها. وكان على الغرب أن يسمعها فى اطار الثنائيات الزائفة مثل «أما الشيوعية أو الفاشية» والتي كان يعتقد فيها الشيوعيون والفاشيون فقط ، بحيث يصبح الحقيقى دائما بفضل هذا الاعتقاد حقيقيا . وفى حالة روزا لوكسمبرج ، أيا كانت النتائج المستخلصة فانها لاتستخلص لحد بعيد من تحليل الواقع العينى المتجسد بل من فلسفة معينة للتاريخ وطبقا لها يمكن الاحتفاظ بالاصلاحات الديمقراطية الأولية المكتسبة فى أى ثورة فقط من خلال توسيع هذه الثورة . ووفقا لهذه الرؤية تعد الفترة التاريخية المرحلة مثل منعطف جاد . والثورة الاشتراكية مجرد «قاطرة للتاريخ» يمكنها أن تنقلنا عبر هذا المنحدر وهذا هو السبب فى ضرورة سيرها بقوة تامة قدما نحو الأمام فلو اضطرب سيرها أو توقفت ، ستهاوى حتما نحو القاع . ويتضح استخدام روزا للعديد من الاستعارات والتشبيهات المتنوعة للتعبير عن اعتقادها بعدم انطباق وملاءمة القواعد العادية للأفكار المشتركة السائدة فى الحياة السياسية على الفترات الثورية ، فالديمقراطيون الذين يتخيلون أن بوسمهم تطبيق «حكمتهم الشخصية

المستمدة من المعارك النيابية بين الضفادع والفئران في مجال المناورات والتكتيكات الثورية tactics هؤلاء قرأوا التاريخ فقط لأهداف ضئيلة وليس بوسعهم ولن يحاولوا صنع التاريخ .

رغم تقدير روزا للبلاشفة باعتبارهم مقاتلين أشداء ذوى عزم وإرادة صارمة ، أنقذوا شرف الثورة الروسية والحركة الاشتراكية العالمية ، كما ذكرت فى مقدمة وخاتمة كتابها الثورة الروسية ، الا أن الفكرة الرئيسية للكتاب تميل بشدة ضد البلاشفة وتتهم روزا سياسات البلاشفة بمساهمتها فى انهيار وتحطيم الاقتصاد الروسى ، وأن برنامجهم الزراعى اتسم بالغوغائية (الديماجوجية demagogic) وأدى بالتأكيد لمشاكل خطيرة ، وان موقفهم من المسألة القومية أفسح مجالا للثورة المضادة ، وان حلهم للمجلس التشريعى كان خيانة للتقاليد الديمقراطية للماركسية وبالمثل خيانة لشعاراتهم الدعائية وكشفها كريان ونفاق سياسى وأن قيودهم على حق الانتخاب والحقوق المدنية الأخرى جعلت من «حكم العمال» أضحوكة وانهم حين أحلوا ديكتاتورية الحزب محل ديكتاتورية البروليتاريا انما أحلوا الارهاب محل الحوار والاقناع ، وان فرضهم الاشتراكية بمرسوم وقرار استبدل المثل الاشتراكية واختار بدلا منها نهج الانتهازية ، وفى النهاية ، وفوق كل ماسبق فان البلاشفة كانوا معصوبى الأعين عن حقيقة هامة وهى استحالة تحقيق الاشتراكية بدون ديمقراطية .

ويتبقى من كل الاتهامات التى وجهتها روزا للبلاشفة ، أخطرها وآخرها .

٣ - الديمقراطية فى مواجهة البلشفية :

اهتمت روزا لوكسمبرج كائى ماركسى أرثوذكسى (سلفى) بأبعاد وحدود الديمقراطية السياسية • ولكن لتمييزها وانفرادها عن معظمهم ، لم تشجب الديمقراطية «الشكلية Formal باعتبارها صنما مقدسا ، ولم تتحدث باستخفاف واستهجان وعدم تبجيلها أمام مذهبها ولقد عارضت روزا كل «الاصنام» بما فيها صنم الاشتراكية ولم تتعبد بتقديم القرابين أمام مذبح أى منها ، ولذا لم تتعبد أمام محراب أى حزب • بل ورأت لو أن التعبير الديمقراطى لارادة الجماهير بدا وكأنه غير حكيم بالنسبة للاشتراكيين ، فالاستجابة ورد الفعل ينبغى ألا يكون قمعا بل تعليما ولجوءا متجددا لخبرة الجماهير السياسية •

ناقشت روزا فيما يتعلق بهذه النقطة ماقدمه لينين وتاروتسكى من أسباب لحل المجلس التشريعى وأعلنت أنها غير كافية للحل • فلقد ادعى البلاشفة أن أولئك الأعضاء المنتخبين للمجلس لا يمثلون ولا يعبرون لحد بعيد عن الحالة الحقيقية لعقل وفكر أولئك الذين انتخبوهم من شهور قليلة مضت • فكيف عرف البلاشفة ذلك ؟ حتى لو اعتقدوا فى صحة هذا الادعاء فلماذا لم يدعوا لاقتراح جديد ؟ فلو كان لدى البلاشفة ايمان حقيقى بالجماهير ، كما يدعون ربما اعتمدوا على مزاج الجماهير mood of masses واختياراتهم وجعلها تعبر بذاتها فى اختيارها لنوابها وممثليها ولكن البلاشفة اشتكوا من ميكانيزم (آليات mechanisms الجماهير ودوافع حركتهم المعوقة • ربما كان ذلك صحيحا ، ولكن الأصح أن البلاشفة لم يشتكوا من هذه المعوقات الجماهيرية ، عندما يكون الاقتراح لصالحهم •

رأت روزا أن تصحيح الاجراءات المعوقة يتم بالاعتماد على الحركة الجماهيرية الحية وضغطهم الغير متناهى ، لان أشكال الديمقراطية وصورها ربما تكون غير ملائمة لروح الجماهير ولان روح الجماهير كفيلة وقادرة على القيام بالاصلاح ، وليس الاصلاح بسوط الجلاذ . وتقول روزا صراحة للبلاشفة ان عيوب الديمقراطية يمكن علاجها بالمزيد والأفضل من الديمقراطية .

ترى روزا من المؤكد أن المؤسسة الديمقراطية لها حدود ونقائص ، وهى الأشياء التى تشترك بها بلاشك مع باقى المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، ولكن العلاج الذى اكتشفه لينين وتاروتسكى لهذه النقائص بالغاء الديمقراطية ذاتها ، يعد أسوأ كثيرا من المرض الذى يفترض أنه يعالجه ، لانه يعوق مجرى المنبع الحى الذى يتأتى منه فقط تصحيح كل النقائص المتأصلة فى المؤسسات الاجتماعية وهذا المنبع هو الحياة السياسية النشطة ، الغير مقيدة ، والفعالة للجماهير الشعب العريضة .

من الطبيعى أن يحتكم لينين وتاروتسكى أيضا ، الى «المشاعر الديمقراطية» للجماهير ، ولكن مالم تكن الآليات mechanisms التى تسجل هذه المشاعر متخصصة وما لم تصان ويتم حمايتها والعناية بها من سوء الاستخدام ، سيصبح ذلك مجرد كلام انشائى وتعرض روزا فكرتها فى غضون نقدها للقيود التى كبل بها البلاشفة عملية الانتخاب . فطالما أنه من المفروض اقامة الانتخاب على «منح صك العمل» والذى قيده البلاشفة ببساطة من خلال حرمانهم معارضيهم من التمتع بحق العمل . وحرمان قطاعات عريضة من المجتمع من حق التصويت ووضع البعض خارج نطاق القانون والبعض الآخر

خارج الاطار الاقتصادى للمجتمع ، لذا يمكن للبلاشفة بشكل استبدادى صياغة أى ادعاء يروق لهم عن المشاعر الديمقراطية كما يرونها هم لباقي أفراد المجتمع وتستطرد روزا لوكسمبرج أنه حتى هذه الادعاءات ، لايمكن أخذها مأخذ الجسد بمصطلحاتهم ذاتها حيث لايعترف البلاشفة بحرية التجمهر والاجتماع والنشر لأولئك الذين يعارضون النظام السوفيتى، وبدون هذه الحريات «لايمكن تصور حكم الجماهير المريضة للشعب ككل» .

لقد شعر البلاشفة بمدى الالتزام الذى يفرضه عليهم رجال الاعلام بالتظاهر بالديمقراطية نظرا للقيمة الدعائية لهم ، وبلاشك كى يؤدوا ممارساتهم لأنفسهم فى ضوء أفضل مايمكن فأحيانا أنكروا وقائع الاضطهاد وعندما لايمكنهم الانكار بشكل معقول ويمكن قبوله ، فانهم يبررون الاضطهاد كاجراء دفاعى ضد اعتداء يشبه أنه وشيك الوقوع وفى طور الاعداد . وعندما يصبح ذلك أمرا مكشوفاً وعار عن الصحة والحقيقة ، يدافعون عن ارهابهم المنظم كاجراء ثارى وانتقامى ضد التجاوزات. سواء كانت حقيقية أو متوهمة من جانبهم . وعندما أصبحت سياسة الاضطهاد دائمة وشديدة التوتر بتتابع الأعوام ، لجأ البلاشفة بدون كامل وعيهم الى تقنيات الفساد ودلالاته والذى تجسد فى ممارسة منظمة فى ظل ستالين ، ثم هاجمه وانتقده اورويل « Orwell بوحشية هذه التقنيات تشخص وتحدد الاضداد العادية للكلمات من أجل استغلال التداعى الوجدانى للكلمات الايجابية positive وبذا أصبح شن الحرب منهجا لنشر السلام ، وأصبح عهد الارهاب عهداً للحرية ، وأصبح خط الحزب حقيقة عليا ، حتى عندما يكون مبنيا على الكذب ويستمر نقد روزا لوكسمبرج ليخترق صميم خداعهم ، فى

تطبيقها اللاذع بأن الحرية لا يمكن أن تمنح كامتياز خاص للقلّة • والحرية لأعضاء حزب واحد فقط ليست حرية على الإطلاق «الحرية دائماً وعلى وجه الحصر للفرد الذى يختلف مع السلطة فى تفكيره» •

٤ - منبع الايمان بالديمقراطية :

اشتقت روزا لوكسمبرج ايمانها العميق بالجماهير من منبعين تتفاوت قيمتهما لحد بعيد يتمثل المصدر الأول فى اقتناعها بأن قوانين التطور التاريخى ستتلف وتلغى قابلية النظم والمبادئ الرأسمالية للحياة • فالتحرر من كابوس نظام الفائدة ، سيجعل دوافع العمال الاولى متحررة وتبحث عن صور جديدة للتعبير • وينظم ويروض وعيهم وادراكهم من خلال تقلبات وتتابع الصراع الطبقي المحتوم • ليصبحوا فى النهاية مجبرين ومسوقين لاعتناق رؤية انسانية للعالم تتوافق مع الأسس الاجتماعية والاقتصادية للنظام الجديد الذى يحيك النظام القديم خيوطه الآن • ويتمثل المصدر الثانى لايمانها العميق بالجماهير وينبع من مصداقية العملية الديمقراطية ذاتها • فلقد كانت واثقة بأن التجربة الفعلية المباشرة للمشاركة الديمقراطية ومناقشات الرجال والنسوة العاديين فى أمور حياتهم اليومية وأعمالهم ستوسع أفق تفكيرهم ، وتجعلهم أكثر وعياً وفكراً ، وتطور حاجاتهم الجديدة المعقدة والمتميزة •

وتستخلص من المصدر الأول اعتقادها فى الانهيار التلقائى للرأسمالية ، وتوقعها لسخط وتمرد الجماهير العفوية وتطورها العارم نحو مستويات أعلى من الوعي الثورى • وتستخلص من المصدر الثانى ضرورة وجود تواصل وارتباط بين الوسائل والغايات الديمقراطية ، وسخطها الأخلاقى على

حائكى ومنظمى التلاعب بالاجماع والموافقة الجماهيرية ،
وان عملية تعميم المنهج والاسلوب البلشفى لانتزاع السلطة
وجعله نهجا عالميا ، كما فعل لينين وتاروتسكى هو محض
خيانة للاشتراكية ويظهر من المصدر الأول رومانسية ثورية
حالة وصوفية متضاربة مع عقلانية ومثالية مرنة تتبدى فى
المصدر الثانى . ومما يذكر لها أنها كتبت فى ملاحظاتها
وتعليقاتها على الثورة الروسية ، كفرد ملهم ببصيرة ونفاذ
رؤية أعمق كثيرا من تحليلها الاقتصاى الذى تجاوزته
الأحداث تبعا لتنامى القوة السياسية والصناعية للعمال
ذاتهم . وكتبت روزا باعتبارها تتفهم الكائن الانسانى
وتعنى به وكأنها قد أدركت أن خاصية الخبرات والتجارب
الشخصية والتي تجعلها المؤسسات الاجتماعية ممكنة هى
المحدد النهائى لقيمة الأشخاص .

يكتسب الانجاز النقدى لروزا لكسمبرج أهميته الفعالة
بوضع الوقت والظروف التى صاغت فيها أفكارها حول
الثورة الروسية فى الاعتبار ، وتقدير رغبتها الحائرة فى
ذكر كل شئ مرضى يمكنها قوله عن البلاشفة ، والذين
مجدتهم ورفعت من شأوهم لمعارضتهم للحرب العالمية الأولى
ولو قرأ نقدها على أنه تقييم للبلشفية فى أنقى صورها
سيصبح أكثر تدميرا .

ينبغى التسليم فى النهاية بأن ايمان روزا لوكسمبرج
بالعمال يستبق الدليل . فلقد أحلتهم بسهولة من مسئولياتهم
عن تأييد الحرب والأحداث الأخرى التى اعتبرتها شائنة .
ونظرت للعمال بعيون مثقلة بالاثم كشخص نشأ وترعرع فى
بيئة رغدة مترفة . وحقيقة الأمر أن ملايين العمال الغربيين،
حتى لو كانوا أقلية فقط ، لم يتأثروا بنقدها للثورة الروسية

وتابعوا لينين وستالين رغم تحقق أسوأ نبوءاتها وسلكوا
مسلكا معاديا لتصورها التاريخي للبروليتاريا .

ورغم ذلك يظل نداؤها المقدس لهم بالاشتراكية
والديمقراطية صادقا حتى اليوم وكما كان عندما صيغ لأول
مرة .

ليست الديمقراطية الاشتراكية شيئا يبدأ فقط في
الأرض الموعودة بعد خلق واقامة أسس الاقتصاد الاشتراكي،
فهى لاتأتى كنوع من هدايا الكريسماس christmas لأولئك
الذين يستحقونها ، ويكونوا فى غضون ذلك قد أيدوا بولاء
قبضة الطغاة الاشتراكيين لكن الديمقراطية الاشتراكية تبدأ
متسقة ومتزامنة مع بدايات بناء وتشبيد حكم الطبقة وبناء
الاشتراكية .

الفصل الثامن

ستالين

ورث ستالين Stalin سلطة لينين بعد وفاته في مطلع ١٩٢٤ ، بعد صراع قصير وعنيف على تولي كرسى الخلافة الرسولية . واستمر حكم ستالين قرابة الثلاثين عاما تحولت ايانها الحياة الروسية تماما . وتطورت لحد بعيد النظرية والممارسة البلشفية . وساعدت ظاهرة الهمجية الفاشية في اوروبا واسترضاء الغرب لستالين بالاضافة لدهائه وصلابته على حصوله على مكاسب سياسية ضخمة . ومن ثم تغير ميزان القوى العالمية لصالح المعسكر الشيوعى ورغم احتمال ترحيب لينين بانجازات ستالين لو كان حيا ، الا أنه كان سيرفض الوسائل التى تحققت بها هذه الانجازات فلقد كانت وصية لينين للحزب الشيوعى هى ابعاد ستالين عن موقع سكرتير الحزب لانه كان «فضا جدا كطاء يعد وجبات حريفة لاذعة حتى بالنسبة لمعدة البلاشفة» .

اقتنع ستالين رغم ذلك بكونه تابعا وحواريا مخلصا مطبقا للرؤية اللينينية للماركسية فى مرحلة تاريخية جديدة ويوجد بالفعل تواصل واستمرارية بين افكارهما وأعمالهما، ولكن من نافلة القول ادعاء أن ستالين كان مجرد وريث للينين وحسب . فمجمال أعمال لينين ككل لاتستوجب بالضرورة أعمال ستالين ، ولكن بدونها لم يكن بإمكان ستالين النجاح فى تطوير الوجه القمعى للديكتاتورية البلشفية الى

نظام مكتمل من الشمولية فى التاريخ العالمى • ولقد تجسدت هذه التطورات على صعيد النظرية والمبادئ فى ظل لينين بالابتعاد والتخلى عن التقاليد الديمقراطية لماركس ، وابتعاد البلشفية عن المدار السياسى الماركسى بحيث بدت وكأنها تطلبت واستلزمت مجموعة جديدة من المقولات والمصطلحات لفهم ماهو موجود ومايحدث فى الاتحاد السوفيتى •

لاتعبأ المفاهيم الشعبية الدارجة للتاريخ بأية حال بدقة المعالجة المعجمية بل وتهزأ منها • فبتناول المصطلح «الماركسية» نجد أنه يستخدم ويوظف على أوسع مدى ليشير الى التعديلات التى أدخلها ستالين على تلك التى أدخلها لينين بدوره لرؤية ماركس • ولذا من الضرورى الاشارة الى طبيعة اسهامات ستالين النظرية والتنظيمية • وهى لاتتسم بالعمق ولا الابتكار الفكرى • ولكنها تعد تاريخيا صانعة عهد جديد •

١ - اقامة الاشتراكية فى قطر واحد :

قدم البلاشفة تبريراً أساسياً لتقلدهم السلطة وتريعهم على دستها فى بلد مثل روسيا يتسم بالتخلف الاقتصادى ، وأقاموا تبريرهم على توقع حدوث ثورات اشتراكية فى الغرب • وحتى قيام هذه الثورة تكون مرحلة انبثاق وظهور التخطيط العلمى لاقتصاد العالم الاشتراكى • واذا مافشلت هذه الثورات ولم تتحقق ، يصبح أمامهم طريقان بديلان ، يتمثل الأول فى التمسك بالسلطة والحفاظ عليها ، والبحث عن تنظيم الثورات فى البلدان الأخرى من خلال الدولية الشيوعية ، وأما الطريق الثانى أمام البلاشفة فهو تكريس الطاقات لبناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى والاحتفاظ بروابط التعاطف مع الحركات الثورية فى أى مكان • ولقد فضل لينين وتاروتسكى البديل الأول ، الا أن لينين فى أواخر

حياته بدا وكأنه يشير الى أن البديل الثانى ملائم ومعقول .
وبعد وفاة لينين ، أيد ستالين البديل الثانى بكل جوانحه .

لا يعد هذان البديلان ، صراحة ، جامعين مانعين (١) .
ولكن السياسة فى الغالب مجال للتأكيد والحديث القطعى ،
والحديث والتناول السياسى يعطى تأكيداً وتركيزاً على
جانب معين من السلوك أو نقيضه مباشرة ، فرغم تأكيد
تاروتسكى على الثورة العالمية الا أنه اعتقد فى الوقت ذاته
بضرورة تحرك الاتحاد السوفيتى نحو الاشتراكية وصياغة
خطط طموحة للتصنيع - بل وأنكر فى النهاية امكانية اقامة
الاشتراكية فى قطر واحد بمفرده ومن ناحية أخرى نجد أن
ستالين باعتقاده فى التركيز والتأكيد على بناء الاقتصاد
الاشتراكى ، تبنى برنامج تاروتسكى للتصنيع ، وضاعفه .
بل وأنجز أيضاً جماعية الزراعة Collectivization
من القمة . والتى كان لها تأثير هائل على العلاقات الاجتماعية
والحياة اليومية فان تأثير عملية انتزاع السلطة ذاتها .

اعتقد ستالين أن الاتحاد السوفيتى لو ترك وبأنه لأمكنه
أن يطور اقتصاداً اشتراكياً مزدهراً معتمداً على موارده الأولية
والبشرية الذاتية وتساءل ستالين «ما الذى نعينه بقولنا أن
انتصار الاشتراكية فى بلد واحد بمفرده أمر ممكن ؟؟
ويجب على تساؤله «نحن نعى أن تقلد البروليتاريا للسلطة
فى روسيا السوفيتية يمكن توظيفه لاقامة وتشيد مجتمع
اشتراكى تماماً هناك» وهذا ما أنكره تاروتسكى بشدة .
ولكن ستالين أيضاً اعتقد بأن الاتحاد السوفيتى لن يترك
وشأنه وقبل بناء الاشتراكية ، أكد ستالين أن القوى

(١) exhaustive جامع ، exclusive مانع ، التعريف الجامع هو أدق
التعريفات المنطقية لاشتماله على كل أفراد الفئة المراد تعريفها ، وخلوه من تداخل أفراد
أية فئة أخرى ، وذلك لاشتماله على أدق وألصق الصفات الجوهرية - (المترجم) .

الرأسمالية العالمية مسوقة بطبيعة اقتصادياتها للتوسع أو
القضاء ، وهى ستختار التوسع بافتعال الحرب ضد الاتحاد
السوفيتى وأيضا اعتقد لينين دائما أن الحرب بين النظام
البلشفى والنظم الرأسمالية الغربية حتمية ان أجلا أو عاجلا،
ويصرف النظر عن المدى الذى يتم به تطبيق الاشتراكية فى
الاتحاد السوفيتى دون حدوث ثورات فى أى مكان آخر •
فبامكان ستالين التحدث بنفس طريقة وأسلوب تاروتسكى بل
وأكثر منه ، دون اقراره أو تبنيه لاستراتيجية تاروتسكى
السياسية •

يتساءل ستالين «ماذا الذى نعنيه بقولنا ان الانتصار
النهائى للاشتراكية فى قطر واحد بمفرده أمر مستحيل ،
وبدون انتصار الثورة الاشتراكية فى البقاع الأخرى ؟
»نحن نعنى أنه ما لم تنتصر الثورة ، على الأقل فى عدد من
البلاد مالم تكن فى كل مكان ، لن يكون هناك أمان كامل
ضد محاولات تدخل النظام البرجوازى bourgeois أو ضد
محاولة اعادته مرة أخرى» •

ماهو اذن ، الاختلاف العملى pragmatic بين كل من
موقف تاروتسكى وستالين ؟؟ هو ببساطة حيثما تتصارع
مصالح حركة ثورية فى قطر ما مع المصالح الآنية للاتحاد
السوفيتى ، سيضحي ستالين بمصالح الحركة الثورية فى
القطر الآخر أما تاروتسكى فلسوف يضحى بمصالح الاتحاد
السوفيتى الآنية • وكان لموقف ستالين تأثير ضارب على طبيعة
الأحزاب الشيوعية فى أى مكان • فلقد أصبحوا مجرد حراس
حدود border guards للاتحاد السوفيتى وأصبح التزامهم
المهيمن هو «الدفاع عن الاتحاد السوفيتى» وأصبح كل نشاط
داخلى تابعا لهذا الالتزام اذا اقتضى الأمر • وهكذا ، لو تهدد

مصنع تجهيز المعدات لصالح الاتحاد السوفيتى بالاضراب ،
 فلسوف يدمر الشيوعيون مصالح العمال ، بصرف النظر عن
 كيفية استغلال العمال بأسوأ طريقة ، وذلك كى يمنعوا
 حدوث الاضراب أو ليقفوه ، حتى لاتضعف قوة روسيا •
 وأولئك الذين تم تنظيمهم فى الأصل لحل المشكلات الاجتماعية
 لبلدانهم من خلال انتزاع السلطة السياسية بالوسائل الشرعية
 أو اللاشرعية قد يتحولوا الى طاوور خامس *fifth columnist*
 لصالح بلد آخر • فلقد أعلنت صيغة ماركسية مبكرة ترى
 أنه ليس هناك وطن للعمال سوى الكومنولث الاشتراكى الدولى
international socialist commonwealth وتؤكد الصيغة الستالينية
 الآن أن وطن العمال هو الاتحاد السوفيتى ، والذي يكتسب
 بقاءه واستمراره بأى ثمن ، أولوية وأسبقية حتى على حساب
 تدمير أقطارهم وأوطانهم الأصلية •

٢ - مبدأ التفاوت *Inequality*

أدى قرار اقامة الاشتراكية فى بلد متخلف اقتصاديا ،
 وتحقيقها بأقصى سرعة ، الى تركيز خاص على الانتاجية •
 وساهمت عوامل المسالة البدائية للتكنولوجيا ، والافتقار
 لوجود كميات كبيرة رأس المال ، والرغبة فى اللحاق بالدول
 الرأسمالية والتفوق عليها ، ساهمت فى زيادة الضغط الرسمى
 على العمال كى ينتجوا المزيد • وكان بوسع البلاشفة ان يمدوا
 العمال والفلاحين بأقل وادنى السلع الاستهلاكية الضرورية
 فقط وبالحدمات حيث ان الموارد الرئيسية تصب فى انتاج
 السلع الصناعية • ولذا بحثوا عن ايجاد حوافز لزيادة
 الانتاجية باستخدام الحيل والمخدع التى استنزف بها العمال
 فى المراحل المبكرة للرأسمالية نظم الاسراع فى عملية الانتاج
 على حساب العمال المكودين ، العمل بالقطعة *piecwork*

العلاوات والمكافآت الخاصة للمدراء للاحتفاظ بأدنى تكاليف للعمل - وتم تدعيم ذلك بقوانين صارمة لتقييد حرية تغيير المهنة ، وفرض عقوبات قانونية على الغياب والتأخير بدون مبرر وأصبحت النقابات العمالية أحد أجهزة الدولة ، وأدوات دعائية لحث العمال على زيادة انتاجهم ، بدلا من حماية العمال أصحاب العمل - الدولة - وأصبح الاضراب جريمة رأسمالية .

وتجسدت نتائج هذه الأساليب فى التخلّى عن المبدأ العام للمساواة فى الأجر المدفوع والذي أعلنته الثورة بفخر فى بدايتها - ولقد حيا ماركس وانجلز أولوية وأسبقية تحقيق المساواة فى الأجر على أيدي كومونة باريس Paris - Commune كمحاولة لإعلان الديكتاتورية البروليتارية .

من المؤكد أن ماركس قد أدرك تماما أن تحقيق المساواة فى الأجر لايعنى تحقيق مساواة مطلقة نظرا لتنوع واختلاف الحاجات الانسانية - ولكن كان ينبغى على الاشتراكية أن تقترب من المساواة الاجتماعية بتقليل الفروق فى الدخل والامتيازات بين البشر - ولتشجيع تحقيق انتاج أضخم ، أعاد ستالين اعلان المبدأ الرأسمالى للتوزيع فى أكثر صوره فجاجة - ينبغى أن يحصل الرجال والنساء على أجورهم بشكل دقيق تبعا لما ينتجونه - بل ونقد ستالين بشدة أولئك الذين يؤيدون مبدأ المساواة حتى كفكرة مألوفة بل وأدينوا باعتبارهم منحرفين ، أعداء مغرضين للدولة السوفيتية . وأعلن ستالين عام ١٩٣١ «ينبغى ازالة المساواة فى الأجر» - «ليس بإمكاننا أن نجيز الموقف الذى لا تحصل فيه اليد العاملة فى مصنع للمصلب أكثر مما يكسبه عامل نظافة - ولايمكننا السماح بحصول سائق قاطرة على أجر مساو لما يحصل عليه

موظف» . ووفقا لهذا الرأى ينبغي أن يحصل المدراء وكبار الموظفين ، موظفى الدولة الرسميين ، رؤساء العمال على مكافآت أكثر من غيرهم . والأهم من ذلك ، أن الفروق والاختلافات فى الدخل المكتسب فى الاتحاد السوفيتى تفوق تلك الموجودة فى البلاد الرأسمالية وتتكون الاختلافات والتفاوت فى الموقع الاجتماعى من خلال الامتيازات الممنوحة من الدولة لقطاع ضئيل بينما تعاني جموع غفيرة وبشكل لايمارى من الحاجة الدائمة للطعام ، الكساء المأوى .

لقد تم إلغاء الطبقات الاقتصادية ، شكليا ، وعلى الورق فقط ، طالما أن كل شخص يمتلك كل شئ . ولكن فى الواقع الفعلى ، وطالما أن التوزيع يتم وفقا للمبادئ الرأسمالية وحيث لاتوجد أية رقابة ديمقراطية على مايجب أن تكون عليه عملية انفاق الموارد الاجتماعية ، ستعاود الطبقات الظهور من جديد . فلقد حظى المسئولون الشيوعيون والموظفون البيروقراطيون bureaucrat سسلطة أكبر بكثير من تلك التى كان يتمتع بها أى رأسمالى أو موظفوا الدولة الرسميون فى النظام القديم . وفى الواقع الفعلى ، استبدل العمال نظام أصحاب العمل المتعددين — صغار وكبار ، والذين يسود التنافس غالبا بين بعضهم البعض وكانت سلطاتهم محدودة بفاعلية نقابات العمال المستقلة والمتمتعة بحق الاضراب ، استبدالهم العمال برئيس واحد ضخم ، يمتلك سلطة مطلقة، والذى يحدد ويقرر مستوى الأجور بشل نهائى غير قابل للمناقشة ، وبالمثل ظروف وأماكن العمل . وتغيرت وضعية العمال فى ظل ستالين من عمال أحرار نسبيا الى وضع هو فى الواقع نوع من العمل الاجبارى .

حرف ستالين الحقائق الجلية عن التفاوت الاقتصادى

economic inequality بصيغ بلاغية عن المساواة القانونية .
فطالما أن الملكية الخاصة لن تدوم كثيرا ، فليس بإمكان أى شخص أن يمتلك أى شيء أو استغلال أى فرد وبهذا الخصوص ، فإن رأس السلطة فى الدولة مساو لخدمه . أما ليون تاروتسكى فقد قدم تعليقا مؤثرا على الطريقة التى تحجب وتخفى الصورة القانونية بها حقيقة التفاوت الطبقي فى الاتحاد السوفيتى . ويصدق ذلك على كل مجتمع جماعى (شمولى) يفتقر الى الديمقراطية ، بما فى ذلك الفترة التى كان فيها كل من لينين وتاروتسكى الطغاة الحكام فى الاتحاد السوفيتى .

يقول تاروتسكى :

«لو أعلنت الملكية الجماعية لسفينة ، مع استمرار تقسيم المسافرين الى ركاب درجات الأولى والثانية والثالثة ، فمن الواضح أن اختلاف وتفاوت ظروف المعيشة بالنسبة لمسافر الدرجة الثالثة سيكون فى النهاية أكثر أهمية من التغيير القانونى لشكل الملكية . وعلى الجانب الآخر ، سيقترح ركاب الدرجة الأولى وهم ينعمون بسيجارهم وأقداح القهوة ، فكرة أن الملكية الجماعية هى كل شيء وأن الكابينة cabin المريحة ليست شيئا على أية حال» .

٣ - ازدهار الدولة :

منذ وقت اعلان دستور ستالين الجديد عام ١٩٣٦ ، وستالين يعلن أن الاتحاد السوفيتى مجتمع لا طبقي classless society يتمتع باقتصاد اشتراكى فى مجمله . ومع ذلك أعلن بعد عدة سنوات أنه مازال يتحرك فى طريقه نحو الشيوعية . فلماذا اذن ، لم تختف الدولة كما هو

مفترض طبقا للنظرية الماركسية التقليدية ؟؟ وبعد كل ذلك ،
أشاد ستالين ذاته مزهوا بحقيقة أن نسبة ٩٩٪ ممن أدلوا
بأصواتهم فى الاقتراع قد أيدوا الحكومة . أى أنه لا يوجد
أى أعداء طبقيون داخل المجتمع ، ولا يوجد أى آثار أو بقايا
رأسمالية فى ظل جيل ولد فى أحضان ديكتاتورية البلاشفة .
أليس اذن وجود دولة قوية علامة على التخلّى عن
الماركسية ؟؟

كرس ستالين نفسه لهذه المشكلة بوجه خاص فى المؤتمر
الثامن عشر للحزب الشيوعى السوفيتى وكانت اجابته على
السؤال السابق ، أن تناول ماركس ، انجلز ، لينين لمسألة
الدولة ومناقشتهم لها اقتصر «فقط على زاوية التطور الداخلى
للمجتمع» . وفشلوا فى تناولها فى ضوء الموقف الناجم عن
انتصار الاشتراكية فى بلد واحد فقط . حيث يقتضى الموقف
مزيد من تدعيم قوة الدولة لا اضعافها ، لمواجهة الأخطار
المنبثقة عن «الحصار والتطويق الرأسمالى حتى لو تحققت
الشيوعية فى بلد واحد ستواجه الدولة وستبقى . ولكن
عندما يستبدل «التطويق الرأسمالى» بـ «التطويق والحصار
الاشتراكى ، ستبدأ الدولة فى التلاشى» .

يعد مصطلح «تطويق encirclement» أحد المصطلحات
المطاطة فى مفردات البلاشفة يتبدل معناه وتتغير دلالاته تبعا
للوقت والهدف . حدده ستالين وعرفه فى البداية جغرافيا
ولكن بعد الحرب العالمية الثانية ، وعندما أصبح الاتحاد
السوفيتى قوة عظمى فى قارتى آسيا واوروبا - فلقد سحق
أقوى أعدائها ، وطوقت الجيوش السوفينية ألمانيا والنمسا ،
امتدت حدود الاتحاد السوفيتى لأبعد مما كانت فى أى عصر
من تاريخ روسيا القديم ، وأصبح ينظر لقوتها خلف هذه

الحدود على أنها الأعظم فى مدار دويلات تابعة أصبح ستالين عندئذ يذكر أن «الحصار والتطويق» الرأسمالى حقيقة واقعية - لكنه لم يعد حقيقة جغرافية بل واقع سياسى ويعنى ذلك أن الدولة ستبدأ فى التلاشى فقط فى عالم شيوعى يقوده ويهيمن عليه الاتحاد السوفيتى -

بالاضافة للدلالة اللفظية المضللة لمصطلح « الحصار والتطويق» توجد صعوبات عديدة فى تعديلات ستالين على النظرية الماركسية - الصعوبة الأولى تكمن فى عدم تفسير دفاع ستالين لتنامى قوة الدولة بدلا من تلاشيها فى الحياة الداخلية للاتحاد السوفيتى وفى كل بقعة من بقاع تلك الحياة من المصنع الى الاسرة ، من المزرعة الجماعية الى استوديو الفن ، فى الغالب يبرر الدفاع ضد التطويق والانتهاكات الخارجية وجود جيش هائل ، وذلك لايتعارض مع وجود نظام ديمقراطى داخلى - ولكنه لا يبرر ولايسبغ وجود معايير ارهابية للقمع الداخلى والتي يقاس مدى انتشارها وقوتها من خلال عمليات التطهير المستمر والمسكرات التى يتركز فيها المواطنون ويتم حشدهم ، والتي قدرها كل من دالين ونيكولايفسكى Dallin and Nicolaevsky بأنها ستبلغ فى عدة سنوات خمسة عشر مليوناً من المواطنين -

توجد صعوبة أخرى خلقها ادعاء ستالين بأن الاتحاد السوفيتى هو مجتمع اشتراكى تماما ، واعترافه بأنه يمكن الحفاظ على الاشتراكية فقط عندما يوجد «زيادة فى انتاجية العامل تفوق ما هو موجود فى النظام الاقتصادى الرأسمالى» ولكن الحقيقة التى لا جدال فيها فى الماضى والحاضر ، أن العامل السوفيتى يقدم انتاجية عمل أقل وليست أعلى من تلك فى البلدان الرأسمالية - فلو أن الاشتراكية غير موجودة

فى الاتحاد السوفيتى ، عندئذ لن يصبح وجود دولة قوية مشكلة وحيث ان الدولة تمارس فى هذه الحالة ديكتاتوريتها على طبقة ما ، وطالما أنه تم تصفية طبقة الرأسماليين وكبار الزراع (الكولاك) kulaks ينبغى أن تصبح الطبقة المقهورة هى الطبقة العاملة أو بعض القطاعات العريضة بها . وهذا مالا يمكن أن يسلم به ستالين . ولهذا السبب يتحتم عليه التأكيد على وجود وقيام الاشتراكية ، رغم غياب الشروط التى يستلزم وجودها كمقدمة لتحقيقها ، والتى تنسب لوجود الدولة وتضفى عليه قوة وسلطة هائلة فى الحياة الداخلية للمجتمع ، والمقصورة على ضرورة الدفاع عن الاشتراكية ضد التطويق الرأسمالى .

وتتمثل الصعوبة الثالثة لتفسير ستالين فى فشله فى شرح المتغير الملازم والمصاحب لتنامى القوة السوفيتية فى مواجهة بقية العالم وتنامى الملامح القمعية للنظام الداخلى . ويتوقع المرء تناقص حدة القمع للنظام الداخلى حتى فى تفسير ستالين ، لكنها تتزايد فى الواقع أما فى عصر لينين وعندما كان الاتحاد السوفيتى ضعيفا لأقصى حد وكانت الجيوش الأجنبية رابضة على ترابه الوطنى ، والممارسات بعيدة لحد ما عن القمع والاضطهاد . كان مسموحا ببعض الانتقادات داخل الحزب الشيوعى ، وازدهرت خارج الحزب حرية ثقافية ملحوظة فى الفنون والعلوم . ثم اختفى كل ذلك مع بزوغ الاتحاد السوفيتى باعتباره قوة عالمية . وبدلا من عملية تقليل القهر والقمع ، كان النهج هو تزايد الممارسات القمعية والقهر . ولم يكن ذلك سوى محاولة تصحيح للعناصر الطوبائية Utopian فى الماركسية واللينينية ، واللتن تخيلتا اختفاء الدولة وتلاشيها . وتجسد بذلك تحويلا المجمل مفهوم المجتمع الاشتراكى الى مفهوم سياسة

تصنيعية للدولة ، وقنانة وعبودية تصنيعية والتي يشهد وثاق العمال فيها لمصانعمهم بلا أية سلطة فى تحديد ظروف العمل ، مكافآت العمل ، أو التوزيع الاجتماعى لمنتجات عملهم . وبذا تحول الحلم الاشتراكى عن المساواة والحرية الى كابوس مرهق للتفاوت والاستعباد .

٤ - من المادية الجدلية الى الازهاية الجدلية :

كما سبق أن رأينا ، لم تضع ماركسية غرب اوروبا فى الاعتبار الرؤية الأساسية للكون التى أرساها كل من ماركس وانجلز ، ولم تجعلها جزءا مكتملا ومتمما لنظرياتها الاجتماعية والسياسية . أما بليخانوف وايضا وبوجه خاص لينين فلقد أحيا واسترجعا آراء انجلز حول طبيعة الطبيعة nature of nature لمقاومة التطورات الفلسفية الحديثة . والتى يمكن أن تؤثر على امكانيات تحقيق المجتمع الاشتراكى . وفى ظل ستالين أصبحت المادية الجدلية الفلسفية الرسمية للدولة ، وزودت الدولة وأمدتها بالفرضيات التبريرية Justifying premises للتسييس politicalization التام لمجمل الحياة الثقافية بما فيها الأنشطة العلمية .

وترى المادية الجدلية أن العالم مجرد بناء متطور للقوى المادية ، والتى توجد مستقلة عن أى وعى سواء كان انسانيا أم الهيا . وهذه القوى المادية محكومة بقوانين أساسية خاصة تفسر علاقات الأشياء ، وأضدادها ، تطورها من مرحلة لأخرى ، من مستوى لآخر . وأن «التناقض» contradiction هو السمة الموضوعية للطبيعة والتاريخ ، وهو الذى يدفع ويحرك عملية التطور وعند وصول التطور للنقطة الحرجة critical تنبثق تغيرات كيفية جديدة . وبتطبيق مبادئ المادية الجدلية dialectical materialism على حقل الحياة

الاجتماعية تتكون المادية التاريخية **historical materialism** والتي تثبت أن الرأسمالية ستلقى حتفها والشيوعية آتية وحتمية .

تتسق النظرية مع أى معتقد تجريبي ، للمدى الذى تكون عنده مفهومة ويمكن ادراكها عقليا ، والذى يعيننا هو الاستخدام السياسى الذى وضعت من أجله النظرية فلقد أكد لينين تماما أن كل الماديين الجدليين اذا اتسقوا مع عقيدتهم ، ينبغى أن يكونوا شيوعيين وكل الشيوعيين ينبغى أن يكونوا ماديين جدليين . وزعم فى ظل ستالين أنه لا أحد غير الماديين الجدليين يمكنه فهم مناهج وانجازات العلم فهما وافيا وصحيحا ، وسواء كان العلم الطبيعى أو الاجتماعى . وأضيف لهذا الادعاء ، أنه لا أحد سوى أعضاء الحزب الشيوعى ، أو فى الحقيقة ، غير أولئك أصحاب الخط السياسى فى الحزب الشيوعى ، أى خط اللجنة المركزية central committee لا أحد سواهم يمكنه فهم المادية الجدلية فهما كاملا وصحيحا . ويلزم عن هذه المقولات أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فقط هى التى تمتلك الفهم الصحيح لعالم الطبيعة ، المجتمع ، الانسان ، ورغم عدم ادعاء اللجنة المركزية لعصمتها المطلقة من الوقوع فى الخطأ ، الا أنها أكدت سلطتها العقلية العليا لتقرير ماهو حقيقى وماهو زائف ، الصادق أو الكاذب ، فى كل فرع من فروع المعرفة الفن ، الفضاء ، الاحياء ، الكيمياء ، الاقتصاد ، التاريخ ، الادب ، الموسيقى ، الطبيعيات ، وبالطبع الفلسفة . بل وأصدرت اللجنة المركزية فى ظل ستالين قرارات تضبط وتتحكم فى عمل العلماء والمدارسين فى هذه المجالات ، وأحيانا تفرض مسبقا تفاصيل حول ماينبغى اعتقاده وماينبغى طرحه خارج دائرة الاعتقاد . ويفرض ذلك قسرا عن طريق التطهيرات

والوسائل المألوفة للقهر وأصبحت العلوم والآداب أمورا تتعلق بعمل البوليس بل وارتكزت نظرية لينين عن العضو الحزبى على عقيدة قطعية لا يتطرق اليها الشك «لقد مزقت الماركسية اللينينية أوصال الرؤية العالمية (الكوزموبوليتان cosmopolitan حول العلم الفوق طبقى supra-class والا قومى ، العلم العالمى ، بل وأثبتت أن العلم مثل أى ، ثقافة فى المجتمع الحديث ، قومى الطابع طبقى المضمون بل وأنكرت النزعة «الموضوعية» باعتبارها هرطقة خطيرة تهدد أمن الدولة .

تختلف شدة سيطرة الحزب ومداها من عصر لآخر .
 وحيث انه لا يوجد فعليا أدنى ارتباط منطقى بين مبادئ المادية الجدلية كما هى فى صياغتها وبين تلك القرارات التى أصدرت باسمها ، فلا ينبغى البحث عن أسباب التغير فى الحكم والخط السياسى فى اطار النظرية بل فى أشياء أخرى . بل وأحيانا كانت أذنى ستالين Stalin's ears كما هو فى مجال الموسيقى – هى العامل الحاسم . وبنفس الطريقة يتم تقرير الاعتبارات السياسية أيا كانت يبدو فى أحد الكتابات التى ظهرت باسم ستالين ، أنه يستثنى قواعد اللغويات linguistics وأيضا قوانين المنطق الصورى formal logic من تأثير النزعة الحزبية ، لاعداد الطريق لقبول لغة عالمية عندما تصبح الشيوعية حقيقة عالمية وتسود العالم . ولكن لم يستظل العلماء والباحثون السوفييت فى أى وقت باستقلال حقيقى ، ليتابعوا بحثهم بقيادة الدليل والبرهان ومنطق التحليل فقط . فقد تتراخى قبضة الحكم الحديدية وتشدد ولكن لم يتم التخلص منها أبدا .

٥- القومية :

فى ظل لينين أصبح نمط الاستراتيجية والتكنيك strategy and tactics الشيوعى للصراع من أجل السلطة السياسية روسى الطابع تماما russianized وفى ظل ستالين أصبح مجمل مضمون السياسة والثقافة السوفيتية روسيا . ولقد ارتبطت وأوثقت قياد الأممية التقليدية بأفكار التفوق والامتياز أكثر من ارتباطها بالافتخار والزهو بالسمو والأولوية وارتبطت بالقيم الانسانية والكونية أكثر من ارتباطها بالقيم القومية والطقوس الأبرشية parochial ولقد أدينت هذه الأممية التقليدية ووصمت باعتبارها طموحاً للمجموعات العالمية المتعددة (الكوزموبوليتانية) المنبثة الجذور والمعادية للدولة السوفيتية وبالتالي للاشتراكية ولذا أعيد كتابة التاريخ الروسى لتمجيد الشخصيات التاريخية فى عصور ايفان الثالث Ivan the terrible وبطرس الأول Peter the first ووصف جنرالات الجيوش القيصرية الذين كانوا دعامة الرجعية الاوروبية فى القرن التاسع عشر ، ودبجت عبارات متوهجة لآظهارهم وكأنهم الأسلاف المبشرون بهيئة جنرالات الجيش الاحمر . وصارت الاعتداءات القيصرية وكأنها عملية لنشر الثقافة التقدمية على شعوب ترزخ تحت قيادة رجعية محلية . بل تعرض انجلز ذاته للتوبيخ لافتراضه أن روسيا القيصرية كانت أكثر البلدان تخلفاً من الوجهة السياسية والثقافية فى القرن التاسع عشر . ومن ثم بدأ التنقيب والبحث عن «الرواد» الروسين فى الاختراعات فى العلوم ، ووصل هذا البحث لأبعد الآماد هزلاً واضحاً . وتم احياء الفكرة السلافية الشاملة pan-slavist بأن روسيا ذات رسالة ومهمة خاصة لهداية

العالم وتغييره ، وظهرت الفكرة فى صيغ جديدة واكتسبت
حماساً أشد .

لقد كانت مفخرة الاتحاد السوفيتى دائماً أنه دولة
متعددة القوميات multi national state أزيلت فيه كل
العداوات والخصومات القومية ، حيث تعمل مختلف الشعوب
متعاونة معاً من أجل هدف عام للسلام والمساواة . وعندما
أصبح لدى ستالين التفويض لصياغة السياسة السوفيتية
لمشكلة القوميات . لم تفلح صياغاته أو معالجاته لثقافة
الأقليات فى التوافق والانسجام مع السياسة السوفيتية
المعلنة . فادعاء أن «الثقافة السوفيتية قومية القالب
والشكل ، واشتراكية المضمون» يشير تماماً أن العامل القومى
له مكانة شكلية وعرضية فقط . أما الثقافة الحرة فتتطور
شكلها وقلبها متكامل ومتساوقاً مع مضمونها . ولذا فإن
التأكيد المسبق بضرورة كون الثقافة اشتراكية المضمون
يعنى عملية فرض مبادئ واتجاهات معينة على الحياة الثقافية
للشعب - فنونه ، أغنياته ، فولكلوره folklore ديانته ،
آدابه - بدلاً من تركهم للتعبير التلقائى عن مكنوناتهم
واهتماماتهم . وفى واقع الأمر ، لاتعنى الحرية الثقافية
للأقليات شيئاً سوى حرية مديح ستالين والتهنئ له بكل
اللغات عدا اللغة العبرية .

ويعد تاريخ ثقافات الأقليات فى الاتحاد السوفيتى
تاريخ القمع المستمر للتراث والتقاليد الثقافية لهم ،
باعتبارها انحرافات قومية «بل وتم تصفية مجموعات ثقافية
وقومية بأكملها ، وكبحت موسكو زمام المجموعات الأخرى ،
مثال فولجا الجرمانية Volga Germans ومستوطنى جمهوريات
الحكم الذاتى . وأزيلت مؤسسات ثقافية يهودية تماماً ، بما

فى ذلك مطبعة يهودية مزدهرة ، ومسرح ومراكز دراسية -
فمن الواضح أنه ، حيث يفتقد الانسان حق الاختلاف
right to differ لا يمكن أن توجد أية حرية ثقافية أو عرقية ethnic

يعد الاتحاد السوفيتى من الناحية الشكلية ، اتحاداً
فيدراليا federation لجمهوريات اشتراكية متعددة تتمتع بحق
الانفصال . ولكن هذا الحق كآى حقوق مدنية أخرى وردت
فى دستور ستالين ، يعتبر حقاً أكاديمياً فقط academic
فالكرملين Kremlin هو صاحب الحق فى تعيين وإقالة كل
قيادات الهيئات ومجالس السوفيت فى جميع الجمهوريات ،
سواء كانت هيئات حكومية أو حزبية . ويعد قرار ورأى
الكرملين قانوناً تصاع له كل الجمهوريات السوفيتية وحتى
آخر نقطة عند حدودها . والتنازل الوحيد الذى قدمه
الكرملين مراعاة للمشاعر القومية للجمهوريات هو سماحه
بترجمة قراراته ومرسوماته الى اللغات القومية فى الغالب
لكى يفهمونها بشكل أفضل .

٦ - نظرية الفاشية الاشتراكية :

تعتبر نظرية ستالين الفاشية الاشتراكية social facism
أحد اضافاته الهامة لتراث لينين . وقد لعبت دوراً هاماً
فى تمزيق حركة الطبقة العاملة فى الغرب ، وساهمت
بفاعلية فى انتصار الفاشية فى ألمانيا وإسبانيا . وبمجرد
إعلان أن هدف الاتحاد السوفيتى الأول هو «الاشتراكية فى
قطر واحد» ، أصبح تجنيد العمال الغربيين كمدافعين عن
الاتحاد السوفيتى ضد أى انتهاكات أو تدخلات خارجية
ممكنة أمراً ذا أهمية أولية . ولهذا السبب ، أصدرت
الأوامر للأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى ، لتركيز

طاقاتها للسيطرة والهيمنة على الطبقة العاملة ، ولتنسيق نشاطاتها السياسية تبعاً لمتطلبات السياسة الخارجية السوفيتية ، وكى يتم القيام بهذه المهام بنجاح ، كان ينبغي تحطيم تأثير المنظمات الاشتراكية • الديمقراطية social-democratic تذرعا باشتراكها أحيانا فى الحكومات الائتلافية الغربية • ورغم حقيقة أن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية هى أحزاب الطبقة العاملة ، وأن الحركة الفاشية الصاعدة كانت تهديدا مميتا لكل أحزاب الطبقة العاملة ، أعلن ستالين أن الاشتراكيين الديمقراطيين هم «الجناح المعتدل للفاشية» • وأن تلك المنظمات (الفاشية ، الاشتراكية ، الديمقراطية) لاتنفى وجود بعضها البعض بل يكمل كلاهما الآخر • وليسوا نقيضين بل هما توأم •

أصبحت هذه النظرية هى النظرية الرسمية لكل الأحزاب الشيوعية فى الوقت الذى كان هتلر يلوح فى أفق أوروبا الغربية • وقلل ستالين من احتمال وصول هتلر للسلطة ، وتحسبا وضع فى الاعتبار مخاطرة وصوله للسلطة عندئذ سيقود ألمانيا لحرب ثارية ضد فرنسا وحلفائها وهى الحرب التى لن يشترك فيها الاتحاد السوفيتى • وفى ظل درع النظرية الاشتراكية الفاشية ، أطلقت حملات رهيبة ضد الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا وفى أى مكان آخر ، والتى جعلت من المستحيل تحقيق أية وحدة حقيقية للنشاط المواجه ضد خطر الفاشية المتصاعد بل وفى عديد من المناسبات الحاسمة ، مثال ، فى المذكرات الاستجوابية التى تقدم بها النازيون ضد الحكومة الاشتراكية فى بروسيا Prussia فى اضراب عمال الأنفاق ببرلين ، تعاون الشيوعيون صراحة مع النازيين • ساهم كل ذلك وبقوة فى انتصار هتلر Hitter وحتى بعد وصول هتلر للسلطة ظل الاشتراكيون

الديمقراطيون هم العدو الأساسى للشيوعيين ، وليس النظام النازى أو الرأسمالى • ولم تجدى المقاومة البطولية للاشتراكيين الديمقراطيين النمساويين ضد الفاشية (الكليركية) clerical فى تغيير موقف الشيوعيين وظل الخط السياسى هو نفسه فى كل بلد ، حتى فى نيويورك خرب الشيوعيون وفضوا بعنف المؤتمر الاحتجاجى الذى فقده الاشتراكيون ضد قمع النظام الدمية doll fuss regime ولم يتغير موقف ستالين الا بعد أن أصبح واضحا اعتزام هتلر الهجوم على الاتحاد السوفيتى فتخلى ستالين عن نظرية الاشتراكية الفاشية ، وأطلق الشعارات من أجل الجبهة الشعبية فى المؤتمر السابع للدولية الشيوعية • وقدم ستالين فى نفس الوقت ، وكشكل تأمىنى ، عروضاً سرية لنظام هتلر لاقامة علاقات ودية وتقارب قدر الامكان وبعد معاهدة ميونيخ Munich pact والتي أبعد منها الاتحاد السوفيتى ، أتت ثمار عروض ستالين ، فى معاهدته وهتلر عام ١٩٣٩ - وبقيام الحرب العالمية الثانية ، ورغم حياد ستالين فى هذه الحرب من الوجهة الفنية حتى غزو هتلر لروسيا فى ٢٢ يونية ١٩٤١ ، الا أنه قد ساعد بفاعلية ألمانيا النازية Nazi بالتأييد المادى والمعنوى ، حيث شجب بعنف القوى الديمقراطية الغربية باعتبارها تجار حروب وامبرياليين يتحملون مسئولية الصراع •

استخدم ستالين بعد الحرب العالمية الثانية الجيش الأحمر لاقامة الدولة الشيوعية التابعة لفلك الاتحاد السوفيتى ، وفى قلب أوروبا ، ودمرت الأحزاب الاشتراكية فيها بشكل وحشى •

٧ - انتصار الستالينية :

كما سبق ورأينا ، تتضمن بعض نظريات وممارسات لينين رغم اظهره عدم وعيه به ، مفهوما عن مجتمع شمولي totalitarian society يستحوذ عدد محدود من الأفراد على السلطة التنفيذية فيه ، وفي الواقع غير مسئولين أمام أى شخص سوى أنفسهم ، وتتركز فى قبضتهم احتكار مطلق لمجمل وسائل الانتاج ، التعليم ، الأجهزة والقوى القمعية ثم جسد ستالين طيلة سنى عهده ، هذه العوامل فى تعبير صريح ، لكنه دمر فى نفس الوقت بعض ملامح اللينينية التى ربما تؤدى الى قدر أقل من الدكتاتورية .

لم يكن مسموحا حتى فى حياة لينين بأية معارضة سياسية من جانب أية مجموعة غير اشتراكية ويموت لينين . كان قد حرم جوهرى كل الأحزاب الاشتراكية الأخرى عدا الحزب الشيوعى طالما أن الحزب الشيوعى هو الذى يمكنه فقط ادراك المصالح الحقيقية للطبقة العاملة . والدفاع عنها فان برامج كل الأحزاب الأخرى للطبقة العامة ستقود بالضرورة الى كارثة . لذا يعدون جميعا ومن الناحية « الموضوعية » ثوريين مضادين counter-revolutionary ومع ذلك ، سمح فى وقت معين ببعض الخلافات فى الرأى داخل الحزب الشيوعى ذاته ورغم غياب الديمقراطية عن التنظيم الفعلى للحزب ، حيث انه يدار ويحكم من أعلى ، لم تكن حرية المناظرة والمناقشات الداخلية فى الحزب شيئا غير مألوف حتى فى أوقات الأزمة . وبمجرد اتخاذ القرارات (قرارات لينين فى الغالب) لم يتم اتخاذ أى إجراءات انتقامية ضد أولئك الذين شاركوا فى النقاش أو ضد عائلاتهم ولن تنتهى مهام أولئك الذين كانوا فى الجانب الخاسر فى أية

مناقشة أو مناظرة • وبالقدر الذى يصبح به الفصل والفرقة بين الحزب الشيوعى والسوفييات soviet شكلا شرعيا وقانونيا ، يصبح الطريق الوحيد الذى من خلاله يتم التعبير عن أى خلافات فى الرأى داخل الاتحاد السوفيتى هو الحزب الشيوعى •

بعد تدعيم سلطة ستالين أغلق هذا الطريق ولم تعد الاختلافات تسوى بالحوار والمناقشة بل بالأمر متبوعا بالاعتراف العلنى بالخطأ ، واجراءات التطهير ، ومحاكمات علنية أمام الجمهور (والتي يتنافس فيها المدعى عليهم على التأنيب والنقد الذاتى self-debasement والترحيل الى معسكرات الاعتقال الجماعية ، والاعدام • بل وصور كل القواد رفاق لينين الأحياء فيما عدا ستالين ، وكأنهم جواسيس ، مخربون ، ومخططون لاعادة الرأسمالية منذ البداية المبكرة لثورة أكتوبر (١) وصاحب كل ذلك حملات منظمة لايمكن مقارنتها حتى بأيام القياصرة ، والتي تعد أكثر الأشياء اثارة لبغض واستياء ستالين • بل وأرجع ستالين لنفسه كل التطورات الثورية فى كل الفنون والعلوم • ومنح فى الأعياد الدينية صفات مقدسة من العلم الكلى omni science والتنبؤ وبموت ستالين قد تحول الاتحاد السوفيتى الى دولة شمولية ، ونموذج تحتذى به كل الدول التى تدور فى فلكه •

٨ - انجازات ستالين :

وصل الاتحاد السوفيتى فى ظل ستالين للمصاف الاول لقوى العالم ، سواء كان ذلك خيرا أم شرا • ثم أصبح الاتحاد

(١) تقرير لجنة تقصى الحقائق التى ترأسها جون ديوى الفيلسوف الأمريكى ، حول محاكمات موسكو بعنوان غير مذنب Not guilty نيويورك ١٩٢٨ •

السوفيتى أحد أكثر البلدان المتقدمة صناعيا يعد أن كان أحد أكثر البلدان المتخلفة فى العالم • وتزايد الاعتماد على الانتاج الزراعى ، رغم عدم الزيادة الكبيرة فى الانتاج الزراعى ، رغم عدم الزيادة الكبيرة فى الانتاج الزراعى للفرد عما كانت عليه قبل الثورة ، ولم يعد هناك مواسم الحصاد العجاف لتسبب أى مجاعات وقطعت خطوات واسعة نحو الامية • وتقديم تسهيلات هائلة فى المجال التعليمى ، وأصبحت المهن والوظائف والنجاح متاحا لكل موهبة بصرف النظر عن الأصول والجذور الاجتماعية أو الوزن والمقدرة السياسية • وتحققت مساواة المرأة بالرجل حتى فى مجال أكثر الأعمال الشاقة فى المناجم والمصانع • وأصبح للجميع فرصا للعمل ، فيما عدا المواطنين الذين يتوجسون خيفة من البوليس السرى نتيجة لانتقاداتهم للنظام ، وفشلهم فى أداء المهام المنوطة بهم ، أو تبعا لأصولهم الاجتماعية وارتباطاتهم العائلية وعلاقاتهم بأولئك الذين أدرجوا فى قوائم مسبقة تبعا للمقولات السابقة لهم الحرية فى ابداء نقدهم لبعضهم البعض لأنهم لم يقوموا بأداء العمل اللازم • لكن ليس لهم الحرية فى نقد الحكومة •

لم ينم الاتحاد السوفيتى فى ظل ستالين اقتصاديا فقط بل ترامت حدوده الجغرافية أيضا وتم القيام بعمليات استثمار فعالة فى المناطق القطبية الشمالية • وتم تعمير الأراضى الجديدة بالاسرى ، واستؤصلت العناصر الوطنية من المناطق المحلية • وتزايدت مساحة ورقة الاتحاد السوفيتى ، وتزايد سكانه بشكل لم يحدث فى أى عصر سبق • وأصبح لديه أكبر قوة عسكرية على وجه الأرض • ولم يعد لديه أى خوف من أى تدخلات عسكرية خارجية وأصبح مجمل العالم الغير شيوعى يخاف من قوته العسكرية •

دفعت الشعوب السوفيتية ثمن هذه الانجازات بالدموع والدماء وفقدان حريتها بشكل أكبر كثيرا ولا يمكن قياسه بأى ثمن دفعته أية أمة لتحديثها .

أما انجازات ستالين الفكرية فكانت أكثر تواضعا ، حتى بدون اثاره أية مشاكل حول أصالة انتساب الكتابات التي ظهرت باسمه له . ورغم الدوافع السياسية الضيقة الأفق والتي تفسر مراجعته وتعديلاته على الماركسية التقليدية ، الا أنه قد صحح لدى معين الأفكار الخيالية (الطوبائية) لماركس والمتعلقة بالدولة ووجود المجتمع اللاتبقى ومبادئ التوزيع الاشتراكي . وفى كل قضية من القضايا السالفة ، تتجاوز تعديلاته ومراجعته الواقعية المعتدلة المطلوبة للتوفيق بين الأفكار الاشتراكية الديمقراطية لماركس وقائع الخبرة والتجربة .

ليس من قبيل المبالغة ، وبعد موت ستالين ، القول بإمكانية تحقيق مجتمع ماركس اللاتبقى تقريبا فى ظل الرأسمالية ، بشكل أوسع من تحقيقه فى الاتحاد السوفيتى . بل وبالعكس ، فان الظلم والتفاوت الطبقي والاستغلال المرتبط بالمجتمع الرأسمالى المبكر ، هى التى تميز وتوصم جبين المجتمع السوفيتى المعاصر أكثر من التصاقها بالاقتصاديات المختلطة للغرب .

الفصل التاسع

الماركسية فى العصر الحاضر

يعتمد اطلاق وصف الدولة الماركسية على الاتحاد السوفيتى أو اعتبار الحركة الشيوعية حركة ماركسية على كيفية تعريف وتفسير كلمة «ماركسية» فاستخدام الكلمات فى القضايا الاجتماعية والشئون السياسية ليس استخداما صارما قاطع الدلالة وبعض الكلمات مسئولة عن تداعى معان متباينة بقدر ماتلعب دورا قويا فى الحياة الانسانية . فأولئك الذين ماتوا فى سبيل «الاشتراكية» أو «الحرية» ربما لم يكن موتهم فى سبيل ماتعنيه هذه المصطلحات بالفعل . ويصبح هذا أكثر صدقا خصوصا فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى والحركة الشيوعية ورغم الطابع الشمولى totalitarian الذى يتصفان به ، مازالوا يجمعون تحت رايتهم من خلال وصفهم لأنفسهم «كماركسيين» ، كثيرين ممن يشير مصطلح «ماركس» لديهم الى حركة ديمقراطية متاهية للنضال لصالح المستغلين والمضطهدين فى كل مكان .

تاريخيا ، يعد من الظواهر المألوفة أن يشير «حد مصطلح term» الى مجموعة وفئة معينة قد تكون الاختلافات بين أعضائها أوضح أو أكثر من الاختلافات الموجودة بينهم وبين أعضاء آخرين موجودين خارجها . فالاختلافات بين من يطلق عليهم «مسيحيون» تقريبا مثل تلك الموجودة بين من يدعون «ماركسيون» . وعلى سبيل المثال ، يعد كل من تولوستوى

Tolstoy وليولا Loyola أنفسهم كمسيحيين • ومع ذلك يشترك تولستوى فى كثير من آرائه وقسماته مع غاندى Gandhi وهو غير مسيحى ، أكثر مما يشترك فيه مع ليولا وكثير من المسيحيين الآخرين • وبالمثل ، الاختلافات فى المطامح والمشاعر والمشروع الديمقراطى ، والتي يفترق بها ماركس ، انجلز ، كاوتسكى ، بليخانوف ، برنشتاين ، جوريس ، روزا لوكسمبورج عن لينين وستالين ، تبدو اختلافات واسعة بدرجة لا تقارن بتلك التى تفضل نظام ستالين عن نظم هتلر ، موسوليني Mussolini فرانكو Franco

لا توجد أواصر قريى بين الماركسية والحركة الشيوعية المعاصرة على صعيد الفلسفة الاجتماعية ، بل على العكس فى مستوى النظرية التاريخية حيث توجد أكثر العلاقات اثارا للحيرة والتناقض بل والسخرية • فكما سبق ورأينا ، رغم تعاويد الشيوعيين بالنصوص الماركسية ، الا أنهم دحضوا النظرية الماركسية الارثوذكسية وفندوها على نحو قاطع ، وساهمت أعمالهم وانجازاتهم فى تنفيذ النظرية المادية التاريخية والتي تعتبر نظرية التطور الاجتماعى جزء منها •

لمزيد من الالتزام بصدق التحليل ، وبصرف النظر عن مدى صحة ومصداقية نظرية ماركس وانجلز المسماة بالاشتراكية العلمية scientific socialism فان هذه النظرية الاشتراكية لاتوجه العمل الشيوعى فى الوقت الحاضر ، ولم يسبق أن كانت بالفعل دليله ورائده • لم يكن الشيوعيون تاريخيين historical بل ولم يكونوا جبريين اقتصاديين economic determinists وتلعب الماركسية فى الاتحاد السوفيتى الدور الذى حدده ماركس للايديولوجية ، أى ،

باعتبارها وعيا زائفا ومغلوطا false consciousness
يعجب عن المناصرين لها أنفسهم أسباب ودوافع وأساس
فعلهم وحركتهم .

النظرية التى توجه النظام الشيوعى فى الواقع الفعلى،
ليست أيديولوجيته الماركسية الرسمية ، بل هى نوع من
الطوبائيات المعاصرة latterday utopianism وتنظيم
اجتماعى هندسى لاتحد أهدافه سوى حدود المستحيلات
البيولوجية والفسولوجية ، وترتجل وسائله بروح انتهازية -
وأهداف النظام الشيوعى الفعلية ثابتة - مجتمع عالمى ذو
تنظيم هرمى ، تخطيط شامل ، وسلطة مركزية فى الكرملين
Kremlin ومدفوعة بتعصب صارم ولا تخضع أبدا لاختبار
نتائج وسائلها المستخدمة لتحقيق غاياتها . لذا يمكن
التنبؤ بالسلوك السياسى الشيوعى أن يصبح أكثر دقة اذا
كان مبنيا على النظرية الشيوعية والاستراتيجية والتكتيك
الشيوعى للهيمنة العالمية world domination فأولئك الذين
يعتقدون أن الشعارات الشيوعية «للتعايش السلمى» هى
شئ أكثر من كونها خدعة لتهدئة العالم الديمقراطى فى
شعور زائف بالامن ، بينما يستجمع الاتحاد السوفيتى والدول
التابعة له قواهم من أجل توجيه الضربة النهائية ، ربما تمتد
بهم الحياة ليدركوا خطأهم .

تتحدى الطبيعة الخاصة للنظام الاجتماعى للاتحاد
السوفيتى التحليل فى اطار مفاهيم الرأسمالية والاشتراكية
الكلاسيكية - ويصدق هذا لدرجة ملحوظة على النظم
الاجتماعية لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة . ومع
ذلك ، وللمدى الذى يمكن عنده تمييز اقتصاد الثقافة عن
الصيغ والأشكال السياسية التى يعمل فى ظلها ، وحيث

لا توجد ملكية فردية لوسائل الانتاج بل ملكية جماعية ، اذن يمكن اعتبار اقتصاد الاتحاد السوفيتى - قانونيا - اقتصادا اشتراكيا ، من وجهة نظر التصنيف الماركسى الأرثوذكسى للثقافات . وكما أن مشكلة الشر توجد فقط بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بحكم الله للعالم ، بالمثل لا توجد مشكلة الطابع الاشتراكى للاقتصاد السوفيتى الا لدى أولئك الماركسيين الارثوذكس . أما بالنسبة للآخرين يمكن تصنيف الاقتصاد السوفيتى باعتباره اقتصادا شموليا ، مشيرا بذلك لعدم وجود تمييزات بين الاقتصاد ، الثقافة ، السياسة فى مثل هذا النوع من المجتمع ومن زاوية ما يحدث فعلا فى هذا المجتمع ، لم يعد العامل «الرئيسى» أو «الأساسى» هو التنظيم الاقتصادى للمجتمع بل الطابع السياسى له .

رغم أن وجود الاتحاد السوفيتى فى حد ذاته يقوض دعائم النظرية الماركسية للمادية التاريخية طالما أن التغيرات الاقتصادية الأساسية قد تحققت من خلال العمل السياسى . ربما يطرح للمناقشة بمعنى مبسط أن الوقائع المروعة للتجربة السوفيتية قد بررت الملمح الانسانى لفلسفة ماركس الاجتماعية فلقد أخطأ ماركس فى اعلانه استحالة بناء اقتصاد اشتراكى فى غياب الشروط الموضوعية . ولكن افترض مفهوم ماركس للانسان وجود حاجات أساسية معينة للانسان ، وقيم أخلاقية ينبغى أن توجه وتقود العمل السياسى فى المجتمع المتحضر ، وتحدد للانسان ماهو مؤهل للقيام به وعمله لغيره ، وما قد يجيزه بعضهم لبعض . وهنا يكمن مغزى انسانية ماركس الاشتراكية ، انه ليس بوسع البشر بناء اقتصاد اشتراكى فى مجتمع متخلف الا بتكلفة محرمة أخلاقيا - لاتقرها القيم الأخلاقية للانسان كما تصوره ماركس وماينبغى أن يكون عليه انسان القرن التاسع عشر

— ولو لم تعنينا اشكاليات التضحيات الانسانية ولم نعبأ بمعاناة الانسان وكانت الضرورة الفسيولوجية والبيولوجية فقط هي التى تقرر وتحدد عملنا • ولأصبح بوسعنا جعل الصحراء القاحلة بستانا اذا ماكان لدينا استعدادا لتسميدها بالجثث الانسانية وريها بأنهار الدم •

لقد ساعد لينين ، ستالين ، وأتباعهم على تدمير الجبرية التاريخية التقليدية ، والتي لم تفسح الا هامشا ضيقا لما يمكن للارادة الانسانية أن تحققه ، وللعمل والمجهود الانسانى أن ينجزه ولكنهم أظهروا تبعاً لذلك ، أن للأفكار والمبادئ السياسية دورا مستقلا ، بل دورا له أولوية أحيانا ، فى المؤثرات التى تحدد وتقرر الحياة الاجتماعية ، كما أوضحت كل النظم الشمولية فى القرن العشرين ذلك بطرق مختلفة • وأوضح تاريخ الماركسية للمفكرين فى كل مكان مركزية الاختبار والمسئولية الأخلاقية فى المسائل التاريخية بشكل عام •

لايعنى هذا ضرورة التخلي عن كل شئ فى الماركسية ، كما أنه لايجب التخلي عن الحدوس الأساسية لداروين لان آراءه حول آليات التطور قد أبطلت انما يعنى أنه لم يعد هناك ثمة مبرر لاعتناق الماركسية بوصفها مدرسة فكرية أو نظرية خاصة • وبالإمكان دمج أى اسهامات فعالة لماركس فى تيار الدراسة العلمية المعاصرة للانسان والمجتمع •

وتتسم الاشتراكية باعتبارها فلسفة بشمولية واتساع نطاق أوسع من نظريات ماركس والماركسية حيث تعتبر زمرة من النظريات تتعلق بالظروف والشروط التى فى ظلها يمكن تحقيق الاشتراكية والوسائل التى تستخدم لذلك وبعد التخلي عن كثير من هذه النظريات فى ضوء النتائج التى أوصلت

اليها ، تدعى الاشتراكية فى الوقت الحاضر أنها كتيار فكرى
تجسد حصيلة تفاعل الأفكار الديمقراطية الحديثة والتفكير
العلمى الحديث .

تعتبر كل الحركات الاشتراكية المعاصرة والتي تختلف
توجهاتها بوضوح عن توجهات الشيوعيين والأشكال الشمولية
الأخرى ، تعتبر نفسها فى الأساس ذات طابع أخلاقى .
وتعتقد رغم عدم امكانية فصل «ماهو فردى» عن «ماهو
اجتماعى» ان الشخصية الانسانية تكتسب أسبقية وأولوية على
تراكز السلع والقيم المادية ، وانه ينبغى تقييم كل المبادئ
الاجتماعية بما فيها تلك الاقتصادية من خلال تأثيرها على
الحياة اليومية للأشخاص ، وانه ينبغى تبرير كل أطروحات
التغيير الاجتماعى بتحديد نتائجها المثمرة بالمساهمة فى انماء
الفرد واثراء مضمون التجربة الفردية فى الوقت الحاضر .
وتعتقد الحركات الاشتراكية المعاصرة بضرورة اتاحة الفرص
للمواهب بصرف النظر عن العرق ، اللون ، الجنس ،
والديانة ، وانه ليس لشخص قادر ولايقدم أى اسهامات
للمجتمع أى حق معنوى فى التمتع بالسلع الاجتماعية
والخدمات ، وبتبسيط أكثر ، لاينبغى أن يحيا أى شخص قادر
على حساب عمل الآخرين ، بل وينبغى تأنيس العمل ذاته
humanize ليس فقط بجعل ظروف العمل أقل ارهاقا ولكن
بجعلها قدر الامكان وسائل للتعبير الخلاق عن الانسان ، أو
إذا تعذر ذلك ، جعلها متبوعة بفترة راحة يستمتع فيها بكل
ماهو جيد فى الفكر والفن ووسائل الترفيه . وتعتقد أيضا
فى أهمية المشاركة والادارة الديمقراطية القصوى للمؤسسات
الاجتماعية فى كل المستويات - من أجل تأكيد وتقوية
الحرية السياسية ، العقلية ، والثقافية ويعتقدون أنه ينبغى
على المجتمع اعلان مساواة الفرص لكل الأفراد لتطوير

فروقهم الفردية ، الأمر الذى يعبر عنه فى استعداد كل المؤسسات للمساواة فى المعاملة . ويفسرون المساواة فى المعاملة ليس لتعنى الحقوق المكتسبة فى خدمات ومنافع متساوية للجميع وكما أن المساواة فى العلاج الطبى لاتعنى لديهم حقوق مكتسبة متساوية فى العقاقير للجميع ويبدو أنهم قد اتخذوا المبدأ الذى أعلنه جون ديوى حول التعليم كدليل لكل شئ آخر «ينبغى أن تكون علاقة الجماعة بأفرادها على نحو أفضل وأعقل ماتكون عليه علاقة الآباء بأطفالهم» .

فى ضوء هذه الأفكار آيدت الحركات الاشتراكية الديمقراطية برامج مخططة للعمالة الكاملة الاسكان الملائم ، التأمين الاجتماعى ، والاجراءات الأخرى لتحقيق الرفاهية العامة . وبشكل عام يبدو أنهم لم يضعوا فى اعتبارهم أى شكل خاص للملكية كشرط جوهرى لتحقيق أهدافهم بل وأعلن معظم روادهم الرسميون أن كل مايلزمهم من أى شكل من أشكال الملكية هو السماح بتحرر الطاقات الانسانية بدون جعل نوعية الحياة الانسانية تعتمد على القرارات الاستبدادية والقمهرية . وهذا سبب اعتقاد الاشتراكيين فى ضرورة الديمقراطية كعهد مبدئى ولذا يعتقد الاشتراكيون أن المسألة الأساسية فى الفترة الحاسمة من التاريخ المعاصر للعالم هى نمط القرار السياسى وليس نمط الانتاج الاقتصادى .

قد يساهم انطلاق الطاقة النووية والاكتشافات التكنولوجية الأخرى فى حل مشكلة الفقر تحت أى نظام سياسى . لكنها لاتقدر على حل مشاكل الاحتفاظ بحرية المجتمع وهذه هى المهمة الأبدية التى نذرت الاشتراكية الحديثة نفسها للدفاع عنها كما يخبرنا الاشتراكيون الديمقراطيون .

ليس من قبيل الانصاف والالتزام بالحقيقة ، تأكيد أن أهداف الاشتراكية كما تم تصورها والتعبير عنها ، هي حكرا لاهتمام أولئك الذين يطلقون على أنفسهم «اشتراكيين» . ولذا فإن الاشتراكية باعتبارها حركة أو حزبا سياسيا فى العملية الديمقراطية يمكن أن تميز ذاتها عن باقى الأحزاب الديمقراطية من خلال البرنامج الخاص فقط والذي تفترضه لمواجهة مشاكل معينة . ويعنى هذا أن الاختلافات بينهم فى الدرجة وليست فى النوع .

سوف تستمر الصراعات الطبقيّة ، ويؤكد الاشتراكيون الديمقراطيون أنها لن تصبح حرفيا حروب طبقية طالما يتم حلها من خلال العملية الديمقراطية . والحرب الطبقيّة الوحيدة التى يستعدون لخوضها تماما هى الدفاع عن الديمقراطية ضد أعداء الحرية .

ينكر الاشتراكيون الديمقراطيون أن هذه الرؤية تعنى «افلاس» الحركة الاشتراكية بل على العكس يقولون انها تجسد انتشار وانتصار أفكارهم وفى رأيهم أن العوائق التى تنبع من نجاح حركتهم تسلك طريقين الصعوبة الأولى هى ذلك البرنامج الواضح القاطع المفهوم والذى لم يعد يفصلهم عن معارضيهما سابقا وهم مازالوا فى طليعة حركات الاصلاح الاجتماعى ، ولكن من الصعب بالنسبة لهم تحديد أين تنتهى وتقف الطليعة الاشتراكية ويبدأ الجسم الأساسى للرأى العام الغير اشتراكى . وتنبتق الصعوبة الثانية من حقيقة طرح شعارات قديمة وصيغ بالية فى مواقف تتطلب شعارات جديدة — فالاصلاحات والتعديلات الفورية التى أضيفت للبيان الشيوعى وذيل بها كبرنامج للعمل الاشتراكى قد تجاوزتها الأحداث حتى فى حياة مؤلفيه . وانهمك كل جيل

من المفكرين الاشتراكيين فى صياغة ووضع جدول للمعايير والمهام لاقرارها على أساس فهم مشترك لقبول القديم • أية نظرة على تاريخ أى بلد فى أى وقت معين تم حماية الحرية السياسية فيه مع الاحتفاظ بالأشكال الرأسمالية ، تكشف أن أفكار الاشتراكية الديمقراطية هى التى صنعت هذا الطريق الرئيسى • بل ويؤكد الاشتراكيون الديمقراطيون ، ربما مع بعض المبررات ، أنهم الهموا واوحوا بمهام واجراءات اصلاحية ، حتى وسط المجموعات التى مازالت ترتعد وترتجف من ذكر اسم «الاشتراكية» وفى الوقت الحاضر . وسواء كان الاقتراح هو مشاركة العمال فى الادارة وتوجيه الصناعة ، أو أجر سنوى مضمون ، ينسب الاشتراكيون لمبدأهم بأنه أيا كان الشكل الذى تتخذه الملكية ينبغى التحكم فيها وتكون مسئولة عن طريق أولئك الذين تؤثر فيهم سلطتها •

يصر الاشتراكيون الديمقراطيون أنه بمجرد التخلص من القشرة البلاغية ، يمكن القول بصدق أكثر من أى وقت مضى أننا «جميعا اشتراكيون الآن» • وبالتخلص من الشعارات المطاطة والكلمات الاكليسيهية catch words لن تختصر الاختلافات بين الأحزاب الديمقراطية الى اما أن تكون اشتراكية أو رأسمالية بل تصبح اما أكثر اشتراكية أو أقل وبالمثل أكثر رأسمالية أو أقل • ولقد تشعبت برامج الدولية الاشتراكية المزدهرة حديثا بروح هذا الاتجاه •

من خلال تحول نظرى بدا وكأن النظرية الماركسية الارثوذكسية للمادية التاريخية ، قد أصبح لها مشايعون وسط مجموعة صغيرة أكاديمية ذات روابط وثيقة وتنسقة من المعارضين للاشتراكية ، الذين استنتجوا بثقة أن الاقتصاد الاشتراكى المخطط ، أو أى نوع من الاقتصاد

المخطط سيؤدى حتما الى فقدان الديمقراطية وظهور الشمولية . وتبعاً لهذا الرأى ، فان نمط الانتاج الاقتصادى هو الذى يقرر بمفرده ويحدد النظام السياسى للمجتمع ، على الأقل فى المجتمع الاشتراكى . يفترض العمل السياسى أنه قادر على التأثير فى عملية اقتصاد السوق الحر ولكن العمل السياسى فى ظل اقتصاد مخطط غير وارد الا فى حالة كونه سوطاً لفرض القرارات والمراسيم الصارمة لمجلس التخطيط ومع ذلك فان التنبؤ بأن تنامى التوجيه الاقتصادى المسئول والتخطيط سيقود بالتأكيد الى تآكل الحرية السياسية ، هو تنبؤ واستنتاج مشكوك فيه منطقياً وتاريخياً ، من الناحية المنطقية يتجاهل تمدد أشكال الادارة والرقابة السياسية التى تتسق مع أى نظام اقتصادى معروف . ومن الناحية التاريخية لم يعط وزناً كافياً لحقيقة أنه فى البلدان التى سار فيها التخطيط جنباً الى جنب مع الديكتاتورية ، كانت الديمقراطية قد تحطمت قبل أن يتم ادخال الاقتصاد المخطط وليس كنتيجة لادخاله وتطبيقه .

قد يبدو للبعض أن مجمل المحتوى التاريخى للحركة الاشتراكية التقليدية قد تحلل وأذيب فى التجريد الصورى للديمقراطية ولكن من وجهة نظر الحركة الاشتراكية الديمقراطية ولكن سيصبح ذلك خطأ فادحاً ، لأن مثل هذا الاتهام يشخص الديمقراطية باعتبارها وحسب الآليات (ميكانيزمات) لتسجيل الاجماع والموافقة . ولكن عندما يتحدث الاشتراكيون الديمقراطيون اليوم عن «الديمقراطية» فانهم يشيرون الى ما هو أكثر من اجراءات الاقتراع ويعتقدوا أنها تتضمن فئات كاملة من الممارسات الدستورية المبدئية فى الحياة الاجتماعية ، العرفية ، القانونية ، والتعليمية ، بالاضافة الى لائحة واعلان حقوق فعال للدفاع عن الأقليات

ولقد اكتسب مصطلح «الديمقراطية» تبعا لذلك مفهوما ودلالة واسعة ، و ثراء وتمقيدا لم يحرزه من قبل لم تعد الديمقراطية ترمز الى اجراءات انتخابية بل ترمز لطريقة حياة . ففي القرون الغابرة لم يكن مفهوما تعبير «الديمقراطية كطريقة للحياة» . بل وما زال غامضا حتى الآن ولكن مضمونه من الوضوح كى يفترض اتجاهها ان لم يكن برنامجا خاصا للنشاط والعمل ويؤكد الاشتراكيون الديمقراطيون أنه لا يوجد أى مطلب اشتراكي فعال ويستثنى أو يستبعد من مفهوم الديمقراطية كطريقة للحياة .

ماذا لو أن الاشتراكيين الديمقراطيين استبدلوا أحد أشكال الطوبائيات بأخر ؟ ماذا لو أنهم تخلوا عن معتقداتهم القطعية dogmas عن حتمية القرن التاسع عشر ، التى كانت تتميز على الأقل بالتماسك ، لصالح التجريد الفج عن الديمقراطية ، ولصالح تمجيد أفكار ومثل غير مفهومة ؟ ينبغى الاعتراف بأن المبادئ الديمقراطية فى اتون الممارسة قد قصرت عن بلوغ المثل الديمقراطية وبرغم كل نقائصها أثبتت المبادئ الديمقراطية أنها وسيلة أكثر ملاءمة مما قد افترضه الماركسيون فى الماضى . ولقد قدم العمال اجابتهم المؤكدة على السؤال التحريفي «هل يمكن للعمال أن يأكلوا ديمقراطية ؟» ومن خلال تجربتهم الخاصة لان التجربة قد أوضحت أنه فى ظل حكومة تقوم على مبدأ الحرية الفردية ، لم يحتفظ العمال فقط بحريتهم ويوسموها ، بل أصبح العامل يأكل أفضل كثيرا مما هو قائم فى أى مجتمع تحكمه الديكتاتورية وخاصة عندما تحكم باسمه . وأوضحت التجربة مصالح العمال الراسخة فى الديمقراطية بل وتتعدى مصالح الحكومة فوجود النقابات الحرة فى ظل الديكتاتورية أمر مستحيل طالما أن الادارة قادرة على التفاهم مع من بيدهم

زمام السلطة بل وحتى الضمانات الضئيلة التي وعدت الدولة الشمولية العمال بها ، تعتمد على النزعات البيروقراطية bureaucratic ويتم مصادرتها في حالة اظهار أى نقد مستقل . وفى مثل هذه الدول حيث يتم التنكر لحرية العمال التى اكتسبوها فى المجتمع الديمقراطى ، يصبح الأمن عبودية ، والشعور بالواجب يصبح عملا اجباريا ، والعزلة تصبح تخفيا ، والأسرة قفص للتهذيب والمدرسة تصبح مخفرا أماميا للدولة ، الذكاء الاجتماعى تكنولوجيا للعقلانية ، الفن ومعرفة القراءة والكتابة تصبح أسلحة لفرض الخضوع والامتثال ، وأصبح الفرد موضوعا . وهذه حقيقة مستقلة عن أشكال علاقات الملكية – ومستقلة عما اذا كانت تسمى اشتراكية أو رأسمالية أو اقطاعية أو بيروقراطية .

يستنتج الاشتراكيون الديمقراطيون فى ضوء كل هذه الاسباب ، ان مايتبقى من التراث الفاضل للماركسية ، ومايبقى صحيحا وأبديا هو تفانيها وتكريسها للروح العلمية والايمان الديمقراطى . وأنكر أولئك الذين تقبلوا الرأسمالية كفلسفة اجتماعية هذه الروح ، بل ويؤكدون أن كل أشكال الاشتراكية ستقود ان عاجلا أو آجلا الى الحرمان من الحرية – ويجيب الاشتراكيون على هذا الادعاء ، بأن مثل هذه النظرية تعتبر نظرية وغير عملية ، بل وتشارك فى تدعيم قوى الشمولية المعارضة ليس فقط للديمقراطية الأمريكية بل للمجتمع الحر فى أى مكان .

الكلمة الأخيرة فى هذا المجدل والحوار المستمر لم تكتب بعد . فمن المؤكد أن الأحداث التاريخية لعصر علمى جديد ستتمارض وتتحدى الحلول التى ظهرت ملائمة للمشاكل

العلمية والنظرية في مرحلة مبكرة ولذا ينبغي على كل قارئ
أن يقوم بتفسير تراث ماركس والماركسيين لنفسه سواء كان
يرفضه أو يتقبله أو يقوم بتعديله ، فإن قراره الشخصي لن
يصبح قرارا حكيما ما لم يكونه بنفسه وهدف هذه الدراسة
الوحيد كان مساعدة القارئ في صياغة قرار حكيم .

الباب الثانى

قراءات مختارة

قراءة رقم (١)

«ماركس وانجلز : البيان الشيوعي»

«يعتبر البيان الشيوعي (١٨٤٨) في نظر الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، واحدا من أكثر المنشورات المكتوبة فعالية وتأثيرا سياسيا ويبدو ماركس في أفضل صورته كمفكر وكاتب ورجل أحداث من خلال سياق البيان وأسلوبه ، وحماسه النبؤي المتقد ...» .

● انطلقت صيحات التحذير من الشبح الذي ينتاب أوروبا - شبح الشيوعية - بل ودخلت كل قوى أوروبا في حلف مقدس لطرد هذا الشبح - البابا والقيصر ، مترنيخ وجيزوت ، الراديكاليون الفرنسيون وجواسيس البوليس الألماني (١) - .

ألم يدان أى حزب معارض واتهم بالشيوعية من جهة خصومه فى السلطة ؟ ألم تتنصل أحزاب المعارضة الوئيدة الطيبة من وصمة عار الشيوعية ، فى مواجهة أحزاب المعارضة الأكثر جسارة ونضالية ، وبالمثل فى مواجهة الخصوم الرجعيين -

ينتج عن هذه الحقيقة أمران :

(١) ترجمة سمويل مور ومراجعة فردريك انجلز .

١ - اعتراف كل القوى الاوروبية بالقوة الذاتية للشيعوية .

٢ - ان الوقت المناسب قد حان ليصبح لزاما على الشيوعيين ان يواجهوا العالم ككل صراحة وينشروا آراءهم وأهدافهم واتجاهاتهم وليواجهوا هذه الحكاية الطفولية عن شبخ الشيوعية باصدار بيان للحزب الشيوعى ذاته .

١ - البرجوازيون والبروليتاريون :

يعد تاريخ كل المجتمعات التى كانت قائمة فى الماضى وحتى الآن ، هو تاريخ الصراع الطبقي .

حيث يقف فى تعارض دائم الرجل الحر فى مواجهة العبد ، الشريف فى مواجهة العامى السيد ازاء الخادم ، العامل فى مواجهة صاحب العمل ، وفى كلمة واحدة المضطهدون فى مواجهة المضطهدين . بل ويمضى تعارضهم فى اقتتال وتصارع مستتر تارة ، وصريح تارة أخرى . الاقتتال الذى قد ينتهى مرة وفى أشد صورة باعادة البناء الثورى للمجتمع . أو الى تدمير شامل لكل طبقات المجتمع .

نجد فى الفترات المبكرة من التاريخ ، تنظيم معقد للمجتمع فى أشكال متنوعة ، وتنظيم طبقي متدرج رئيسى وحيث نجد فى روما القديمة طبقة الأشراف والنبلاء ، الفرسان ، العامة ، العبيد ، ونجد فى العصور الوسطى النبلاء الاقطاعيين ، الأتباع ، رؤساء طوائف التجارة والصناعة ، العمال المهرة الصبية الحرفيين ، الاقنان ، ويوجد فى معظم هذه الطبقات تسلسلات وتقسيمات طبقية فرعية .

لم يتخلص المجتمع البرجوازى الحديث الذى نبت من حطام المجتمع الاقطاعى من التناقضات الطبقيه ، لكنه أسس.

طبقات جديدة ، ظروف جديدة للقهر وأشكال جديدة للصراع
مكان تلك القديمة .

ويتسم عصرنا ، عصر البرجوازية بطابع مميز محدد :
توسيع التناقضات الطبقيّة واكسابها المزيد من الوضوح
فانشطر المجتمع ككل الى معسكرين عدائيين كبيرين ، الى
طبقتين تواجه كل منهما الأخرى مباشرة : البرجوازية
والبروليتارية .

لقد لعبت البرجوازية دورا ثوريا متعاظما من الناحية
التاريخية .

عندما كان للبرجوازية اليد العليا ، وضعت نهاية
العلاقات الاقطاعية العشائرية Patriarchal الريفية .
ومزقت بعنف أشلاء العلاقات الاقطاعية المتناقضة التي كانت
تكبل الانسان بأغلال «أسياده الطبيعيين» ولم تدع أية رابطة
بين الانسان وباقي البشر سوى رابطة المصلحة الشخصية
المجردة ، والمائد المادى الصرف . بل وأغرقت معظم المباهج
السماوية والعاطفة الدينية ، والحماس الفروسي ، والنزعة
العاطفية القديمة ، أغرقت كل ذلك بالماء البارد للحساب
الأناني والنظرة الفردية الضيقة . وحولت القيمة الشخصية
الى قيم المقايضة والتبادل وأرست حرية التجارة محل حريات
عديدة لايمكن الغاؤها دستورياً وفي كلمة واحدة استبدلت
الاستغلال المرقع والمحجب بالأوهام الدينية الخادعة والمقنع
بالأوهام السياسية باستغلال صريح فج مباشر ووحشي .

جردت البرجوازية كل المهن من وقارها والتكريم الذى
كانت تحاط به وحولت علماء الطبيعة المحامين القساوسة
الشعراء ورجال العلم حولتهم الى مجرد عمال مأجورين .

يل ونزعت عن الأسرة خمارها العاطفى ، وضاءلت من
شأن العلاقات الأسرية الى مجرد علاقات مالية فقط .

كان البرجوازيون أول من أوضح مايمكن للطاقة
الانسانية تحقيقه . أنجزوا المعجائب التى تفوقت على
الأهرامات المصرية ، القنوات الرومانية ، الكاتدرائيات
القوطية ، وقاد البرجوازيون حملات عسكرية تضاعل بجوارها
كل الهجرات السابقة للأمم والفزاة .

لايمكن للبرجوازية أن توجد بدون تثوير دائم لأدوات
الانتاج . وأيضاً علاقات الانتاج ومجمل العلاقات القائمة فى
المجتمع .

يطارد البرجوازية ويلهب ظهرها سياط الحاجة للتوسع
الدائم لسوق توزيع منتجاتها عبر سطح الكرة الأرضية ينبغى
عليها أن تسعى لكل مكان ، تستقر أينما حلت لتؤسس مراكز
للعمل . .

خلال فترة حكم البرجوازية القليلة لمائة عام ، خلقت
قوى انتاجية أكثر ضخامة من كل ما أوجدته كل الأجيال
السابقة معا من اخضاع القوى الطبيعية للانسان ، الميكنة ،
وتطبيق الكيمياء فى الصناعة والزراعة ، الملاحه البخارية ،
سكك الحديد ، البرق الكهربائى ، تطهير كل الأرض واعدادها
للزراعة ، شبكات القنوات والأنهار ، وتساءل كل سكان
الأرض هل تصور أو حتى توقع رجال أى عصر مضى أن مثل
هذه القوى الانتاجية قد تهجع فى كنف العمل الاجتماعى ؟

ونرى بالتالى : أن وسائل الانتاج والتبادل التى قامت
عليها البرجوازية قد أنتجت فى المجتمع الاقطاعى ، وعند
درجة معينة فى تطور هذه الأدوات الانتاجية والتبادلية التى

ينتج ويتبادل المجتمع الاقطاعى فى ظلها ، مثل التنظيم
الاقطاعى للزراعة والانتاج الصناعى أى العلاقات الاقطاعية
للملكية لم تعد متسقة مع القوى الانتاجية التى تطورت
كلية ، بل وأصبحت علاقات الملكية الاقطاعية قيودا وأغلالا ،
لذا كان ينبغى تعطيمها وتمزيقها الى أشلاء ، ولقد
تعطمت .

وأقيم مكانها علاقات المنافسة الحرة ويصاحبها تكوين
اجتماعى وسياسى ملائم لها ، ونفوذ اقتصادى وسياسى للطبقة
البرجوازية .

وكانت تجرى حركة مشابهة بعيدا عن أعيننا المجتمع
البرجوازى الحديث بعلاقاته الانتاجية علاقات التبادل ،
الملكية ، المجتمع البرجوازى الذى استحضر مثل هذه الوسائل
الهائلة للانتاج والتبادل أصبح كالساحر الذى لم يعد بإمكانه
أن يسيطر على تلك القوى الخفية التى استحضرها بسحره .

ولعمد مضت كان تاريخ الصناعة والتجارة هو ثورة
القوى الانتاجية الحديثة ضد الظروف الحديثة للانتاج وضد
علاقات الملكية التى كانت شروط وجود البرجوازية وحكمها .
يكفى أن نتذكر الأزمات التجارية ومراحلها المتعاقبة الدورية
والتي ضاعفت من شدة هذه الأزمات ، وأصبحت مهددة فى
كل وقت لوجود البرجوازى ككل . حيث تم تدمير قطاع كبير
من قوى الانتاج الجديدة والموجودة من قبل أيضا ، تم تدميرها
على دورات . واندلع ابان هذه الأزمات وباء وفرة الانتاج
الذى بدا فى كل مراحلها المبكرة وكأنه نوع من اللامعقول .
وفجأة وجد المجتمع نفسه وقد تراجع الى حالة من البربرية
الخاطفة التى حلت به تبدو كما لو كانت مجاعة ، أو حرب
دمار عالمية ، قطعت امداد كل وسائل العيش والبقاء ، وكان

الصناعة والتجارة قد دمرت . ولماذا ؟؟ لانه يوجد المزيد من وسائل التمدن . مزيد من وسائل العيش ، مزيد من الصناعة والتجارة ووفرة فى كل شئ . فلم تعد القوى الانتاجية تعنى بتعزيز وتطوير أوضاع الملكية البرجوازية فى عملية تنظيم المجتمع . على العكس ، اصبحت القوى الانتاجية متعاظمة القوة ازاء هذه الأوضاع . والتي كانت تقيدھا وتكبلھا بأغلالھا . وبمجرد قهرھا لهذه الأغلال تحدث الفوضى والاضطراب فى المجتمع البرجوازي ككل وتهدد وجود الملكية البرجوازية وتعتبر أوضاع وظروف المجتمع البرجوازي لصيقة بدرجة يمكن مقارنتھا بالثروة التى خلقتها فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الأزمات ؟ من جانب بتقوية عملية تدمير وتحطيم القوى الانتاجية الضخمة ومن جانب آخر بغزو أسواق جديدة ، بالمزيد من استغلال تلك الأسواق الجديدة ، أو على الأصح ، بتمهيد الطريق أمام المزيد من الأزمات المدمرة والمتصلة وتقليل وسائل الانتاج اذا لم تقع الأزمات .

تحولت الأسلحة التى أسقطت بها البرجوازية النظام الاقطاعي وطرحته أرضا ، تحولت ضدها بل وارتدت الى صدر البرجوازية ذاتها .

لكن لم تصنع البرجوازية وتصيغ الأسلحة التى ستموت بها فقط . بل دفعت الى السطح الرجال الذين سيستخدمون هذه الأسلحة ليصيبوا البرجوازية فى مقتل ، على يد البرجوازية كان ميلاد الطبقة العاملة الحديثة - البروليتاريا .

مرت البروليتاريا بمراحل تطور عديدة ويبدأ بمولدها صراعها مع البرجوازية فى البدء كان التضال يتم من خلال

عمال أفراد ، ثم عمال المصنع ، ثم فاعلية نقابة فى اقليم محلى واحد ، ضد البرجوازى الفردى الذى يستغلهم .

مع تطور الصناعة تزايد عدد البروليتاريا أصبحت مركزة فى مجموعات ضخمة ، متنامية القوة وازداد شعورها بقوتها . وأصبحت مصالح وظروف الحياة أكثر تقارباً داخل الطبقة البروليتارية . بل تم طمس مميزات العامل كفرد ازاء الآلة ، وتم تخفيض الأجور الى نفس المستوى الأدنى فى كل مكان . . بدأ العمال فى تكوين تنظيماتهم (النقابات العمالية) ضد البرجوازية ، تعاونوا معاً من أجل الحفاظ على مستوى الأجور ، أسسوا جمعيات دائمة لعمل استعدادات مسبقة لتلك التمردات الطارئة . بل واندلع فى كل مكان نضال وانتفاضات .

منذ ذلك الوقت وبدأ انتصار العمال . لكن لوقت ولفترة فقط . فالثمرة الحقيقية لنضالهم لا تكمن فى النتيجة الفورية . بل فى اتحادهم المتوسع دوماً ووحدة العمال الدائمة .

فى النهاية ، حتى عندما يقترب الصراع الطبقي من ساعته الحاسمة ، تستمر عملية الانحلال داخل الطبقة الحاكمة ، فى الحقيقة داخل الاطار العام للمجتمع القديم ، يتخذ هذا الانحلال طابعا غاضبا عنيفا . لدرجة أن قطاعا صغيرا من الطبقة الحاكمة يترك عواهنه تحت رحمة الأحداث بلا هدف ، ويلتحق بالطبقة الثورية ، الطبقة التى تمده بزمام المستقبل فى يديها . تماما كما حدث فى فترة سابقة عندما تحول قطاع من النبلاء وانضم الى البرجوازية بالمثل يتحول الآن قطاع من البرجوازية لينضم الى البروليتاريا ، خصوصا قسم من المنظرين الايديولوجيين ideologicalists البرجوازيين ،

الذى ارتفعوا نظريا بأنفسهم ليصبحوا المتفهمين والواعين
بالحركة التاريخية ككل .

لقد بحثت كل الطبقات السابقة وهى تتبوأ عرش
السلطة عن تحصين وضعها المكتسب من خلال اخضاع المجتمع
بأجمله لأوضاع ملكيتهم الخاصة ولن يمكن للبروليتاريين أن
يصبحوا سادة القوى الانتاجية مالم يقولوا بالغاء نمط الملكية
السابق ، وبالمثل كل نمط سابق للملكية فليس لدى
البروليتاريين أى شئ كى يحصنوه ويحموه ، وسألتهم هى
تدمير كل ضمانات وتحصينات الملكية الفردية السابقة .

لقد كانت كل الحركات التاريخية السابقة مجرد حركات
أقليات أو للدفاع عن مصالح الأقليات لكن الحركة البروليتارية
حركة واعية بذاتها ومستقلة معبرة عن الأغلبية العريضة
ولن يمكن أن تنشط البروليتاريا وهى الطبقة الدنيا فى
المجتمع القائم ولن ترتفع بذاتها دون أن تتطاول شظايا الطبقة
العليا الفوقية للمجتمع الحاكم فى الهواء . .

نتتبع فى وصف الأدوار العامة لتطور البروليتاريا ،
حروب أهلية كامنة ، ثور داخل المجتمع القائم ، وبوصولها
لنقطة اندلاعها فى ثورة علنية ، حيث يطيح العنف
بالبرجوازية يتم اقامة حكم البروليتاريا .

كما رأينا ، وحتى الآن ، يقوم شكل المجتمع وتنظيمه
على التناقض والعداء بين الطبقة الحاكمة المضطهدة والطبقة
المقهورة . ولكن اضطهاد طبقة يتطلب تأكيدا على شروط
معينة يمكن فى ظلها استمرار وجودها العبودى . فالعبد فى
مرحلة العبودية ، ارتفع بنفسه لمصاف عامة الشعب ، بالمثل
رتب البرجوازي الصغير نفسه فى ظل الاستبداد الاقطاعى
ليتطور الى برجوازي . العامل الحديث ، على النقيض ، بدلا

من الارتفاع مع تقدم الصناعة يفرق نحو أعماق القاع الأدنى من شروط البقاء والعيش الملائم لطبيعته الخاصة . يصبح فقيرا معوزا ، ويتطور الفقر والاملاق بأسرع من تطور الثروة وزيادة السكان . ويصبح ذلك دليلا على عدم صلاحية البرجوازية وملائمتها لتكون الطبقة الحاكمة فى المجتمع ، وحتى تفرض شروط وجودها كقانون مسيطر على المجتمع . وهى غير صالحة للحكم لانها لم تعد تقنع بالوجود تحت استعبادها من خلال عبوديته . ولانها لم تعد تقدر على تركه يفرق لمثل هذه الحالة . حيث ينبغى عليها اطعامه بدل أن يطعمها العامل . لم يعد المجتمع قادرا على أن يحيا فى ظل هذه البرجوازية ، بكلمات أخرى لم يعد وجود البرجوازية متسق مع المجتمع .

الشرط الجوهرى لوجود ولحكم الطبقة البرجوازية . هو تكوين وزيادة رأس المال وشرط وجود رأس المال وزيادته هو العامل المأجور وبقاء العامل المأجور فى منافسة مع العمال بشكل عام والدافع الثورى لتطور الصناعة وهو البرجوازية . أحل بدلا منه انعزالية العمال وتفريقهم نتيجة لمنافسة اتحادهم الثورى وتجمعهم . ولذا ، فإن تطور الصناعة الحديثة ، هو الذى سحب البساط من تحت أقدام البرجوازية ، والقاعدة التى تدور عجلة انتاجها فوقها وتتجمع ملكية البرجوازية لها . فما تنتجه البرجوازية فوق كل شئ . هو أولئك الذين يحفرون قبرها . وكما أن انهيار البرجوازية حتمى ، فإن انتصار البروليتاريا حتمى .

قراءة رقم (٢)

كارل ماركس : المادية التاريخية

« هذا هو عرض ماركس الأصلي حول كيفية توصله للمادية التاريخية . وتلخيصه لهذه المسألة » (١) .

● كانت الدعاوى القضائية التي رفعت في Rhenish Landtag ضد سرقات الأخشاب ، وتقسيم ملكية الأراضي ، والجدل الرسمي الذي أثاره الهر فون سكاپر Von schapar مسئول مقاطعة الراين ، ضد جريدة رايننج دايتونج Rhenish Zeitung حول وضعية فلاحى منطقة الموزيل واختتمه بمناقشة التجارة الحرة واجراءات الحماية الاقتصادية (الجمارك) كانت هى فرصتى للانشغال بالمسائل الاقتصادية وعلى صعيد آخر عندما كانت تحركنى رغبة حسنة فى ذلك الوقت للمضى قدما نحو تحصيل معرفة ذات وزن حول الموضوع . كان هناك صوت مسموع فى جريدة رايننج دايتونج للاشتراكية والشيوعية الفرنسية ميسومة بمسحة فلسفية باهتة . فأعلنت رفضى لهذه الهواية ولكننى اقتصعت صراحة وفى نفس الوقت فى مناظرة فى جريدة زايونج بأن دراستى السابقة لاتسمح لى بمغامرة الحكم على مضمون الاتجاهات الفرنسية . بدلا من ذلك فهمت جيدا خداع

(١) من مقدمة للاسهام فى نقد الاقتصاد السياسى (١٨٥٩) .

مديرى جريدة رايننج زايونج الذين اعتقدوا أن بإمكانهم من خلال صياغة اتجاه ضعيف فى جزء من الصحيفة ، حماية وتأمين اغفال حكم الموت الذى صدر ضدها ، كى ينسحبوا من الاطار العام للدراسة . ولذا شرعت فى حل الشكوك التى انتابتنى بمراجعة نقدية لفلسفة الحق الهيكلية ، وهو العمل الذى ظهرت مقدمته عام ١٨٤٤ ونشر بباريس . أدت استنتاجاتى أنه لايمكن ادراك العلاقات القانونية وبالمثل أشكال الدولة وفهمها من ذاتها ولا من خلال مايسمى بالتطور العام للعقل الانسانى بل من خلال الوصول لجذورها فى الظروف المادية للحياة وأن الجوهر Sum total الذى جمعه هيجل متبعاً المفكرين الانجليز والفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، تحت اسم «المجتمع المدنى civil society» يمكن البحث عن هذا الجوهر فى تحليل وتشريح المجتمع المدنى فى الاقتصاد السياسى ، والأبحاث التى بدأتها فى الاقتصاد السياسى ابان اقامتى بباريس مضيت فى الاستثمار فيها ببروسل Brussels ابان هجرتى تبعاً لأمر بطردى أصدره M. Buizot جيزو .

يمكن توظيف النتيجة العامة التى توصلت اليها كخيط رفيع موجه لدراساتى . ويمكن صياغتها كالتالى : يدخل البشر خلال انتاجهم فى علاقات محددة للانتاج تتوافق مع الدرجة والمرحلة المحددة لتطور قواهم المادية الانتاجية . والنتيجة الكلية لهذه العلاقات الانتاجية تكون وتشكل البناء الاقتصادى للمجتمع ، والاساس الواقعى والتى يقام عليه البناء الفوقى super structure القانونى والسياسى والتى يتماثل معها أشكال محددة للوعى الاجتماعى . ان نمط انتاج الحياة المادية هو الذى يقرر عملية الحياة الاجتماعية ، السياسية والعقلية بوجه عام . ليس وعى الأفراد هو الذى

يحدد وجودهم بل على العكس ، ان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم وعند مرحلة معينة من تطورهم تدخل القوة الانتاجية المادية للمجتمع فى صراع مع علاقات الانتاج القائمة ، أو فى تعبير قانونى تدخل فى صراع مع علاقات الملكية التى كانت تعمل فى اطارها حتى الآن من أشكال تطور هذه القوى الانتاجية تتحول هذه العلاقات الى أغلال تكبل تلك القوى عندئذ تبدأ حقبة الثورة الاجتماعية • ومع تغير الأساس الاقتصادى يتحول مجمل البناء الفوقى بسرعة أو ببطء واذا أخذنا فى الاعتبار مثل هذه التحولات ينبغى التمييز بين التحولات المادية فى الظروف الاقتصادية للانتاج والتى يمكن تعديدها بدقة العلم الطبيعى ، وبين التحولات فى الصيغ القانونية ، السياسية ، الدينية الأخلاقية أو الفلسفية باختصار ، الصيغ الايديولوجية التى يصبح الناس فيها على وعى بالصراع ويحسموه بالقتال تماما كما رأينا أن الفرد ليس هو مايرتثيه ويعتقده أنه هو ، بالمثل لايمكن الحكم على مثل هذه المرحلة من التحولات من خلال وعيها ذاته ، على العكس ، ينبغى تفسير هذا الوعى على الأصح من تناقضات الحياة المادية ، من الصراع القائم بين القوى الانتاجية الاجتماعية وعلاقات الانتاج لا يغنى أبدا أى نظام اجتماعى قبل كل القوى الانتاجية التى بالنسبة له تعد بمثابة الغرفة التى بداخلها قد تطور ، ولن تظهر أية علاقات انتاجية أرقى قبل أن تنضج الشروط المادية لوجودها فى رحم المجتمع القديم ذاته • ولذا ينبغى على الانسانية أن تنذر نفسها فقط لمثل هذه المهام بقدر مايمكنها حلها بينما بمزيد من الاقتراب من المسألة ، نجد دائما أن المهمة ذاتها تبرز فقط عندما توجد الشروط المادية لحلها تماما أو على الأقل فى طور التكوين • وفى خطوط عريضة يمكن تصنيف أنماط الانتاج الآسيوية

القديمة ، الاقطاعية والبرجوازية الحديثة كمراحل تقدمية
فى التكوين الاقتصاى للمجتمع • ان علاقات الانتاج
البرجوازية هى الشكل الاخير العدائى للعملية الاجتماعية
للانتاج - عدائية ليس بمعنى العداء الفردى بل بمعنى
منبثق من الشروط الاجتماعية لحياة الأفراد ، فى نفس الوقت
فان تطور القوى الانتاجية فى رحم المجتمع البرجوازى يخلق
الشروط المادية لحل هذا العداء • لهذا السبب فان هذا
التكوين الاجتماعى يوضح تماما مرحلة ما قبل التاريخ
بالنسبة للمجتمع الانسانى -

قراءة رقم (٣)

كارل ماركس : تقديس السلعة ولغزها

« هذا هو أحد موضوعات ماركس الرئيسية في تفسيره السوسيولوجي sociological للمقولات الاقتصادية والتي يبحث فيه كي يبرهن على كون السلع منتجات لأيدى الانسان، وهى تتبوأ مركز سلطة وسيطرة وتقود الانسان تبعا لقوانينها الخاصة (١) » .

● تظهر السلعة للوهلة الأولى شيئا عاديا عابرا ومفهوما بذاته ويوضح تحليلها أنها شيء معقد جدا ، يعج بالالفاز الميتافيزيقية والاحاجى الثيولوجية theological . لا يوجد أى شيء غامض او ملفز عنها للمدى الذى تكون فيه ذات قيمة فى الاستعمال . سواء تظهر اليها من زاوية قدرة خصائصها على اشباع الرغبات الانسانية أو من زاوية ان خصائصها من نتاج العمل الانسانى ومن الواضح كوضوح شمس الظهيرة . ان الانسان من خلال عمله التصنيعى يغير من أشكال المواد التى تخرجها الطبيعة . لتصبح ذات نفع وفائدة له . على سبيل المثال ، يتغير شكل الخشب بتصنيع منضدة منه . ومع ذلك تظل المنضدة بالنسبة للجميع ذلك الشيء المألوف الذى يرى كل يوم وهو الخشب . ولكن بمجرد

(١) من رأس المال مج ١ باب فصل ٤ الترجمة الانجليزية (ارنست اوتزمان) ، شيكاغو ١٩٠٦ .

أن تصبح كسلعة ، تتغير الى شئ متعال transcendent
فهى لم تقف بقدميها فقط على الأرض ، بل بعلاقتها مع
باقى السلع الأخرى ، تقف على راسها ، تطلق من مخها
الحشبي أفكارا غريبة وخيالية اشد غرابة ودهشة من عملية
(تصنيع المنضدة) ذاته .

لا يتبدى الطابع الوثنى للسلع لهذا السبب ، فى قيمة
استعمالها . ويقدر ضئيل تنبع من طبيعة العوامل المحددة
للقيمة . ولذا يأتى فى المقام الأول أيا كان تنوع الأنواع
المفيدة للعمل ، او الانشطة الانتاجية فهى حقيقة فسيولوجية
physiological أنها وظائف للكائن الحى ، وكل واحدة
من هذه الوظائف مع تعدد طبيعتها وشكلها تعتبر فى الأساس
استهلاكا للمخ البشرى . الأعصاب . العضلات وفى المقام
الثانى وفيما يختص بالقاعدة والاساس للتحديد الكمي للقيمة
اسميا هو مدة هذا الاستهلاك (للمخ) او كمية ومقدار
العمل ، فمن الواضح تماما وجود اختلاف ملموس بين كمية
العمل ونوعيته . ينبغى أن تكون مدة العمل المستهلكة لانتاج
وسائل الحياة المعيشة موضع اهتمام البشرية فى كل حالات
وأوضاع المجتمع ، ومع ذلك لاتعظى بنفس القدر من
الأهتمام فى المراحل المختلفة للتطور . وختاما ، يتخذ عمل
الأفراد صيغة اجتماعية من اللحظة التى يعمل فيها أحدهم
لحساب الآخر .

من أين اذن ينبثق الطابع المبهم لنتاج العمل ، بمجرد
اتخاذ شكل السلع ؟ ينبثق بوضوح من شكل السلعة ذاته .
حيث يعبر عن نوعية كل صنوف العمل الانسانى موضوعيا
عن طريق كون جميع منتجاتها ذات قيمة متساوية ، ولكن
قياس جهدة وقوة العمل المستهلكة من خلال مدة ذلك

الاستهلاك تتخذ شكل القيمة الكمية لمنتجات العمل ، وفى النهاية . تتخذ العلاقات المتبادلة بين المنتجين والتى يؤكد الطابع لعملهم ذاته فى اطارها ، تتخذ شكل العلاقة الاجتماعية بين المنتجات .

لهذا تعد السلعة شيئا غامضا مبهما ، حيث يتبدى فيها الطابع الاجتماعى لعمل الأفراد كطابع موضوعى مطبوع على منتجات عملهم ولان علاقة المنتجين بالنتيجة الكلية لعملهم الخاص تتمثل لهم باعتبارها علاقة اجتماعية موجودة وقائمة بين نتاج عملهم وليس بين الأفراد المنتجين أنفسهم وهذا هو السبب كى تصبح منتجات العمل سلعا ، أشياء اجتماعية وفى نفس الوقت من المحتمل ادراك خواصها وربما عدم ادراكه بالحواس . بنفس الطريقة تدرك الضوء الصادر من أى هدف ليس بوصفه منبها ومثيرا ذاتيا لعصبنا البصرى ، بل كشكل موضوعى لشيء ما خارج العين ذاتها ولكن فى عملية الرؤية ، يوجد فى كل الأحداث ، مسار فعلى للضوء من شيء لآخر ، من الموضوع الخارجى الى العين . فهناك علاقة فيزيائية بين الأشياء الفيزيائية لكن الأمر مختلف مع السلع فوجود الأشياء بوصفها سلعا وعلاقة القيمة بين نتائج العمل والتى تطبع وجودها باعتبارها سلعا ليس لها مطلقا أية رابطة بخواصها الفسيولوجية وبعلاقاتها المادية المنبثقة منها . بل ان وجود علاقات اجتماعية معينة بين الأفراد ، هو الذى يفترض لديهم الشكل الخيالى Fantastic لوجود علاقة بين الأشياء . ولكى نجد نظيرا لذلك ، ينبغى اللجوء الى تلك المناطق ذات السديم المعتم للعالم الدينى حيث تظهر فى ذلك العالم نتائج المخ البشرى باعتبارها موجودات مستقلة وتنفخ فيها الحياة ، وتدخل فى علاقات مع بعضها البعض بل مع الجنس البشرى وهكذا الحال فى عالم السلع مع نتائج أيدي الانسان . وهذا

مأسميه تقديس الذى يرتبط بمنتجات العمل ، حالما تنتج كسلع ، والذى يكون متلازما مع انتاج السلع ولا يمكن انفصاله عنها .

وهذا التقديس للسلع له مصدره ، كما أوضح التحليل السابق ، فى الطابع الاجتماعى الخاص للعمل الذى ينتجهم .

وعلى سبيل الحكم العام ، تصبح الأدوات والأشياء المستعملة والمفيدة سلعا . فقط لأنها منتجات عمل أفراد معينين او مجموعات من الأفراد الذين يقومون بعملهم بشكل مستقل أحدهما عن الآخر . والنتيجة اجمالية لعمل كل هؤلاء الأفراد المعينين تشكل العمل الكلى للمجتمع وطالما لا يدخل المنتجون فى ارتباط اجتماعى مع بعضهم البعض حتى يقوموا بتبادل منتجاتهم ولا يوضح الطابع الاجتماعى لعمل كل منتج ذاته الا فى فعل المبادلة والمقايضة . وفى كلمات أخرى ، يؤكد عمل الفرد ذاته كجزء من عمل المجتمع فقط بوسائل العلاقات التى يؤسسها فعل التبادل مباشرة بين المنتجات ، وغير مباشرة من خلالها بين المنتجين . وبالنسبة للمنتجين لذا تظهر العلاقات التى تربط عمل فرد واحد بعمل باقى الأفراد ليس كعلاقات اجتماعية مباشرة بين الأفراد فى العمل ولكن كما هى حقيقة علاقات مادية بين الأفراد وعلاقات اجتماعية بين الأشياء وتكتسب منتجات العمل بوصفها قيما فقط من خلال تبادلهالها ومضلعاجتماعيا موحدا ومتميزا عن أشكالها المختلفة ووجودها كموضوعات للانتفاع والاستخدام . وهذا التقسيم للشئ المنتج الى شئ مفيد والى قيمة يصبح مهما فقط عندما يكتسب التبادل مثل ذلك الامتداد بأن الأدوات النافعة يتم انتاجها بفرض تبادلها ، وطالبعها كقيم ينبغى اذن ان يوضع فى الاعتبار

مسبقا ابان عملية انتاجها ومن هذه اللحظة يكتسب عمل الفرد المنتج طابعا مزدوجا اجتماعيا يتمثل الجانب الأول لهذا الطابع فى ضرورة أشباعه لحاجة اجتماعية محددة باعتباره نوعا مفيدا ومحددا من العمل ، وبذا يتخذ وضعه كجزء وقسم من مجمل عمل الجميع ، وكفرع من التقسيم الاجتماعى للعمل والذي ينبثق تلقائيا . والجانب الثانى ، هو امكانه اشباع الحاجات المتنوعة للفرد المنتج نفسه ، فقط بالقدر الذى يصبح عنده التبادل المشترك لكل أنواع العمل الخاص المفيد حقيقة اجتماعية راسخة ولذا يصطف العمل الخاص المفيد لكل منتج فى مساواة مع عمل الآخرين - ويمكن فقط ان تصبح معظم أنواع العمل متساوية كنتيجة لاستخلاصها وتجريدها من التفاوتات وعدم المساواة ، او لاختزالها لقاسمها المشترك اى ، استهلاك قوة العمل الانسانية او العمل الانسانى كشيء مجرد ويظهر هذا الطابع الاجتماعى المزدوج لعمل الفرد بالنسبة له عندما ينعكس فى مخه فقط تحت تلك الأشكال التى تلتصق بالعمل فى الممارسة اليومية من خلال عملية تبادل المنتجات وبهذه الطريقة يتخذ الطابع الذى يكتسبه عمله الخاص بكونه مفيدا ونافعا اجتماعيا يتخذ صيغة الشرط بأن الشيء المنتج لاينبغى أن يكون مفيدا ونافعا فقط بل مفيدا للآخرين . والطابع الذى يتصف به بكونه مساويا لكل الأنواع الأخرى الخاصة للعمل ، يتخذ صيغة أن كل الأدوات المختلفة ماديا *physically* والتى هى منتجات العمل، لها كيفية واحدة مشتركة . أى ، أنها ذات قيمة .

اذن . عندما ندخل نتاجات عملنا فى علاقة مع بعضها البعض باعتبارها قيما . ليس لاننا نرى فى هذه الأدوات الأوعية المادية للعمل الانسانى المتجانس . بل العكس تماما ، كلما سويننا من خلال التبادل بين منتجاتنا المختلفة باعتبارها

قيما وبين الاخرى الفعالة ، فنحن نوازي أيضا ونسوى كعمل بشرى بين الأنواع المختلفة للعمل المستهلكة لانتاجها • ونحن لانلتفت أو نهتم بذلك ، رغم اننا نقوم به ولهذا فان القيمة لاتتباهى بملصق يصف ماتكون هى بل تكمن قيمتها على الأصح فى تحويلها كل شئ منتج الى هيروغليفية اجتماعية •

ثم نحاول بعد ذلك اكتشاف هذه الطلاسم وحل رموزها ، لاكتشاف لغز وسر منتجاتنا الاجتماعية ووصف الشئ المنتج الذى تستخدمه واعتباره قيمة ويعد بالتالى نتاجا اجتماعيا تماما كما يحدث مع اللغة • والاكتشاف العلمى الحديث ، بأن نتائج العمل بقدر ماتكون ذات قيمة ، فهى تعبيرات مادية عن العمل الانسانى المستهلك لانتاجها ، فهى تميز فى الواقع حقبة من تاريخ تطور الجنس البشرى وعلى أية حال تبدد الضباب الذى يظهر خلاله الطابع الاجتماعى للعمل ويتبدى لنا باعتباره طابعا موضوعيا للمنتجات ذاتها • فى الحقيقة فى الشكل الخاص للانتاج الذى تتناوله ، وهو انتاج السلع فان الطابع الاجتماعى المميز للعمل الخاص الذى يتم بشكل مستقل ويتكون من مساواة كل نوع من أنواع ذلك العمل تبعا لاعتباره عملا انسانيا ، لهذا السبب يتخذ هذا الطابع شكل القيمة أثناء الانتاج تتبدى هذه الحقيقة للمنتج دون الاشارة واعتبار الاكتشاف السابق لها واعتبارها حقيقة نهائية ، كما أن مع اكتشاف العلم للغازات المكونة للهواء ، يبقى الجو كما هو دون تغيير •

والذى يهم المنتجين ويعنيهم أولا وفوق كل شئ عندما يقومون بتبادل ومقايضة منتجاتهم هو السؤال ، ماكمية المنتجات الأخرى التى يحصلون عليها مقابل منتجاتهم الخاصة؟ بأى نسبة تصبح المنتجات ممكنة التبادل ؟ وعندما تحصل هذه

النسب والكميات من خلال العرف على استقرار وثبات ، يبدو وكأنها تستنبط من طبيعة المنتجات لدرجة أنه على سبيل المثال . يظهر كشيء طبيعي أن طنا واحدا من الحديد يساوي في قيمته اونزتين (*) من الذهب ounce وكما أن مقدار رطل من الذهب ورطل من الحديد رغم خواصهما الفيزيائية والكيميائية المختلفة يظهر أنهما ذو وزن متساو . عندما تستحوذ المنتجات على طابع القيمة . يكتسب هذا الطابع ثباتا واستقرارا من خلال فاعليتها والفاعلية المتجددة لكل منها ازاء الآخر باعتبارها مقادير وكميات من القيمة وتتنوع وتختلف هذه الكميات باستمرار وبشكل مستقل عن ارادة ورؤية وعمل أولئك الذين أنتجوها بالنسبة لهم يتخذ عملهم الاجتماعي الخاص شكلا وصورة عمل الموضوعات التي تتحكم في المنتجين بدلا من تحكمهم هم فيها . فهي تتطلب انتاجا متطورا تماما للسلع وينبتق من غرضون الخبرة التراكمية بمفردها الاقتناع العلمي بأن كل الأنواع المتعددة للعمل الخاص . والتي يتم القيام بها مستقلة عن بعضها البعض . أو حتى كفروع متصلة التطور للتقسيم الاجتماعي للعمل ، يتم اختصارها دوما الى نسب ومقادير كمية يتطلبها المجتمع فلماذا ؟ لانه وسط كل العلاقات التبادلية المرضية والمتقلبة دوما بين المنتجات يؤكد وقت العمل الضروري اجتماعيا لانتاجها . يؤكد ذاته بقوة باعتباره قانونا مهيمنا من قوانين الطبيعة . مثل قانون الجاذبية الذي يؤكد ذاته عندما يسقط منزل على مرأى منا ولذا فان تحديد أهمية القيمة باستخدام وقت العمل يعد لغزا ، مختبأ خلف التموجات والتقلبات في القيم النسبية للسلع ومع ذلك فان اكتشافه بازالة مجمل المظهر العرضي عن تحديد أهمية ومقدار القيمة للمنتجات ،

(★) اونزة وحدة موازين تساوي ٢٨,٣٥ جرام (المترجم) .

لايفير النمط الذى يتبدى من خلاله هذا التحديد والتعريف .

يتخذ تفكير المرء فى صور وأشكال الحياة الاجتماعية .
وبالتالى تحليله لها ، يتخذ مسارا معاكسا مباشرة للأشكال
والصيغ التى تتخذها فى تطورها التاريخى الفعلى . فالمرء
يبدأ حيث تنتهى بعد انقضائها . ونتائج عملية التطور فى
متناول يده . فالخصائص التى تميز المنتجات كسلع والتى
يعد تأسيسها أمرا ضروريا ومبدئيا لتداول السلع ، قد
اكتسبت الثبات والاستقرار كأشكال طبيعية ومفهومة بذاتها
للحياة الاجتماعية . والانسان لا يبحث عن كشف وحل غموض
طابعها التاريخى لانها راسخة وثابتة أمام ناظره ، بل يبحث
عن مغزاها - بالتالى فان تحليل اسعار السلع هو فقط الذى
يقود الى تحديد حجم القيمة ، ونقد كان التعبير الشائع عن
كل السلع بالنقود هو الذى قاد الى اقامة طابعها باعتبارها
قيما . وعلى أية حال فان الشكل المطلق للنقود الذى يتخذه
عالم السلع هو الذى يحجب فعليا الخاصية الاجتماعية للعمل
الخاص بدلا من اظهاره ، والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد
المنتجين وعندما تقرر أن المعاطف والأحذية على علاقة مع
خيوط الكتان ، لانها التجسيد الكونى للعمل والجهد الانسانى
المجرد يظهر عدم معقولية هذه العبارة بذاته . ومع ذلك
عندما يقارن المنتجون للمعاطف وللأحذية أدواتهم بالكتان ،
أو أى أدوات مماثلة للذهب أو الفضة ، باعتبارها مرادف
كونى ، فانهم يعبرون عن العلاقة بين عملهم الخاص والجهد
الجمعى للمجتمع فى نفس الشكل اللامعقول .

تتكون مقولات الاقتصاد البرجوازي من قبل هذه

الأشكال . فهي صيغ للتفكير تعبر بمصداقية اجتماعية عن ظروف وعلاقات نمط انتاج محدد تاريخيا ، أى انتاج السلع . فالتموض الكلى للسلع والطابع الوثنى الذى يكتنف منتجات العمل بمجرد اتخاذها شكل السلع ، يكتفى لهذا السبب حالما تصل الى أشكال أخرى من الانتاج .

قراءة رقم (٤)

كارل ماركس : النزعة التاريخية

للتراكم الرأسمالي

«يجسد هذا النص تنبؤ ماركس بالتطور الاقتصادي للمجتمع انتاج السلعة ومحصلته النهائية (١)» .

● ما الذى يتحول اليه التراكم البدائى لرأس المال بذاته ، أى أصوله وبذوره التاريخية ؟ بقدر ما أن تحول العبيد والأقنان الى عمال مأجورين ليس تحولا فوريا ومباشرا ، لذا فانه مجرد تغيير فى الشكل . ويعنى فقط مصادرة والغاء المنتجين الحاليين . أى تصفية الملكية الخاصة القائمة على عمل مالكيها .

تعد ملكية العامل الخاصة لوسائل انتاجه هى الأساس الذى تقوم عليه الصناعة الصغيرة والصناعة الصغيرة بدورها شرط جوهري لتطور الانتاج الاجتماعى والفردية الحرة للعامل نفسه وبطبيعة الحال ، يوجد هذا النمط الصغير للانتاج فى ظل الرق ، القنانة Serfdom وحالات التبعية الأخرى . ولكنها تزدهر ويطلق عنان مجمل طاقتها فقط حيث يكون العامل هو المالك الخاص لوسائله الخاصة للعمل والتي يعمل بها بنفسه : الفلاح مالك للأرض التى يفلحها ، الحرقى

(١) رأس المال مج ١ فى ٢٢ الترجمة الانجليزية .

مالك للأدوات التى يتعامل معها كقنان • يفترض هذا النمط للإنتاج مسبقا توزيع وتقسيم الأراضى . وأيضا الوسائل الأخرى للإنتاج • • وعند مرحلة معينة من التطور ينتج القوى المادية التى ستؤدى الى تخلل هذا النمط ذاته ينبثق من هذه اللحظة قوى جديدة وميول جديدة وسط المجتمع . لكن تكبلها وتقمعها التنظيمات الاجتماعية القديمة • لذا ينبغي إبادتها وقد ألغيت بالفعل •

والغاؤها • بتحويل وسائل الإنتاج الفردية المبعثرة والمفتتة الى أخرى ذات تركيز اجتماعى وبتحويل الملكية القزمية للأغلبية الى ملكية ضخمة للأقلية . وبتجريد الجموع الواسعة من الشعب من أراضيه ، ومن وسائل العيش والعمل ، يشكل هذا التجريد والمصادرة المؤلة الرهيبة لجموع الشعب فاتحة وبداية لتاريخ رأس المال • فلقد استأصلت جذور الملكية الخاصة التى تتكسب بذاتها ، القائمة على انصهار العامل المنعزل المستقل مع ظروف عمله كما يقال ، وخلفتها الملكية الخاصة الرأسمالية ، التى تتكىء على استغلال العمل الحر للآخرين شكليا أى تعتمد على العمل المأجور •

بمجرد أن تعيد عملية التحول هذه تركيب وبناء المجتمع القديم كلية ومن القمة للقاع ، وحالما يتحول العمال الى بروليتاريين Proletarian وتتحول وسائل عملهم الى رأس مال Capital ويقف نمط الإنتاج الرأسمالى على قدميه ، عندئذ يتخذ شكلا جديدا التأميم الأوسع مدى للعمل Socialisation والتحويل الأعماق للأرض والوسائل الأخرى للإنتاج . بالاضافة الى المصادرة للملكيات الخاصة ، والذى سيصادر هنا ليس بحال العامل الذى يعمل لحسابه الخاص ، بل الرأسمالى الذى يستغل العديد من العمال • وتنفذ هذه

المصادرات بفعل القانون الاصيل للانتاج الرأسمالى ذاته من خلال تركيز رأس المال . دائما يفتال رأسمالى واحد الكثيرين .

ويتطور الشكل التعاونى لدولاب العمل فى مدار دائم الاتساع يدا بيد مع ذلك التركيز والتجريد والمصادرة للعديد من الرأسماليين على ايدى قلة منهم . والتطبيق التكنولوجى للعلم وجعل كل وسائل الانتاج ذات طابع اقتصادى باستخدام العمل الاجتماعى المعقد . وتوريط كل الشعوب فى شرك السوق العالمى . بالاضافة لهذا الطابع العالمى للنظام الرأسمالى .

وبمحاذاة الاضمحلال المتصل لعدد وحجم أقطاب الرأسمال. الذين يغتصبون ويحتكرون كل مزايا وثمار عملية التحول هذه . يتزايد حجم واعداد البؤساء المضطهدين . ويتسع نطاق العبودية . الانحلال والتفسخ . الاستغلال . ولكن ينمو معها أيضا الروح الثورية للطبقة العاملة التى تتزايد دوما فى تعدادها . التزامها . وحدنها . وتنظيمها من خلال آليات mechanism عملية الانتاج الرأسمالى ذاته . ويصبح احتكار رأس المال قيذا وأصفادا لنمط الانتاج . والذى نشأ وانبثق وازدهر بجواره وفى ظله وكنفه . ويصل تمرکز وسائل الانتاج وتأميم العمل فى النهاية الى نقطة يصبح عندها غير متسق مع الغلاف الرأسمالى لها ويتمزق هذا الغلاف اربا . ويقرّع ناقوس الملكية الرأسمالية الخاصة . ويتم تجريد أولئك المستغلين من ملكياتهم .

قراءة رقم (٥)

كارل ماركس : الدين والاقتصاد

«يطبق ماركس في هذا النص المادية التاريخية على الدين» *

● العالم الدينى هو مجرد انعكاس لعالم الواقع ، لهذا فان المجتمع القائم على انتاج السلع ، والذي يدخل المنتجون فيه وبشكل عام فى علاقات اجتماعية مع بعضهم البعض من خلال التعامل مع منتجاتهم باعتبارها سلعا وقيما ، ووفقا له يتم اختزال عملهم الفردى واختصاره مستوى العمل الانسانى المتجانس homogeneous تعتبر المسيحية أكثر الأشكال الدينية ملائمة لهذا المجتمع ، لعبادتها للانسان المجرد ، وبوجه خاص فى تطوراتها البرجوازية ، البروتستانتية (١) Protestantism الربوبية belsm . نجد فى نمط الانتاج الآسيوى القديم وأنماط الانتاج القديمة الأخرى ان تحول الأفراد الى منتجى سلع يحتل موقعا ثانويا ، وتزايد أهميته باقتراب الجماعات البدائية من انحلالها . حيث تتواجد الأمم التجارية ، تسمى كذلك تقريبا ، فى العالم القديم بين ثناياه وغضاريفه فقط ،

(١) يجدر الإشارة لمحاولة ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) عالم الاجتماع فى دراسته (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) حيث حاول ربط النظام الاقتصادى الرأسمالى بالمسيحية فى نوبها البروتستانتى ويربط بين التحرر الدينى الذى تجسده البروتستانتية والتحرر الاقتصادى الذى تجسده الرأسمالية وكونها محاولة اصطفت بالصفة العلمية لا يؤدى للتعامل معها بكونها علما وبالمثل تنصف بمحاولة ماركس (المترجم) .

كارل ماركس : فى التآليد الشفصية الفردية ، والقوى الطبقية

«النصر التالى أجد الموضوعات الرئيسية القليلة من كتابات ماركس التاريخية . ١٨ برومير لويس نابليون بونابرت . يطبق فيه نظريته التاريخية على حدث معاصر هام . اقتبس القسمين الأول والثانى من مقدمة الطبعة الثانية . والمجزء الباقى من نص الكتاب ذاته» .

● يوجد من بين الكتابات المتعلقة بنفس الموضوع الذى اتناوله وفى نفس الحقبة التاريخية التى يبحث فيها كتابى تقريبا . يوجد فقط عملاق يستحقان الإشارة والتنويه عنهما . كتاب فيكتور هوجو Victor Hugo نابليون الصغير Napoleon The Little وكتاب برودون Proudon الانقلاب coup d'etat

أغرق هوجو نفسه فى تيار قدح لاذع وبارع ضد الناشر المسئول عن كتاب الانقلاب . ولكن الحدث ذاته ظهر فى كتابه باعتباره مفاجأة مذهلة . ورأى فيه مجرد العمل العنيف لشخص بمفرده . ولم يدرك أنه يجعل بذلك هذا الفرد عظيما بدلا من جعله صغيرا حيث يعزو إليه قوة المبادرة الفردية كما لو لم يكن له نظير فى التاريخ العالمى وبحث

برودون من جانبه لتصوير الانقلاب كنتيجة لتطور تاريخي سابق دون ملاحظة كيف أن تفسيره للانقلاب يتحول الى تبرير تاريخي لبطل الانقلاب وهكذا وقع فيما نسميه خطأ المؤرخين الفرديين . ولكننى على النقيض من ذلك برهنت كيف أن الصراع الطبقي فى فرنسا خلق الظروف والعلاقات التى جعلت بإمكان أصحاب القدرة المتوسطة والمهرجين القيام بدور البطل .

ذكر هيجل فى موضع من احدى كتاباته أن جميع الأحداث والشخصيات ذات الأهمية انعطيفة فى تاريخ العالم تحدث وكأنها تتكرر مرتين . وقد نسي هيجل أن يضيف : فى المرة الأولى كمأساة ، والثانية كملهاة . كوسيدير caussidlere فى دور دانتون ، لويس بلانك فى دور روبسبير . جبل (١) عام ١٨٤٨ - ١٨٥١ فى دور جبل (يسار) ١٧٩٣ - ١٧٩٥ وابن الأخ فى دور العم (٢) وتحدث نفس الصورة الهزلية (الكاريكاتورية Caricature) فى الظروف المتعلقة بالطبعة الثانية من برومير الثامن عشر .

البشر يصنعون تاريخهم . لكنهم لا يصنعوه كما يريدون تماما . فى ظل الظروف التى يختارونها بأنفسهم . بل يصنعوه فى ظل ظروف وأوضاع معطاة مباشرة وموروثة من الماضى ومتسامية عليهم . وتثقل كاهلهم تقاليد وأعراف كل الأجيال المندثرة كأحلام الليل فى مخ الانسان عند المنام تماما عندما يبدو أنهم مستغرقون فى تلوين أنفسهم والأشياء المادية ، وخلق شئ لم يوجد من قبل ، بالتحديد فى تلك

(١) كتلة يسار الثورة الفرنسية . واكثر كليلها حذرية (المترجم) .

(٢) ابن الأخ هنا هو لويس بابرث حملته الأحداث التى تالت عقب ثورة ١٨٤٨ الى منصة الحكم رغم هزلية شخصيته ، العم هو نابليون بونابرت الشخصية التى صانت منجزات الثورة الفرنسية . (المترجم) .

الفترات من الأزمة الثورية يستحضر البشر بشغف أرواح الماضي لتكون في خدمتهم ، مستعيرين أسماءها ، شعاراتها ، أزياءها ليعرضوا المشهد الجديد لتاريخ العالم بهذا الزمن المقنع المبجل وبهذه اللغة المستعارة . هكذا ارتدى لوثر قناع الرسول بولس ، وارتدت ثورة (١٧٨٩ - ١٨١٤) على التوالي قناع الجمهورية الرومانية ثم الامبراطورية الرومانية ، ولم تتعلم ثورة ١٨٤٨ سوى المحاكاة الهزلية ، تارة لثورة ١٧٨٩ ، وأخرى لتقاليد الثورة أعوام ١٧٩٣ حتى ١٧٩٥ . وهكذا فان المبتدئ بتعلم لغة جديدة يترجم تعبيراتها دائما الى لغته الأصلية ، لكن يمكنه استيعاب روح اللغة الجديدة واستخدامها بطلاقة فقط عندما يشق طريقه فيها دون الرجوع الى لغته القديمة . بل وعندما ينسى لغته الأصلية أثناء استعمال اللغة الجديدة .

يكشف فحص هذه التوسلات الى موتى تاريخ العالم عن اختلاف بارز - فكامل دي موليات ، دانتون ، روبسبير ، سان جوست ، نابليون . والأبطال وكذلك الأحزاب وجماهير الثورة الفرنسية الأولى قد أنجزوا مهمة عصرهم وهم يرتدون أزياء رومانية ويستخدمون عبارات رومانية ، مهمة المجتمع البرجوازي الحديث والمتحرر والصاعد . فاذا كان الأوائل فقد مزقوا الأساس الاقطاعي لاشلاء ، واجتثوا الرؤوس الملاقطاعية التي نبتت عليه . فان نابليون قد أوجد من جانبه الآخرين داخل فرنسا ، الظروف والأوضاع التي في ظلها فقط يمكن تطوير المنافسة الحرة ، واستثمار الملكية المفتتة للأرض . وتوظيف القوى المنتجة الصناعية الصاعدة للأمة وخارج الحدود الفرنسية جرف في كل مكان المؤسسات الاقطاعية بعيدا ، بقدر ما كان ضروريا لاعداد بيئة وأحوال ملائمة دوما في القارة الاوروبية للمجتمع البرجوازي في

فرنسا - بمجرد اقامة شكل المجتمع الجديد ، توارى عمالقة الزمن القديم ومعها تلك الرومانية المتبعثة من قبورها - أقران بروتوس ، القديسون المدافعون عن العامة ، سادة المناير أبطال الوطن أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، ويوليوس قيصر نفسه ، وأنجب المجتمع البرجوازى فى واقعه الرصين المعبرين الحقيقيين عنه والناطقين بلسانه ، أمثال ، ساي ، كموزات ، رويال - كولار ، بنيامين كونستانت جيزوت . وكان قادته العسكريون الحقيقيون يجلسون خلف مكاتب المحاسبة وكان لويس الثامن عشر براس خنزير وغرائزه هو القائد السياسى لذلك المجتمع البرجوازى . وهذا المجتمع الذى استغرقه تماما انتاج الثروة وصراع المنافسة السلمى ، لم يعد يدرك ان انتاج الثروة وصراع المنافسة السلمى لم يعد يدرك ان أشباع العصر الرومانى تسهر بجانب مهده . ورغم عدم بطولية هذا المجتمع كآى مجتمع برجوازى ، الا ان ولادته ووجوده اقترن بالبطولة . التضحية الارهاب ، الحرب الأهلية ، الحروب الخارجية من أجل الشعب . ووجد مصارعوه المستعبدون *Gladiators* فى التقاليد الكلاسيكية الصارمة للجمهورية الرومانية المثل والصيغ الفنية واوهام خداع الذات الذى هم بحاجة اليها ليحجبوا ويخفوا عن انفسهم القصور البرجوازى لضمون صراعاتهم وللاحتفاظ بحماستهم عند مستوى عال من المأساة التاريخية . وعلى هذا النحو وعند مرحلة أخرى من التطور ، قبل قرن ، أستعمار كرومويل *Cromwell* والشعب الانجليز من العهد القديم اللغة ، الاهواء الضرورية لثورتهم البرجوازية وعندما تحقق الهدف الحقيقى واكتمل التحول البرجوازى للمجتمع الانجليزى ،

انتزع لوك (١) Locke مكانة (٢) حبا فوق وخلفه فى دوره .

انطلقت الثورات البرجوازية كتلك التى فى القرن الثامن عشر ، بسرعة عاصفة من نجاح تلو الآخر ، وتتابع نتائجها المثيرة العاصفة . بدا الناس والأشياء وكأنهم تتوهج ثنائياهم ينتشون ببهجة غامرة . لكن سرعان ماتخبو وتنطفأ حالما تصل لذروتها . فتكتنف المجتمع حالة احباط قبل أن يتعلم بامعان وهدوء كيف يتمثل ويستوعب دروس ونتائج فترة هياجه وانتفاضته . وعلى الجانب الآخر ، فان الثورات البروليتارية . كتلك التى فى القرن التاسع عشر ، تنتقد ذاتها دائما ، تتعرقل فى مسارها بنفسها وتضع المصاعب أمامها . لتعاود اجتيازه بوضوح ولتبدأ الكرة ثانية ، تهزأ بقسوة من نقائص وضعف وخواء محاولاتها الاولى . ويبدو أنها تطرح عدوها أرضا فقط حتى يستمد قوة جديدة من الأرض وينبعث أكثر عنفوانية فى مواجهتها تتراجع بين الفينة والأخرى من قوة أهدافها اللانهائية ، حتى تتمكن من ايجاد وخلق المواقف التى تجعل التراجع أو التحول عنها مستحيلا وحتى تصيح الظروف والأوضاع ذاتها :

«هذه هى رودس وهنا ينبغى أن تقفز» (٣)

الدستور ، المجلس القومى ، الأحزاب الملكية dynastic الجمهوريون المحافظون والثوريون ، أبطال افريقيا ، الوعود الرعدية: للبرامج ، الصفحات البراقة للصحف اليومية ، مجمل الآداب ، الأسماء السياسية ، المكانة العقلية ، القانون المدنى

(١) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فيلسوف انجليزى تجريبى وله نظرية علمية فى المعرفة ومن مؤلفاته « محاولة لدراسة العقل البشرى » .

(٢) حبا فوق أحد أنبياء اليهود الثانويين عاش فيما بين (٦٥٠ - ٦٢٧ ق.م)
المترجم .

(٣) مثل لاتينى مؤداه التاكيد على اثبات القدرة على الفعل والحسم فى اللحظة الحاضرة .

وقانون العقوبات ، الحرية المساواة والاخاء Liberté, égalité, Fraternité
والأحد الثاني من مايو ١٨٥٢ - اختفى
كل ذلك كسراب وأشباح قبل انقضاء سحر ذلك الذى لم يبرهن
حتى لاعدائه أنه ساحر • ويبدو أن النداء الكونى يدوم
فقط للحظة كى يخط بيده ارادته الأخيرة ووصيته على مرأى
من العالم أجمع ليعلن باسم الشعب نفسه كل ما يوجد يستحق
أن يفنى •

لايكفى هذا لان تقول كما يفعل الفرنسيون ، ان أمتهم
أخذت بغتة وعلى غرة • فلن يغفر للأمة أو يصفح عن المرأة
لحظة غفلتها وعدم احتراسها مما عجل باغتصابها لأول مغامرة
ولن تحل طلاس اللغز بمثل هذه الصيغ البيانية ، بل يصاغ
وحسب بشكل مختلف • ويبقى أن نفس كيف أن أمة مكونة
من ٣٦ مليون فرد يمكن أخذها بغتة واستسلامها بلا مقاومة
واحكام قبضة ثلاث محتالين من الطراز الأول على زمام
أمرها •

وفى ظل الملكية المطلقة ، ابان الثورة الأولى تحت قيادة
نابليون ، كانت البروقراطية مجرد أدوات اعداد الطبقة
الحاكمة للبرجوازيين ، وفى ظل عودة الملكية بقيادة لويس
فيليب وفى ظل الجمهورية النيابية أصبحت البروقراطية أداة
للطبقة الحاكمة ، تحاول جاهدة لكسب السلطة لحسابها
الخاص •

حتى سلطة الدولة لم تعد هائمة فى القضاء ، حيث يمثل
بونابرت طبقة ، أوسع طبقة فى المجتمع الفرنسى آنذاك ،
طبقة المزارعين أصحاب الملكيات الصغيرة ••

مزارعوا الملكيات الصغيرة من الجموع الضخمة ، والتي
يعيش أعضاؤها تحت ظروف متشابهة لكن بدون ارتباطهم

بملاقات متنوعة مع بعضهم البعض . فلقد عزلهم نمط انتاجهم عن بعضهم البعض بدلا من ربطهم بملاقات متبادلة . وتزايدت العزلة تبعا لوسائل الاتصال الرديئة فى فرنسا ونتيجة لفقر المزارعين . ولم تسمح حقول الانتاج ، والمملكات الصغيرة بأى تقسيم للعمل فى زراعتها ، ولا بتطبيق العلم . ولذا لم تتح أى تنوع فى تطورها ، ولا وجود مواهب متنوعة وافقت لثراء العلاقات الاجتماعية . وتعد أسرة كل مزارع مكتفية بذاتها غالبا ، حيث تنتج مباشرة الجانب الأعظم مما تستهلكه وتتكسب وسائل معيشتها بالتعامل مع الطبيعة أكثر من التبادل والتواصل مع المجتمع . تتراص مزرعة صغيرة ومزارع وأسرته بجوار مزرعة أخرى صغيرة وفلاح آخر مع أسرته وتشكل القرية من مجموعة صغيرة منهم ، ومجموعة من القرى تشكل مقاطعة وبهذا المنوال تتكون الجموع الضخمة للمجتمع الفرنسى بإضافات بسيطة لمجموعات متماثلة ، فى عملية أكثر شيها بتعبئة البطاطس فى كيس لتشكل من البطاطس . بقدر ما تعيش ملايين من الأسر تحت ظروف اقتصادية واطاع معيشية تفصل ويفترق بها نمط ومصالحهم وثقافتهم عن الطبقات الأخرى ، وتضعهم فى تناقض عدائى مع بقية الطبقات ، بقدر ما يشكلون طبقة . وبقدر ما تكون روابطهم مكانية فقط ، ولا تؤدى هوية مصالحهم واهتماماتهم الى ولادة جماعة ما ، او ايجاد اى رباط قومى او اى تنظيم سياسى بينهم ، فانهم بذلك لا يشكلون طبقة . وبالتالي فهم غير قادرين على فرض مصالحهم الطبقية بأنفسهم ، سواء من خلال المجلس النيابى أو عبر الأعراف المجمع عليها . وهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم . ينبغى أن يمثلهم غيرهم وينبغى فى نفس الوقت أن يظهر ممثلوهم باعتبارها أسيادهم ، كقوة مهيمنة عليهم ، كسلطة حكومية غير محددة

تحميهم من الطبقات الأخرى ، بل وتمنحهم المطر وأشعة الشمس من ملكوتها العلوى • لذا يجد التأثير السياسى للمزارعين أصحاب الملكيات الصغيرة تعبيره النهائى فى السلطة التنفيذية التى تخضع بقية المجتمع لها وتجعله تابعا لسلطتها •

كانت التقاليد التاريخية باعثا على اعتقاد الفلاحين الفرنسيين فى المعجزة التى تتحقق على أيدي رجل يدعى نابليون والذى سيعيد لهم كل مجدهم • او على ايدي اى فرد يظهر ويعلن أنه هو لانه يحمل اسم نابليون ، وبالتالى يحمل سر نابليون ، ويعلن أن «البحث عن البطل لم يعد مسموحا به»
«Larecheñe de La Paternite est interdite»

بونابرت الملكى لايمثل الفلاح الثوى بل ذلك المحافظ ، الذى يقبع خلف ظروف وجوده الاجتماعى ، الملكية الصغيرة. ولايمثل الريف الشعبى المرتبط بالمدينة ، والذى يريد أن يحطم النظام القديم بطاقته الذاتية ، بل على العكس يمثل أولئك الذين يهيمنون فى عزلتهم وخدرهم فى اطار هذا النظام القديم ، ويريدون أن يروا أنفسهم وملكياتهم الصغيرة محمية ومصانة وممجة على لسان ماردا الامبراطورية • فهى لاتمثل التنوير ، بل التعتيم وتجهيل الفلاح ، لاتمثل انصافه بل اجحافه وظلمه لاتمثل مستقبه بل ماضيه وغابره ••

قراءة رقم (٧)

فردريك انجلز : الاشتراكية العلمية فى مواجهة الاشتراكية الطوبائية

«يقدم هذا النص عرضا أكثر تفصيلا وواقعية لبعض أفكار ماركس الرئيسية من جانب انجلز مع اشارة خاصة لما يميز تفكير ماركس وانجلز عن كل الطوبائيين بنوعياتهم المختلفة» .

● ظل نمط التفكير الطوبائى يسيطر لمدة طويلة على الأفكار الاشتراكية فى القرن التاسع عشر ، ومازال يهيمن على البعض منها . وحتى وقت قريب كان كل الاشتراكيين الفرنسيين والانجليز ينضوون تحت لوائه وكانت الشيوعية الالمانية المبكرة بما فيها شيوعية ويتلنج weiting من نفس المدرسة الفكرية . بالنسبة لكل هؤلاء تعتبر الاشتراكية التعبير عن الحقيقة المطلقة ، العقل ، العدالة ، وينبغى الكشف عنها فقط لتغزو العالم بقوتها هى . وكما أن الحقيقة المطلقة مستقلة عن الزمان ، المكان ، وعن التطور التاريخى للانسان ، فهو مجرد شئ عرضى معرفة متى وأين اكتشفت ومع كل ذلك تختلف الحقيقة المطلقة ، العقل ، العدالة لدى مؤسس كل مدرسة مختلفة . وكل نوع خاص من الحقيقة

(١) ماركس وانجلز أعمال مختارة ، الترجمة (دار المنشورات الأجنبية) موسكو

١٩٥٠ المجلد ٢ ص ١١٧ - ١١٨ ، ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٢٧ - ١٢٨ .

المطلقة العقل العدالة بدوره مشروط بفهم صاحبه الذاتى ،
ووضعيات وجوده ، معايير معرفته ودرايته العقلية ، وليس
هناك نهاية وحد آخر ممكن فى هذا الصراع من الحقائق
المطلقة سوى أن كل منها يجب أن يستبعد الأخرى وبالمثل
ولذا لن ينبثق منها سوى نوع من الاشتراكية الانتقائية المتعادلة
التكوين ، وهيمنت فى الواقع وحتى العصر الحاضر على عقول
معظم العمال الاشتراكيين فى فرنسا وانجلترا • وهكذا
يتكون خليط يتسع لكل الأطياف المتعددة للرأى ، خليط من
تلك القضايا الشائكة ، وتصورات مجتمع المستقبل لدى كل
أصحاب النحل والملل المتباينة ، كما أنه لا يثير الا قدرا ضئيلا
من المعارضة ، ويتشكل مثل ذلك الخليط بسهولة بالغة ولذا
تتآكل الجوانب الحادة من المقومات الفردية فى غمار المناقشة
كما تتآكل جوانب الحمى فى تيار ماء الغدير •

ولكى تنجز علم الاشتراكية ، ينبغى أولا وضعها على
قاعدة واقعية •

يبدأ المفهوم المادى للتاريخ من قضية أن انتاج الوسائل
اللازمة للحياة الانسانية ، وبعد الانتاج تبادل الأشياء المنتجة
هى قاعدة كل البناء الاجتماعى ، وانه فى كل مجتمع قد ظهر
عبر التاريخ ، تعتمد الطريقة التى توزع بها الثروة وينقسم
بها المجتمع الى طبقات أو نظم تعتمد على ما يتم انتاجه ،
وكيفية تبادل هذه المنتجات ومن وجهة النظر هذه ينبغى البحث
عن العلل النهائية لكل الثورات السياسية للتغيرات الاجتماعية
فى التغيرات فى النمط ، الانتاج والتبادل وليس فى عقول
البشر ولا فى الرؤية الأفضل للانسان حول الحقيقة والعدالة
الأبدية ينبغى البحث عنها ليس فى الفلسفة بل فى الاقتصاد
الخاص بكل حقبة • ويصبح الادراك المتنامى بأن الاسس

الاجتماعية القائمة هي غير معقولة وغير عادلة وان ما هو عقلاني أصبح غير عقلاني والصواب أصبح خطأ ، الدليل الوحيد بأن التغيرات الحادثة فى نمط الانتاج والتبادل والتي تتحقق فى صمت قد أصبح معها النظام الاجتماعى الملائم لظروف اقتصادية سابقة غير ذى فاعلية ولم يعد بحاجة الى التمسك به والحفاظ عليه . ويستنتج من ذلك أيضا أن وسائل التخلص من المتنافرات وعدم الاتساق القائمة ستكون موجودة أيضا ، فى ظروف أقل أو أكثر تقدما فى غضون أنماط الانتاج المتغيرة ذاتها ولا ينبغى اختراع هذه الوسائل بالاستنباط من المبادئ الأساسية بل ينبغى اكتشافها فى الوقائع الصلبة لنظام الانتاج القائم .

فما هو اذن موقع الاشتراكية الحديثة فيما يتعلق بهذا ؟؟

التركيب الحالى للمجتمع - ومن المسلم به الآن عموما - هو خلق الطبقة الحاكمة الحالية للبرجوازية . ونمط الانتاج الخاص بالبرجوازية ، ومن المعروف منذ ماركس ، كما أن نمط الانتاج الرأسمالى غير متسق ومتعارض مع النظام الاقطاعى . مع الامتيازات الممنوحة للأفراد ، ومجمل الطبقات الاجتماعية والتنظيمات المحلية ، فهو متعارض بالمثل مع الروابط الموروثة للتبعية والتي يؤسس الاطار العام للتنظيم الاجتماعى للمجتمع الاقطاعى ولقد حطم البرجوازيون وأسقطوا النظام الاقطاعى وشيدوا على أنقاضه النظام الرأسمالى للمجتمع ، مملكة المنافسة الحرة والحرية الفردية المساواة أمام القانون لكل أصحاب السلع وكل النعم الاخرى للرأسمالية . من ذلك الحين فصاعدا يمكن لنمط الانتاج الرأسمالى أن يتطور بحرية طالما أن البخار ، الآلية ، وصناعة الآلات آليا حولت الانتاج القديم الى صناعة حديثة تطورت

القوى الانتاجية التى تدار بقيادة البرجوازية بسرعة ومعدل لم يذكر من قبل . ولكن تماما كما أن الانتاج القديم فى عصره والحرف اليدوية ، أصبحت أكثر تطورا فى ظل تأثيرها ، ووصلت الى التصادم مع القيود الاقطاعية لطوائفها ، فالآن ، الصناعة الحديثة بتطورها التام وصلت الى تصادم مع الحدود التى يقيد نمط الانتاج الرأسمالى نفسه داخلها .

ولقد تنامت القوى الانتاجية الجديدة بحيث لم تعد تسمح باستخدام النمط الرأسمالى لها . وهذا الصراع بين القوى الانتاجية وأنماط الانتاج هى صراع يحدث فى عقل الانسان مثل ذلك الصراع بين الخطيئة الأصلية والعدل الالهى . بل يوجد هذا الصراع فى الواقع موضوعيا ، خارج ذواتنا وتستقل عن الارادة . وعمل حتى أولئك الذين حدثوه ليست الاشتراكية الحديثة شيئا سوى انعكاس فى التفكير لهذا الصراع فى الواقع ، وانعكاسه النموذجى فى الأذهان أولا فى ذهن الطبقة التى تعاني مباشرة فى ظله . الطبقة العاملة . .

طلما أن نمط الانتاج الرأسمالى يحول أكثر فأكثر الغالبية العظمى من البشر الى بروليتاريين ، فهو بذلك يخلق القوى التى تحت لواء القصاص لدمارها تكون مجبرة على القيام بالثورة طالما أنه يجبر أكثر فأكثر تحويل مجمل وسائل الانتاج ، ويؤمّمها تماما تصبح ملكية دولة لتعلن ذاتها أنها الطريق لتحقيق الثورة يتسلم البروليتاريون ويقبضون على زمام السلطة ويقومون بتحويل وسائل الانتاج الى ملكية دولة .

ولكن ، بقيامها بذلك ، تلغى ذاتها بوصفها طبقة بروليتارية ، وتلغى كل التحديدات الطبقيّة والمداوات الطبقيّة ، وتلغى الدولة بوصفها دولة . لان المجتمع القائم

على التناقضات والمعادى الطبقي كان يحتاج للدولة فالدولة ، مجرد تنظيم لطبقة معينة كانت مؤقتا الطبقة المستغلة ، تنظيم بفرض الاحتفاظ قهرا بالطبقات المستغلة تحت وطاة ظروف القهر تبعا لانماط انتاج معينة (العبودية ، القنانة ، العمل المأجور) وتعد الدولة التمثيل الرسمي للمجتمع ككل ، تجميعه معا فى تجسيد مرئى • ولكنها تظل هكذا فقط بقدر ماتكون دولة تلك الطبقة التى تمثلها بذاتها ، وتكون فى نفس الوقت ، المجتمع فى مجمله : فى العصور القديمة ، دولة المواطنين الذين يمتلكون العبيد ، فى العصور الوسطى ، الأمراء الاقطاعيين وفى عصرنا البرجوازيين وعندما تصبح الدولة فى نهاية المطاف التمثيل الحقيقى لكل المجتمع تجعل من ذاتها غير ضرورية • وبمجرد الاتوجد اية طبقة اجتماعية كى يتم اخضاعها ، وبمجرد أن حكم الطبقة ، والصراع الفردى من أجل الوجود المبنى على فوضوية الانتاج الحالية ، مع التصادم والتجاوزات المنبثقة عن هذا الوضع ، بمجرد ان يزال هذا ، فلا يبقى أى شىء كى يقهر ، يصبح الأمر بغير ذى حاجة لقوى قمعية ولا تعتمد الدولة ذات ضرورة • فالعمل الأول والذى يفضلته تقيم الدولة ذاتها الممثل للمجتمع ككل - امتلاك وسائل الانتاج باسم المجتمع - هو ، فى نفس الوقت ، عملها المستقل الأخير بوصفها دولة • ويصبح تدخل الدولة فى العلاقات الاجتماعية ، فى ميدان تلو الآخر ، غير ضرورى وعندئذ يتغلب عنها ، ويحل محل حكم الأشخاص ادارة الأشياء ، وبسلوك عملية الانتاج لم «تلغ» الدولة بل تلاشت •

قراءة رقم (أ)

كارل كاوتسكى : تأثير نمط الانتاج*

«يدافع كاوتسكى هنا عن المادية التاريخية موضعا افتراضاتها الأساسية خصوصا مقولة أن نمط الانتاج - البناء التحتى Sul structure يحدد فى النهاية أو «فى التحليل الأخير» أيديولوجية المجتمع - البناء الفوقى superstructure»

● فى حنايا أفكار اى جيل معين ينبغى التمييز بين الأفكار القديمة التى توارثها عن أسلافه وبين تلك الجديدة التى ولدت على يديه . وليس ضروريا أن تنعطف الأفكار الجديدة بعيدا عن تلك القديمة . بل بإمكانها التكيف مع الأفكار الجديدة واثراء الحياة الروحية . وليس كل مافكر فيه الأجداد وعرفوه نعتبره خطأ . حيث يبقى كثير من الأفكار القديمة خصبا معافا . لكن فقط تلك التى تكون متسقة على الأقل ولمدى معين مع الأوضاع الجديدة . أما تلك التى تتعارض مع الواقع الجدي فلو يكون بمقدورها اطلاقا أن تحتفظ بذاتها لتبقى . ولسوف يتغلى عنها صراحة أو فى الواقع الفعلى المعاش وهذا مايدفع للقول ، بأنها ستفتقد لممارسة أى تأثير عملى على سلوك الانسان ، ولذا لن يقتضى الأمر اعلان انكارها رسميا .

(*) النص مجزأ من تاريخ المادية طبعة برلين ١٩٢٧ م . مج ١ ص ٨١٨ - ٨١٩

و ص ٨٣٠ - ٨٣٦ .

ويعد انبثاق أفكار جديدة فى ظل ظروف مادية جديدة، والصراع ضد الأفكار القديمة التى أظهرت عدم اتساقها مع الظروف الجديدة ، وتلاشيها النهائى - يعد ذلك مضمون الصراع الروحى لكل جيل ، والذى يظهر فيه تقنية جديدة أو اقتصاد جديد . وتستمد هذه الحركة دافعها من الاقتصاد ويقتصر عليه وحده . وتلحق به الايديولوجية بعد بعض التوانى .

لكن ، كى نفهم الأفكار التى توارثها جيل معين من عصر سابق ، لاينبغى فقط استقصاؤها وبحثها بل ينبغى بحث وتناول الحقبة السابقة .

ينبغى تحديد الجديد من القديم فى مجال الأفكار . وسوف نجد على الأكثر أن جزء منها فقط كان بمثابة تطور جديد . وهذا الجزء فقط يمكن تفسيره فى حدود العلاقات الاقتصادية للعصر . ومن أجل تفسير باقى الأفكار الاخرى ينبغى الرجوع بعيدا نحو أغوار الماضى . وبنفس الطريقة ، كى نتفهم الايديولوجية الشاملة لعصرنا ، ينبغى العودة للمراحل التاريخية السابقة . وبامكاننا بتلك الطريقة فقط النجاح فى الكشف عن أحوالها الاقتصادية . ولكن سنجد دوما لو تعمقنا فى البحث ، أن كل الأفكار ذات جذور فى العلاقات الاقتصادية .

وهنا ، يكمن معنى الاستعارة البلاغية فى تعبير البناء التحتي *sub structure* والبناء الفوقى *superstructure* والعلاقة بين كلا البنائين ليست بسيطة كما يبدو للنظرة الأولى .

دعنا نتناول المسيحية كنموذج ايضاحى للمقولة السابقة فمازالت المسيحية ذات دلالة كبيرة ضمن الأفكار التى تقرر

وتحدد الحياة الروحية لعصرنا . . . ورغم ذلك سيكون من غير
المجدي تماما محاولة اشتقاق أفكار المسيحية من الأوضاع
الاقتصادية الراهنة . فلو أردنا تفهم المسيحية ينبغي الرجوع
للوراء للعصر الذى ظهرت فيه فى تاريخ العالم باعتبارها
ظاهرة جديدة . ينبغي البحث عن أصولها ابان القرون الأولى
لتاريخنا عندما انهارت الديمقراطية القديمة وظهرت أقوى
القيصريات . والبحث عن العلاقات الاقتصادية للعصر
ونائجها ، وعملية افقار الجماهير ، لتركيز الثروة فى أيدي
الأقلية ، تناقص عدد السكان ، قيام الحرب الأهلية المتصلة
بين أصحاب السلطة الذين بفضل تراكمات أسلابهم وغنائمهم
أمكنهم تدعيم جيوش ضخمة ، توقف كل الانشطة السياسية
بين الجماهير ، ونظرا لكون الجماهير الفقيرة أصبحت مشوهة
بالفساد وأمكن شراؤها بينما أغرق الأثرياء أنفسهم فى
المبازل والملذات — كان ذلك هو الأساس الواقعى الذى انبثقت
منه المسيحية وهو مايجعل تفسيرها أمرا ممكن التحقيق . . .

لكن ، مايميز المسيحية بشكل تام ويمعدأمرأ جديداوخاصا
بها هو النزعة نحو السلام ، احتقار العالم الدنيوى ازدراء
الحياة الدنيا ، فقدان المرء لثقتة بنفسه ومحيطه الخاص . . .
الخ . . .

بالاضافة لهذه الملامح تتضمن المسيحية أفكارا أخرى
عديدة ، لم تقدمها هى باعتبارها أفكارا جديدة ، بل وجدت
مهيمنة ولزمن طويل ، ثم تناولتها المسيحية والتقطتها من
واقع الحياة التى انبثقت فى اطارها .

لقد رأينا أن المرحلة التى تتحدد فيها العناصر الجديدة
والقديمة مع الأيديولوجية السياسية ، الفلسفية ، الدينية ،

والفنية للطبقة أو للحزب فى حقبة تاريخية معينة ، يمكن أن تختلف كثيرا تبعا لاختلاف البيئات •

لا يمكن بناء أى أيديولوجية حتى أكثرها جذرية وثورية، فقط بالاعتماد على العناصر الجديدة • ذلك لان من المستحيل تماما لأى شخص أن يواصل سيره على أكتاف أجداده بعد أن تعلم منهم ، وغالبا ، بل ومن المحزن أن يقول ، ليس كافيا •••

وان تاريخ أفكار المرحلة المكتوب من وجهة نظر المفهوم المادى للتاريخ ، ينبغي ألا يقصر نفسه على ادخال هذه الأفكار فى علاقة ولتصبح علاقات اقتصادية معينة • ولن ينجح المفهوم المادى للتاريخ فى تفسير مجمل الحياة الروحية والثقافية للعصر فى حدود اقتصاد المرحلة •

كما أعلن اتجلز مكررا أن العلاقات الاقتصادية هي العامل الحاسم فى تاريخ العالم عند التحليل النهائى فقط ••• هذا صحيح ولكن ينبغي أن يضاف اليه ادراك ضرورة التمييز والتفرقة بين ماهو مكتسب وموروث من الأسلاف وماهو منتج حديثا ضمن شرائع ، وأشكال القانون ، والنظريات •• الخ لمرحلة معينة فى التاريخ •

الأفكار الجديدة فقط هي التي تركز على الظروف الاقتصادية الراهنة للعصر • ومن جانب آخر لاتتنمى الأشكال الثقافية التقليدية الى النتائج ، ولا الى البناء الفوقى ، بل تنتمى الى الأوضاع ذاتها ، الى البناء التحتى للاقتصاد الجديد تماما كما تنتمى الأشكال الجديدة للوعى والتي تنسجم وتتوافق مع هذا الاقتصاد •• دعنا ألا ننسى : أن تعتبر فقط فى التحليل النهائى مجمل المركب الايديولوجى، السياسى ، التشريعى ، تعتبره بناء فوقيا فوق الأساس

الاقتصادى • وليس ذلك ملزما بالنسبة لأية ظاهرة فردية فى التاريخ ، سواء كانت اقتصادية ، أيديولوجية ، أو من أى نوع آخر • فهى تعمل وتؤدى دورها فى بعض الأحيان باعتبارها بناء تحتيا ، وفى البعض الآخر باعتبارها بناء فوقيا •

يعد الافتراض الماركسى حول العلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى صحيحا بشكل غير مشروط فقط بالنسبة للظواهر الجديدة فعلا فى التاريخ •

قراءة رقم (٩)

جورج بليخانوف : الفرد فى التاريخ

« يكمن هنا دفاع بليخانوف المحنك والارثوذكس أيضا عن التفسير الواحدى للتاريخ monistic والذي يقرر فيه نمط الانتاج الاقتصادى التاريخ فى النهاية وليس الفرد بصرف النظر عن مدى تميزه وتفوقه . وبهذا الخصوص ينبغى الرجوع لمناقشة الفصل الخاص بكروتسكى فى المجلد الثانى من عمله «التفسير المادى للتاريخ» (١) ، ومناقشة تاروتسكى فى «تاريخه للثورة الروسية» (المنشور عام ١٩٣٢ م) فى مجلده الأول . وأيضا الرجوع للفصل الخامس من كتابى (هوك) «البطل فى التاريخ : دراسة فى الحدود والامكانيات» ، وذلك للنقد .

● اعتقد سانت بوف saint-Beuve أن هناك مايكفى من الأسباب الثانوية والحفية من النوع الذى ذكره ، لجعل محصلة الثورة الفرنسية نقيضا لما قد عرف أنها ستنتهى اليه . ويعد هذا خطأ جسيما - وبصرف النظر عن كيف تختلط العوامل وتتداخل الأسباب السيكولوجية والفسيولوجية الثانوية بشكل معقد يند عن التحليل ، فلن يمكنها فى ظل أى

(٩) جورجى بليخانوف - دور الفرد فى التاريخ (١٨٩٨) الترجمة الانجليزية (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٤٤ م) ص ٣٧ - ٤١ .

ظروف أن تمحو أو تتجاهل الحاجات الاجتماعية المسيسة التي أدت لحدوث الثورة الفرنسية وكلما ظلت هذه الحاجات بدون اشباع كلما استمرت الحركة الثورية فى فرنسا . ولكى تجعل محصلة هذه الحركة عكس ما قد كان ، ينبغى أن تكون الحاجات التي أدت لحدوثها عكس ماقد كانت عليه ، وهذا بالطبع مالا يمكن حدوثه إطلاقا ، تحت أية مجموعة من الأسباب الثانوية .

تعتمد أسباب الثورة الفرنسية على طابع العلاقات الانتاجية ، أما الأسباب الثانوية التي افترضها سانت بوف يمكن أن تعتمد فقط على الصفات الشخصية للأفراد . والسبب النهائي للعلاقة الاجتماعية يعتمد على وضعية القوى الاجتماعية .

ويعتمد ذلك على صفات الأفراد ، ربما فقط ، بمعنى أن هؤلاء الأفراد يمتلكون موهبة عالية أو أدنى للقيام بعمل تحسينات فنية (تقنية) أو اكتشافات واختراعات ، ولم يضع سانت بوف هذه الخصائص فى اعتباره . حتى الخصائص الأخرى أيا كانت لاتمكن الأفراد من التأثير مباشرة فى حالة القوى الانتاجية ، وبالتالي ، على العلاقات الاجتماعية التي يقررها ، مثال ، العلاقات الاقتصادية المعينة للقوى الانتاجية . ولكن الخصائص الشخصية للأفراد تجعلها أكثر أو أقل ملائمة لاشباع تلك الحاجات الاجتماعية التي تنشأ من العلاقات الاقتصادية المعينة ، أو تمنع وتحول دون ذلك الاشباع . فلقد كانت الحاجة الاجتماعية الملحة لفرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر هى استبدال المؤسسات السياسية القديمة بأخرى جديدة يمكن أن تتطابق أكثر مع نظامها الاقتصادي القائم . وأكثر الشخصيات العامة لذلك العصر نفعا وتميزا هى التي كانت أقدر من غيرها على المساعدة فى

اشباع هذه الحاجة الملحة • ولسوف نفترض أن ميرابييو Mirabeau روبسبير Robespierre و نابليون Napoleon كانوا رجالا من هذا الطراز • فما الذى قد حدث ليعجل بموت مواربيو وليس ابعاده عن المسرح السياسى ؟ ولقد حافظ الحزب الدستورى الملكى على سلطته الملحوظة لوقت طويل • ولذا ستكون مقاومته للجمهوريين اكثر فعالية • ولكن فوق ذلك ، فلا ميرابييو كان بإمكانه فى ذلك الوقت تفادى انتصار الجمهوريين • حيث كانت سلطته تستند كلية على تعاطف وثقة الشعب ، ولكن الشعب آنذاك كان يريد الجمهورية ، رغم أن الهيئة التشريعية أغضبت الشعب بدفاعها العنيد عن النظام القديم • وطالما أصبح الشعب مقتنعا بأن ميرابييو لم يتعاطف مع نضالاتهم الجمهورية ، توقفوا عن التعاطف معه ، وعندئذ سيفقد الداعية الكبير كل تأثيره ، وعلى الأرجح سيسقط ضحية للحركة التى حاول عبثا أن يكملها • يمكن أن يقال نفس الشيء تقريبا عن روبسبير • دعنا نفترض أنه كان قوة لا غنى عنها مطلقا فى حزبه ، ولكنه لم يكن فى كل الأحداث القوة الوحيدة • فلو أن سقوطا عرضيا لحجر قد قتله ، مثلا ، فى يناير ١٧٩٣ م • سوف يحتل موقعه بالطبع ، شخص آخر غيره ، ورغم أن هذا الشخص ربما يكن أدنى منه فى جميع الوجوه ، مع ذلك ، سوف تتخذ الأحداث نفس المسار كما كانت عندما كان روبسبير حيا • وعلى سبيل المثال ، حتى فى ظل هذه الظروف فمن المحتمل ألا يتجنب الجيروندي Gironde الهزيمة ، بل لمن الممكن أن حزب روبسبير قد يفقد السلطة مبكرا لحد ما ، وسوف نتحدث الآن ليس عن رد الفعل التروميدورى Thermidor بل عن الازدهار والانتعاش ورد الفعل الميثادورى Messidor ربما يقول البعض ان روبسبير بارهابه الصارم ، لم يؤخر السقوط المفاجئ لحزبه

بل عجل بوقوعه . لن نتوقف هنا لمناقشة هذا الافتراض ، بل نتقبله كما لو كان صحيح تماما . فى هذه الحالة ينبغي افتراض أن حزب روبسبير لم يسقط فى طور التروميدور بل فى الفريكتودور Fructidor أو فى البرومير Brumaire والفندمير Vendemiaire . وباختصار فانه ربما يسقط عاجلا أو آجلا ، ولكن من المؤكد أنه سيسقط وينهار ، لان قسما من الشعب والذى ساند حزب روبسبير ، لم يكن معدا ومهيا تماما لاستلام السلطة لمدة طويلة . وفى كل الأحداث ، أنه لمن غير الوارد أن تصبح النتائج على النقيض لتلك التى انبثقت من أعمال روبيسبير الفعالة .

ولايمكن اثارة هذه القضية ، لو افترضنا أن بونايرت قد قتل برصاصة فى معركة أركول Arcol أو أن ماقد قام به فى حملته العسكرية على ايطاليا وحملاته الأخرى قد قام به الجنرالات الآخرون . فمن المحتمل ، أنهم لن يظهروا نفس الموهبة التى أظهرها بونايرت ولن يحققوا مثل تلك الانتصارات التى أحرزها ، ومع ذلك فلقد خرجت الجمهورية الفرنسية منتصرة من الحرب التى خاضتها فى عصرها لان جنودها كانوا الأفضل فى اوروبا بلا منازع . وفيما يتعلق ببرومير الثامن عشر وتأثيره على الحياة الداخلية لفرنسا ، هنا أيضا وفى الأساس ، من المحتمل أن يكون المسار العام ونتائج الأحداث هى ذاتها كما كانت فى ظل نابليون . ولقد جرحت الجمهورية على نحو مميت بأحداث التروميدور التاسع ، وأصبحت تموت ببطء . ولم يكن بإمكان القواد أحياء النظام الذى خلصت البرجوازية نفسها من حكم الطبقات العليا ، والآن ترغب معظمها . ولكى تحيى وتستعيد النظام فان المطلوب هو «سيف صارم» ، كما عبر عنه سايس sieyes فى البداية كان يعتقد أن الجنرال جوبرت Joubert سيقوم

بهذا الدور الفاضل ، ولكن عندما قتل فى نوفى Novi أصبح يذكر أسماء موريو Moreau وماكدونالد Macdonald وبرنادوت Bernadotte وذكر اسم بونايرت مؤخرا : وإذا ماقتل مثل جوبرت ، لم يعد يذكر على الاطلاق ، بل وشهرت سيوف أخرى فى المقدمة أنها تذهب بدون قول أن الفرد الذى يرتفع بأعماله لمنزلة الديكتاتور ينبغى أن يتوق دوما لتقوية ذاته . وبقسوة وصرامة ينحى جانبا كل من يقف فى طريق مطامحه . فلقد كان بونايرت رجلا ذا ارادة حديدية وصارما فى سعيه لهدفه . ولكن لم يكن بواره قليل من الذوات الطموحة والموهوبة والفعالة فى تلك الأيام . والموقع الذى نجح بونايرت فى احتلاله من المحتمل ألا يبقى شاغرا بعده . وهنا نفترض أن الجنرال الذى كان يحمى هذا الموقع كان أكثر سلما من نابليون ، أو آن نابليون لم يستثير كل أوروبا ضده شخصا ، ولهذا ، كان قد مات فى تولوريس Tuileries وليس كما حدث ومات فى جزيرة سانت هيلانه St. Helena فى هذه الحالة لن يرجع البوريون Bourbons لفرنسا على أية حال ، وبالنسبة لهم ، مثل هذه النتيجة ستكون بالتأكيد «نقيضا» لما هو حادث بالفعل . وفى علاقتها بالحياة الداخلية لفرنسا كلها . أيا كانت ، ستكون هذه النتيجة مختلفة قليلا عن النتيجة الفعلية . وبعد أن يعيد «السيف الصارم» النظام ويعزز سلطة البرجوازية ، سوف تتبرم البرجوازية حالا من عادات ثكناتها ومن الاستيراد . وستظهر الحركة الليبرالية شبيهة بتلك التى نشأت بعد العودة والاحياء ولسوف يتدلج القتال تدريجيا ، ولان «السيوف الصارمة» غير متميزة بطبيعتها المرنة والطيدة ربما يرتقى لويس فيليب Louis Philippe المنتصر عرش خلائه المحبوبين فى ١٨٢٠ أو فى ١٨٢٥ وليس فى ١٨٣٠ . وربما أن كل هذه التغيرات

فى مسار الأحداث ستؤثر ، ولمدى معين ، فى النتائج السياسية ومن خلالها فى الحياة الاقتصادية لاوريا • ومع ذلك ، فلن تكون النتيجة النهائية للحركة الثورية «نقيضا» لما قد كان فى ظل أى ظروف • ويمكن للأفراد المؤثرين من خلال تمتعهم بصفات خاصة وعقل راجح وشخصية مؤثرة ، أن يغيروا من السمات الفردية للأحداث وبعض نتائجها الخاصة، لكنهم لن يقدروا على تغيير اتجاهها العام الذى تقرره قوى أخرى •

قراءة رقم (١٠)

دانييل دى ليون : النقابية الصناعية والجمهورية الاشتراكية *

« هذا هو مفهوم دانييل دى ليون البسيط والمباشر عن الهدف - الجمهورية الأمريكية الاشتراكية - والوسيلة التي يتحقق بها هذا الهدف » .

● الرأس مالية هي التعبير الأخير عن حكم الطبقة . والملكية الخاصة لمتطلبات الانتاج وضرورياته هي الأساس الاقتصادي لحكم الطبقة . والبناء الاجتماعي أو الزى الذي يتخذه حكم الطبقة هو الدولة السياسية - ذلك البناء الاجتماعي الذي تعتبر فيه الحكومة أداة منفصلة وبعيدة عن الانتاج . ليس لها وظيفة حيوية سوى المحافظة على سيادة وهيمنة الطبقة الحاكمة .

والتخلص من حكم الطبقة يعنى التخلص من الدولة السياسية واستبدالها بنظام اجتماعي صناعي ، في ظلّه تمتلك ضروريات الانتاج ملكية جماعية وتدار بأيدي الشعب ولصالحه .

الأهداف تحدد الوسائل . وهدف التطور والارتقاء

(*) نقلا عن الشعب اليومية عدد ٥ يناير ١٩١٣ . أعيد طبعها بتصريح من ارنولد بروسون السكرتير القومي لحزب العمل الاشتراكي .

الاجتماعى هو الاطاحة النهائية بحكم الطبقة ، وينبغى أن تلائم الوسائل هذا الهدف

كما فى الطبيعة ، حيث تكثر الخداعات والأوهام البصرية يكون التوقف فى طريق التقدم حتى تنقشع ، كذلك فى أمور المجتمع .

تثير واقعة الاستبداد الاقتصادى الطبقة الحاكمة . لدى البعض ، وهم أن التنظيم والنشاط الاقتصادى للطبقة العاملة المقهورة كاف تماما لازالة الأوجاع التى تشكو منها .

وحقيقة الاستبداد السياسى للطبقة الحاكمة تثير لدى آخرين ، وهم أن التنظيم السياسى وفاعلية الطبقة العاملة المقهورة هو كاف تماما لتحقيق سبيل الخلاص .

النتيجة العرجاء التى تضع فى اعتبارها التنظيم والنشاط الاقتصادى فقط تركز فى النهاية وبشكل محتوم على شعارات جوفاء وطنانة وبسيطة كما هو موضح فى الجمعية الاتحادية للعمال رغم اتحاداتها المدنية وميليشياتها *Militia* المسيحية الفرعية ، وأيضا النقابية (السنديكالية) الفوضوية المسماة *L. W. W.* بشيكاغو - البانونية *Bakouninism* (نسبة لبكانونين) باختصار ، تلك التى ناضل ضدها ماركس وحذر منها .

والمقولة العرجاء التى تضع فى اعتبارها فقط التنظيم والعمل السياسى ، تركز حتما وفى نهاية الأمر على الاقتراع الخالص والبسيط ، كما هو متمثل كثيرا وبشكل مؤسف فى الحزب الاشتراكى - وبالمثل ناضل ضدها ماركس وحذر منها باعتبارها «خرافة برلمانية» .

والنقابية الصناعية المتحررة من الخداعات البصرية

تنطلق بوضوح نحو الهدف - وهو استبدال الدولة السياسية بالحكومة الصناعية . ووضوح الرؤية يجعل النقابية الصناعية ذات حصانة من تأثير خداع الذات للشعار الفوضوى «لا لآى حكومة» ومن أى تضليل ينبع منه ، ومن «الخرافة البرلمانية» عند السياسيين الذين يتوقعون سن قانون باطاحة حكم الطبقة .

تدرك النقابية الصناعية المبدأ : «لا حكومة ، لانتظيم لانتظيم ، لاعمل تعاونى لاعمل تعاونى ، لا وفرة بدون عمل شاق . من ثم ، لحرية» - اذن ، تهدف النقابية الصناعية لحكومة ديمقراطية مركزية ، مصحوبة بـ «حكم ذاتى محلى» ضرورى وأساسى ديمقراطيا .

تدرك النقابية الصناعية مبدأ الدولة السياسية - سلطات محلية ومركزية منفصلة عن النشاط الانتاجى ، وتدرك متطلبات حكومة الحرية - سلطات ادارية مركزية ومحلية للمقدرات الانتاجية للشعب .

تصنف النقابية الصناعية لسماع امر التطور الاجتماعى كى تصيغ الامة ومعها حكومتها فى قالب مختلف عن القالب الذى يصيغ فيه حكم الطبقة الامة والحكومة القائمة . فبينما يضع حكم الطبقة الامة ومعها حكومتها فى شكل المقاطعات التابعة ، تصبغ النقابية الصناعية الامة فى شكل امتلاك نافع ومفيد ، وتحول حكومة الامة الى شكل تمثيلى لهذا الوضع . وتبعا لذلك ، تنظم النقابية الصناعية الامتلاك المقيد للأراضى على شكل دوائر انتخابية لمجتمع المستقبل .

النقابية الصناعية ، المنتجة الشرعية للحضارة ، عندما تضطلع بأداء هذه الوظيفة تكون متسلحة بكل خبرة العصر .

يدون الاغراق في وهم أن تقدمها سيكون «عرضا عسكريا» وبمعرفة وادراك أن برنامجها يقود اتباعها ويوضح لهم أن المرحلة الحرجة لكل عملية تطورية معروفة ومعلومة باعتبارها ثورة ، تتواصل وترتبط النقابية الصناعية مع انجازات الآباء الثوريين للوطن ، أولا لتصنيف القانون الذي ينكر أبدية نظامهم الاجتماعي ، ثم بعد ذلك بتعديلاتها لتجعل الثورة عملا شرعيا . وفيما يتعلق بالانجازات العظيمة للثورة الأمريكية ، تدرك تماما أن الثورة العظيمة باعتبارها معنية بالجموع من الشعب وتحتاج لهذه الجموع من الجماهير في انجازها وتحقيقها ، وبذلك تمنع وتحول دون الفكرة المكشوفة للتآمر ، وتقود بشكل ملزم هيئة عليا عامة للنشطة التعريضية ، التعليمية ، التنظيمية . وأخيرا ، تنير لها طريقها عقيدة ماركس بأن النقابة الأصلية والحقيقية ولا شيء سواها هي التي ستقيم وتؤسس الحزب السياسي الحقيقي للعمال ، - تبذل النقابية الصناعية قصارى جهدها لتوحيد الطبقة العاملة على الصعيد السياسي وبالمثل على الصعيد الصناعي ، - على الصعيد الصناعي لأنه بدون وجود النقابة الموحدة التنظيم للطبقة العاملة ، يصبح العمل الثوري مستحيلا ، وعلى الصعيد السياسي ، لأنه لا يمكن المنادة بالفرض الثوري بدون الوعي الذي تصبح النقابة بدونها مجرد كتلة من الرمال .

وتتسم النقابية الصناعية بسمات وأهمية الجمهورية الاشتراكية في طور التشكيل ، وبمجرد بلوغ الهدف ، تصبح النقابية الصناعية هي الجمهورية الاشتراكية في عملها وفعاليتها .

تبعاً لذلك ، تصبح النقابية الصناعية هي الآلة التي يتم بها ذلك وتحطيم حصون الرأسمالية ، بل ووارثي البناء الاجتماعي الرأسمالي ذاته .

ويورد دي ليون فقرة رئيسية في كتابه «المسألة المثارة» حول النقابات العمالية والمنشور (١٩٣٠) .

لن يواجه المجتمع المتحضر شيئاً أكثر سخفاً وهزلاً من الدوائر الجغرافية الانتخابية *Costituencies* أنه يعرف فقط الدوائر الصناعية . وسيكون برلمان الحضارة في أمريكا ليس من رجال الكونجرس القادمين من مناطق جغرافية ، بل سيتكون من ممثلي الحرف والصناعات لكل أنحاء البلاد ، ولم يكن عملهم التشريعي من النوع المعقد الذي يتطلبه مجتمع المصالح المتصارعة كالمجتمع الرأسمالي . بل سيكون من النوع الطبيعي السلس الذي يمكن تلخيصه في إحصائيات للثروة المطلوبة ، والممكن إنتاجها ، والتي يتطلبها العمل - والذي يمكن لأي مجموعة عادية من ممثلي العمال التحقق منها تماماً وبدقة أفضل من خطبائنا المعاصرين في الكونجرس .

قراءة رقم (١١)

ادوارد برنشتاين

المثل والوقائع والتجربة الاشتراكية *

«هذا نص نموذجي من كلاسيكيات المعنى الشائع للأصلاحيّة الاشتراكية والذي أثار حملة مضادة عنيفة دفاعاً عن الإيمان الأرثوذكسي على صعيد الحركة الماركسية . اقتبس هذا النص من الفصل الختامي لكتاب ادوارد برنشتاين والذي يعد فاتحة حقبة جديدة «الاشتراكية التطورية» والذي أمد الحركة التصحيحية (التحريفية) بالتعبيرات والدوافع الإضافية ، في ألمانيا وفي كل مكان حيث وجدت» .

● تعد التقاليد ظاهرة واسعة الانتشار تخضع لها الأحزاب الآداب . والاتجاهات الفكرية حتى العلوم تتخللها التقاليد بعمق . ولن يمكن اجتثاثها تماماً من جذورها . وينبغي أن تمضي فترة زمنية معينة قبل أن يدرك البشر عدم اتساق التقاليد مع الأوضاع القائمة وحتى يضع تلك التقاليد على الرف . حتى يحدث ذلك تقوم التقاليد عادة بتكوين وسائل الربط بين أولئك الذين لا يستطيع أي مصالح قوية دائمة وفعالة أن تربطهم بعضهم ببعض ولا حتى أي ضغط

(*) عن كتاب ادوارد برنشتاين (الاشتراكية التطورية)

الترجمة الانجليزية نيويورك ١٩٠٩ من ٢٠٠ - ٢٠٥ .

خارجي أن يجمعهم سويا . لذا يتأتى تفضيل كل رجال الأحداث المؤثرين مهما كانوا ثوريين في أهدافهم ، تفضيلهم الداخلى للتقاليد . «لاتراهن أبدا على الجياد التى تمضى عكس التيار» هذا الشعار اللنكولنى Lincoln القديم ترسخ فى نفس التفكير فى صيغة التحريم اللاسالى Lassalle المعروف ضد «الروح الجامحة لليبرالية ، وتذمر الفرد المتفتح ورغبته فى معرفة أفضل» . فبينما تعد التقاليد محافظة ، يعتبر النقد فى غالبه ودائما هداما ، حتى عندما تبرره وقائع ، يمكن أن يعد أمرا مذموما ، لذا ينبغى شجبه .

ولكى ندرك ذلك ، ليس بطبيعة الحال بأن ننادى بتقديس التقاليد وبمنع النقد . فالأحزاب لاتكون دائما فى خضم التيار عندما تتجه الأنظار لمهمة واحدة فقط .

وماينبغى الاحتفاظ به متطورا ومجددا بالنسبة للحزب ، هو كون النقد أمرا لازما وضروريا وأن التقاليد يمكن أن تصبح عبئا ثقيلا وقيدا معوقا .

لكن يفسح البشر مكانا فى حالات قليلة لأهمية التغيرات التى تحدث فى فرضياتهم التقليدية . وهم يفضلون عادة أن يضعوا فى اعتبارهم فقط تلك التغيرات باعتبارها متعلقة بالوقائع الصلبة والتى لايمكن انكارها وأن يجعلوها منسجمة بقدر الامكان مع طبيعتهم التقليدية . ويسمى المنهج هنا مخادعة ، والتبرير والتفسير له يسمى نفاقا ورياء .

الرياء Cant الكلمة انجليزية ، وقيلت واستخدمت لأول مرة فى القرن السادس عشر كوصف لترنيمه الورع والطهارة للبيورتانيين Puritans (١) . وفى أكثر معانيها

(١) البيورتان طائفة مسيحية برونسانية ظهرت فى انجلترا ونيوزلندة فى القرن

المألوفة تشير الى أسلوب غير حقيقى فى الحديث ، وتقليد
أعمى ، أو تستخدم بوعى عدم صدقها لتحقيق أى نوع من
الأغراض ، سواء كان فى الدين ، والسياسة أو متعلقا
بالنظرية أو الواقع . بعد الرياء بهذا المعنى الواسع قديما
جدا . . .

كل أمة ، وكل طبقة وكل مجموعة توحيدها نظرية أو
مصالح لها رياؤها ونفاقها الخاص . وقد أصبحت جزئيا نوعا
من العادة والتقليد فقط . فى صورة خالصة ، بحيث لم يعد
أحد يخدع ويضلل بحماقتها . وينبغى اطلاق المعركة ضدها
دواليك . ولكن لايمكن تطبيق ذلك على الرياء الذى يظهر
فى شكل علم والرياء الذى أصبح حجة ونداء للمعركة
السياسية .

افتراضى وهو «بالنسبة لى فما يسمى عموما الهدف
النهائى للاشتراكية لا يعد شيئا لكن الحركة هى كل شيء» .
قد صور غالبا وكأنه رفض وانكار لكل هدف محدد للحركة
الاشتراكية . . .

منذ ثمانية أعوام مضت عندما راجعت كتاب
Schulze-Gavernitz عبرت عن الاقتناع بأن مع استمرارية
التطور الحر ، ستضاعف الطبقات العاملة الانجليزية من
مطالبها ، ولكنها لن ترغب فى أى شيء لايمكن أن يظهر فى
كل وقت كونها ضرورية وممكن تحقيقها بلا أى شك .
ولا يوجد أى شيء فى القاع خلاف ما أقوله اليوم . . .

ليس بإمكان أى اشتراكى أن يحلم اليوم بنصر وشيك
للاشتراكية فى انجلترا من خلال وسائل الثورة العنيفة -

= السادس عشر . تدعو الى التزام الطهارة والورع والمقوى وسيط طموس العناء والحرم
على الفضائل « المترجم » .

لا يحلم أحد بفوز قوى بالبرلمان لصالح البروليتاريا الثورية . ولكنهم يقولون أكثر فأكثر على العمل فى المجالس البلدية والهيئات الأخرى للإدارة والحكم الذاتى . وتم الإقلاع عن الاحتقار ، أو الازدراء الذى كانت تتعرض له الحركة النقابية العمالية ، وتم كسب تعاطف وتقارب أكثر لصالحها ، هنا وفى أى مكان آخر ، وأيضا لصالح الحركة التعاونية .

وماذا عن الهدف النهائى ؟ حسنا ، انه يبقى تماما هدف نهائى . وليس للطبقات العاملة أى يوتوبيات (طوبائيات ، مدن فاضلة) خاصة ومكتملة لتحقيقها من خلال اقتراع الأمة . وتعلم أنه لكى تنجز عملية تحررها - ولتحقق معها ذلك الشكل الأعلى والأرقى للحياة والذى يحول دونه الشكل القائم للمجتمع وتطوره الاقتصادى - ينبغى على الطبقات العاملة أن تتجاوز وتخوض غمار نضال مديد ، ومسلسلة كاملة من العمليات التاريخية ، بالطريقة التى يمكن بها تغيير البشر ومحيطهم الاجتماعى كلية . ليس لديهم أى مثل ليدركوها ، ينبغى عليهم فقط إطلاق سراح ملامح المجتمع الجديد الذى تطور كلية فى رحم المجتمع البروجوازى المنهار» هكذا كتب ماركس فى «الحرب الأهلية فى فرنسا» . اننى أتفكر فى هذا التعبير ، ليس فى كل تفاصيله . بل فى فكرته الأساسية حول العبارة التى تدور حول الهدف النهائى . لانه بعد كل مقاله ماركس تبقى الحركة ، سلسلة العمليات كل شئء بينما كل هدف محدد مسبقا وفى كل تفاصيله يعد غير أساسى بالنسبة لها . فلقد أعلنت تماما أننى سأتحلى عن طيب خاطر عن صيغة الجملة التى تدور حول الهدف النهائى بقدر ما يسمح التفسير بأن كل هدف عام للطبقة العاملة يصاغ كمبدأ ينبغى اعلان عدم جدواه وانه بلا قيمة . ولكن النظريات المسبقة والقبلية عن اتجاه الحركة والتى تتجاوز مثل ذلك الهدف العام ،

والتي تحاول تقرير اتجاه الحركة وطابعها بدون عين يقظة
دائما وواعية للوقائع والتجربة ، هذه النظريات المسبقة ينبغي
بالضرورة أن تولج في واحة اليوتوبيات (المدن الفاضلة) ،
وفي بعض الأوقات تقف في الطريق ، وتعوق التقدم النظري
والعملي الحقيقي للحركة . . .

جان جوريس : المثاليه والتاريخ *

« هذه هي حجة جوريس النمطية بأن الاقتصاد يمكنه تفسير كل شيء عن الانسان ماعدا ماهو متميز بتفرد كائنات » .

● الانسانية هي نتاج تطور فسيولوجى طويل المدى يسبق تطورها التاريخى . فعندما ظهر الانسان فى سياق هذا التطور الفسيولوجى الممتد من الحيوانات الأدنى ، انغrust فى ذهن الانسان الأول ميول ونزعات خاصة .

فما هي هذه الميول والنزعات ؟؟

تبدأ بالقدرة التى أسميتها الاحساسات المنزهة .
dis interested senstion حيث تصبح الاحساسات الذاتية الخالصة خاضعة تدريجيا للاحاساسات الجمالية والمنزهة ففى الدرجات الدنيا لحياة الحيوان تكون حاسة الرؤية والسمع هزيلة التطور أما حاسة الشم والتذوق والقدرة على الادراك جيدة التطور ، أى ، أن الأحاسيس التى تنبثق بحضور الفريسة والتى تتزامن مع الشهية الفسيولوجية والذاتية . على الجانب الآخر كلما تطورت الحيوانات فيوجد تطور مماثل

(*) ملاحظ عن : المثالية والتاريخ . محاضره ألعب عام ١٨٩٤م أوراق مختارة (باريس ١٩٢٢ / ص ٣٦٨ - ٣٧٠ .

فى احساسات السمع والرؤية • بطبيعة الحال فمن الصحيح تماما ليس فقط الانطباعات عن الفريسة يفرض اقتناصها هى مايصل للحيوان من خلال عيونه ، بل أيضا وفى نفس الوقت تصله انطباعات أخرى لاتستثير شهيته • وبشكل مشابه ، يستقبل الحيوان من خلال أذنيه الأصوات التى تمكنه من النجاح فى اقتفاء أثر الفريسة وتجنب الخطر ، ويصله فى نفس الوقت أنغام هارمونية ليس لها أدنى علاقة بأية شهية للحيوان أو ظروف أمنه • وتتجمع أمام ناظره صور تتجاوز الحساسية المباشرة للحيوان ، ويخترق سمعه أصوات تفوق احتياجاته المباشرة • بهذه الطريقة يجعل العالم والكون نفسه فى صورة ملبدة فى طبيعة الحيوان غير تلك الصورة الخاصة بالصراع من أجل البقاء ...

بالإضافة للميول الأصلية التى يدخلها الحيوان الإنسانى فى العملية الطويلة للتطور الاقتصادى ، فلهذه القدرة العظمى ، والتى تظهر بين الحيوانات ذاتها ، وهى قدرة ادراك ما هو كلى فى أجزائه ، والنوع فى أعضائه ، قدرة التمييز بين الصورة العامة فى الأشياء المتنوعة ...

باختصار . اتفق مع ماركس على أن كل تطور هو انعكاس للظاهرة الاقتصادية فى المخ ، لكن بشرط أن يقال انه يوجد فى المخ تماما ، القوى الأساسية التى تؤثر فى الحياة الاقتصادية بفضل احساسها الجمالى ، والمشاركة الخيالية والحاجة للفهم المشترك •

المرجو ملاحظة أننى لأضع القدرات العقلية جنبا الى جنب مع القوى الاقتصادية (كما لو أنهما كليهما قوة خارجية بالنسبة للآخرى) • لا ، اننى لأرغب فى تقديمهم ووضعهم فى ذلك الوضع المجاور ، لكننى أرى أنه لمن المستحيل ملاحظة

أن الظاهرة الاقتصادية يمكن أن تؤثر في المخ الانساني بدون أن تدخل في عملية القوى الأصلية التي حللتها . وهذا هو السبب لاننى لاأتفق مع ماركس بأن المفاهيم الدينية والسياسية . والأخلاقية ليست شيئاً أكثر من كونها انعكاساً للظاهرة الاقتصادية . فالانسان يستحضر مثل هذا الانصهار والاندماج لما هو انساني في نفسه وبيئته الاقتصادية ، ولمن المستحيل فصل الحياة الاقتصادية عن الحياة الاخلاقية . ولكي تخضع واحدة لآخرى فمن الضروري بداية فصل احدهما عن الأخرى . ولكن هذا الفصل مستحيل . فالمرء لا يستطيع تقطيع الانسان الى قسمين أو فصل حياته العضوية عن وعيه أو قدرته على تجزئة الانسانية التاريخية الى قسمين وفصل حياتها الفكرية وقيمها عن حياتها الاقتصادية . هذه هي فرضيتى والتي وجدت تأكيدات الجزئية فى الفلسفة اليونانية .

لينين : الدولة والثورة *

« هذه هي بعض الفقرات الأساسية من عمل لينين الدائم الأهمية ، والذي كتبه عشية الانقلاب الشيوعي ضد الحكومة الديمقراطية المؤقتة في روسيا » .

● الدولة نتاج ومظهر للعداوات الطبقية التي لا يمكن تسويتها - يعتمد أين ومتى وإلى أي مدى لا يمكن موضوعيا تسوية الصراعات الطبقية لمجتمع معين - وعكسيا ، يثبت وجود الدولة ويبرهن أن الصراعات الطبقية لا يمكن تسويتها -

يعد احلال البروليتاريين محل الدولة الرأسمالية مستحيلا بدون ثورة حادة عنيفة ، بينما الغناء الدولة البروليتارية خلافا لكل الدول الوحيد الممكن من خلال «التلاشي» . .

استثنى ماركس إنجلترا (والولايات المتحدة) حيث لا يمكن تخيل وبالتالي امكانية وقوع ثورة ولو كانت ثورة شعب بدون الشرط المبدئي لتدمير «الآلة القائمة للدولة» .

الآن في عام ١٩١٧ م - في مرحلة الحرب العظيمي

(*) فلاديمير ايليتش لينين ، الدولة والثورة . طبعة دار العمل الاشتراكي
(جلاسجو ١٩١٩) ، ص ١١ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٩٠ .

الامبريالية الأولى imperialist أصبح تعريف ماركس هذا غير صادق ، وانجلترا وأمريكا أكبر وآخر ممثلي «حرية» العالم الانجلو سكسوني ، بمعنى عدم وجود العسكرية والبيروقراطية بهما ، الآن قد سقطا في المستنقع الدموي القذر للمؤسسات العسكرية البيروقراطية عبر كل أوروبا يجتاحوا الكل تحت اقداسهم • اليوم ، فى كل من انجلترا وأمريكا ، فان «الشرط الأولى اية ثورة حقيقية للشعب» هو اسقاط وتحطيم «الآلة التى تعمل فى متناول الدولة» • (اكتمل وانجز هذا الشرط فى هذه الأقطار ما بين أعوام ١٩١٤ - ١٩١٧ م • ، حتى المستوى الاوروبى الامبريالى عموما) • نحن لسنا يوتوبيين (أصحاب مدن فاضلة) ، لن نستغرق فى أحلام حول كيف نقوم بعمل الأفضل توا وفى الحال بكل تنظيم ، مع الخضوع التام : هذه أحلام فوضوية مبنية على الرغبة فى معرفة مهام ديكتاتورية البروليتاريا • • لا ، نحن نريد الثورة الاشتراكية بطبيعة انسانية كما هى الآن ، والطبيعة الانسانية ذاتها لا يمكن أن تؤدى عملها بدون اخضاع ، بدون رقابة ، بدون مديرين وموظفين • لكن هنا ينبغى الخضوع للطليعة المسلحة لكل المستغلين والطبقات العاملة • •

• • • ويتناسى دوما أن تدمير الدولة يتطلب أيضا تدمير الديمقراطية ، لان الغاء وابطال الدولة يعنى أيضا الديمقراطية والتخلص منها • للوهلة الأولى تبدو هذه العبارة غريبة لأبعد حد وغير مفهومة • حقا ، ربما يبدأ البعض التخوف خشية أننا نتوقع حلول مثل ذلك النظام للمجتمع والذى فى ظله لايقوم مبدأ حكم الأغلبية • اليس الديمقراطية تماما هى اقرار وتسليم بهذا المبدأ؟؟ •

لا ، لا تتطابق الديمقراطية مع حكم الأغلبية • لا ،
فالديمقراطية دولة حيث تقرر خضوع الأغلبية للأقلية ، هي ،
تنظيم للاستخدام المنظم للعنف من قبل طبقة ضد أخرى من
قطاع من الشعب ضد آخر •

الديمقراطية لأقلية ضئيلة . الديمقراطية للأغنياء
هذه هي ديمقراطية المجتمع الرأسمالي ••• ديكتاتورية
البروليتاريا ••• لا يمكن أن تنتج أى امتداد على الأقل
للمديمقراطية • بل معا مع امتداد وتوسيع هائل للمديمقراطية
- للمرة الأولى تصبح الديمقراطية للفقراء - ستنتج
ديكتاتورية البروليتاريا وتؤدي لسلسلة من القيود على
الحريات فى جانب المضطهدين المستغلين ، والرأسماليين •
ينبغى أن تسحقهم لكى تحرر الانسانية من عبودية الأجر ،
ينبغى تدمير مقاومتهم بالقوة ، ومن الواضح حيث يوجد
قمع وكبت يوجد بالضرورة عنف ، ولا يمكن أن توجد الحرية
والديمقراطية •

لينين : العمال ، فى اليوم التالى لتقلد الشيوعيين زمام السلطة *

« هذا النص من كتاب الدولة والثورة ، يوضح مفهوم لينين قبيل الثورة حول بعض سمات الفترة الانتقالية للشيوعية خصوصا كما هو مركز وتعنى بالـ «كيفية» » -

● - - - بهذا الخصوص جدير بالذكر الانجازات الخاصة التى حققتها الكوميونة وأكد عليها ماركس : الغاء كل بدلات التمثيل ، وكل المرتبات الخاصة فى حالة المسؤولين الرسميين وتخفيض أجور كل رجال الدولة لمستوى أجور العمال - ويتضح هنا أكثر من أى مكان آخر النقلة من الديمقراطية البرجوازية الى الديمقراطية البروليتارية ، من ديمقراطية المضطهدين الى ديمقراطية المضطهدين ، من سيادة وهيمنة «سلطة خاصة» لممارسة قمع طبقة معينة الى هيمنة المقهورين من خلال القوة الكلية لأغلبية الأمة - البروليتاريا وصغار الفلاحين وفى هذه النقطة الواضحة جدا يعد صحيحا أنه يقدر أهمية مشكلة الدولة والاهتمام بها ربما تم تجاهل تعاليم ماركس حولها - لقد تم تجاهلها كلية فى العديد من التفسيرات

(*) لينين - الدولة والثورة - السابعة -

الشائعة ليس من «اللائق» التحدث عن تاليم ماركس كما لو أنها تبسيط ونوع من «السذاجة» من طراز قديم ، تماما كما فعل المسيحيون بمجرد بلوغهم وتحقيقهم للدولة الدينية «وتناسوا» بساطة المسيحية البدائية ، ومعها روحها الديمقراطية الثورية .

يبدو التخفيض في مرتبات وأجور أعلى المسئولين الرسميين للدولة ببساطة محض سذاجة ومطلب بدائي للديمقراطية . وأحد «مؤسسي» الانتهازية الجديدة ، والاشتراكي الديمقراطي السابق ، برنشتاين ، مارس مرارا عبقريته في تكرار واعادة السخرية السوقية الرأسمالية تجاه الديمقراطية «البدائية» ومثل كل الانتهازيين ، ومثل الاتباع الحاليين لكأوتسكي ، فشل تماما أن يفهم أنه قبل كل شيء يصبح التحول والانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مستحيلا دون «الرجوع» في الاجراءات الى الديمقراطية «البدائية» كيف يمكننا بطريقة أخرى النجاح في أداء كل وظائف الدولة من خلال أغلبية الجماهير أو من خلال كل فرد من الشعب ؟ ثم ثانيا ، تناسى برنشتاين أن الديمقراطية ليست نفس الديمقراطية البدائية كما هي موجودة في عصور ما قبل التاريخ أو ما قبل مرحلة الرأسمالية . فلقد خلقت الحضارة الرأسمالية الصناعية على أوسع مدى في شكل مصانع ، سكك حديدية مكاتب بريد ، تليفونات ، وما الى ذلك : وعلى هذا الأساس تم تبسيط وتخفيض معظم وظائف الدولة «الدولة القديمة» في الممارسة الى عمليات بسيطة جدا من قبيل التسجيل والتنظيم والمراجعة . ومن ثم ستصبح في متناول كل شخص مثقف ، ويصبح بالامكان أدائها بالنسبة «للعامل المأجور» العادي . وينبغي أن تعرى هذه

البيئة وستجردهم كل سحرهم وفتنتهم السابقة باعتبارها حكومة • ومن كونهم لهذا السبب خدمة مميزة •

وتعد مراقبة كل الموظفين بلا استثناء من خلال تطبيق المبدأ الغير متحفظ للاختيار والاقالة عند أية لحظة وتقريب الأجور لمستوى «الأجر العادى للعمال» تعد هذه اجراءات ديمقراطية بسيطة «ودليل ذاتى» ، والذي يكمل متسقا مع مصالح العمال مصالح غالبية المزارعين ، وفى نفس الوقت ، يستخدم كقنطرة ويعبر من الرأسمالية الى الاشتراكية • وتشير هذه الانازات الى الدولة ، وبالمثل ، الى عملية اعادة بناء المجتمع سياسيا بشكل خالص ، ولكن بطبيعة الحال ، تكتسب معناها الكامل وأهميتها عندما تكون مصحوبة بعملية «مصادرة أولئك المستغلين» أو على الأقل بالخطوات التمهيدية لها . بالطريق والمرور من الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج الى الملكية الجماعية •

كتب ماركس : أدركت الكوميونة أن مثال كل الثورات البرجوازية هو تقليل وتقليص سلطة الحكومة بالغاء أضخم عاملين للنفوذ - الجيش ، البيروقراطية •

من طبقة المزارعين ، كما هو من القطاعات الأخرى للطبقة الوسطى الدنيا ، ترتفع للقمة أقلية ضئيلة فقط ، و «تدخل المجتمع» لتؤدي مهمة بمعنى برجوازي وهى لتنتقل اما لكونها أعضاء ملاك من الطبقة الوسطى العليا ، أو لكونها موظفين رسميين مقدسين ومتميزين • الغالبية العظمى من الفلاحين المزارعين فى كل البلدان الرأسمالية حيث توجد طبقة الفلاحين (وغالبية البلدان الرأسمالية من هذا النوع)

تكن مضطهدة ومقهورة بفعل الحكومة وحتى سقوطها ، تحيا
بأمل « تقليص » الحكومة ويمكن تحقيق هذا الأمل فقط
بأيدي الدولتيا ريا ، وبحقيقة أن ادراك ذلك ، تقوم
البرولتيا ريا بقطع خطوات نحو عملية اعادة البناء الاشتراكي
للمجتمع في نفس الوقت للدولة .

قراءة رقم (١٤)

لينين : المنظمة الشيوعية والاستراتيجية *

«فيما يلي الشروط» الاحدى والعشرون «المشهورة»
والتي وضعت كإطار لكل الاحزاب الشيوعية عبر العالم ،
بعد قيام الدولية الشيوعية بعام ، واصبحت بعد ذلك ملزمة
بصرامة . ولزيد من التفسير والشرح المنظم لتفاصيل
الاستراتيجية والتكتيك الشيوعى يرجع لكتاب سلزنك
Selznick السلاح التنظيمى (نيويورك ١٩٥٢ م) . »

● أرسى المؤتمر الثانى الدولية الشيوعية شروطها
لالتحاق بها كما يلي :

١ - ينبغى أن تحمل الدعاية العامة والتعريض طابعا
شيوعيا حقيقيا ، ويجب أن تتوافق مع برنامج وقرارات
الدولية الثالثة . وينبغى تحرير مجمل مطبوعات الحزب
بأقلام شيوعيين موثوق بهم أثبتوا ولاءهم للثورة البروليتارية .
وينبغى عدم التحدث عن ديكتاتورية الدوليتاريا بيتبسيط
كصيغة مبتذلة متداولة . بل ينبغى الدفاع عنها بالطريقة
التي تكون ضرورتها ظاهرة لكل نوعية من الرجال والنساء
العاملين . ولكل جندى وفلاح ، وينبغى أن تنبثق من الواقع
اليومى . وينبغى أن تسجلها بانتظام مطبوعاتنا يوما بيوم .
كل المجلات الدورية والمطبوعات الأخرى مثل مطبوعات

ومنشورات الحزب هى موضع رقابة اللجنة التنفيذية الدائمة للحزب ، بصرف النظر عما اذا كان الحزب شرعيا أم غير شرعى . وينبغى الا يسمح بأية حال للناشرين بإساءة استخدام استقلالهم الذاتى وتنفيذ سياسة ليست متسقة تماما مع سياسة الحزب . حيث يكون لاتباع الدولية الثالثة أى منفذ ، وآيا كانت وسائل الدعاية التى فى متناولهم . سواء كانت أعمدة الصحف ، الاجتماعات الجماهيرية . اتحادات العمال ونقاباتهم والتعاونيات فمن الضرورى واللازم لهم شجب وادانة البرجوازيين ومعاونيهم وعملائهم - الاصلاحيين من كل لون .

٢ - ينبغى على كل منظمة ترغب فى الانضمام للدولية الشيوعية أن تلتزم بانتظام بتنحية وابعاد كل الاصلاحيين واتباع النهج « الوسط » عن كل المواقع المسؤولة فى الحركة العمالية (منظمة جزيية ، الصحافة ، نقابات العمال ، المجموعات البرلمانية ، التعاونيات ، المحليات ، الخ) . واحلال الشيوعيين بدلا منهم حتى لو على حساب احلال الانتهازيين عند التجربة الأولى بدلا منهم .

٣ - يدخل الصراع الطبقي فى معظم بلدان أوروبا وأمريكا مرحلة الحرب المدنية . وفى ظل هذه الظروف ليس باستطاعة الشيوعيين الثقة فى القوانين البرجوازية . يجب عليهم أن يخلقوا أدوات موازية غير شرعية فى كل مكان ، والتى ينبغى عند اللحظة الحاسمة أن تكون ذات عون للحزب كى يقوم بواجبه نحو الثورة . وفى كل قطر حيث تبعا للقوانين العرفية أو القوانين الاستثنائية الأخرى لم يكن باستطاعة الشيوعيين القيام بعملهم شرعيا . يكون الترابط والدمج بين العمل الشرعى والعمل اللاشرعى امرا ضروريا على الاطلاق .

٤ - الدعاية الدؤوبة المنظمة والتحريض ينبغى القيام بها في صفوف الجيش ، حيث يجب تكوين المجموعات الشيوعية في كل تنظيم عسكري . وحينما يكون التحريض مستحيلا تبعا للقوانين القمعية ، ينبغى القيام بهذا التحريض بشكل غير شرعى . ولكن رفض القيام به او المشاركة في هذا العمل يجب اعتبارها مساوية لخيانة الثورة ، وغير منسقة مع الانتساب للدولية الثالثة .

٥ - الدعاية المنظمة والمنظمة ضرورية في الاحياء السكنية (الريفية) . فلن يمكن للطبقة العاملة احراز أى نصر بدون حصولها على تأييد وتعاطف العمال الريفيين والمزارعين الفقراء على الأقل ، مالم يتم توظيف القطاعات الأخرى من الشعب والاستفادة بها . يكتسب العمل الشيوعى في الاحياء الشعبية أهمية فائقة ابان الفترة الحالية . وينبغى تنفيذة من خلال العمال الشيوعيين من المدينة والريف الذين لهم ارتباطات بتلك الاحياء الشعبية . ورفض القيام بهذا العمل . أو تحويله لعمل نصف اصلاحى غير موثوق به ، يعد مآويا لانكار الثورة البرولتارية والارتداد عنها .

٦ - ينبغى على كل حزب يرغب فى الانضواء تحت لواء الدولية الثالثة اذانة واستنكار ليس فقط الاشتراكية الوطنية المعلنه . بل أيضا زيف وتفاق الاشتراكية السلمية (السلام الاجتماعى) **Social Pacifism** : ينبغى أن يوضح بشكل منظم للعمال أنه بدون الاطاحة الثورية بالرأسمالية ليس بإمكان لا التحكيم الدولى ولا محادثات نزع السلاح ولا المنظمات الديمقراطية لهيئة الأمم أن تنقذ البشرية من حروب امبريالية جديدة .

٧ - ينبغى على الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية

الشيوعية اداراك ضرورة الانفصال التام والمطلق عن النزعة
الاصلاحية وسياسة المعتدلين ، وينبغى الدفاع عن هذا
الانفصال وسط الدائرة الواسعة لأعضاء الحزب ، بدون ذلك
الشرط تصبح السياسة الشيوعية المتماسكة والمنسقة شيئا
مستحيلا . وتتطلب الشيوعية الدولية تحقيق هذا الانقطاع
والانفصال النهائي وبلا شرط بأقل تأخير ممكن

٨ - فيما يتعلق بمسألة المستعمرات والأمم المضطهدة ،
من الضروري اعلان خط واضح ومحدد لسلوك أحزاب الدول
التي لها مستعمرات تحت قبضة البرجوازية أو تحت نير
قهرها . ينبغى على كل حزب يرغب فى الانضمام للدولية
الثالثة استنكار بلا تحفظ كل وسائل الامبريالية فى
المستعمرات ، وتأييد ودعم حركة التحرر فى المستعمرات
ليس بالكلمات بل عمليا . ويقتضى ذلك طرد مستعمرة من
هذه المستعمرات وزرع وغرس اتجاه ونزعة حقيقية بين عمال
بلده وعمال هذه المستعمرات والشعوب المقهورة ، وتنفيذ
تحرير منظم فى جيوش بلده ضد كل لون القهر لشعوب
المستعمرات .

٩ - ينبغى على كل حزب يرغب فى الانضمام للدولية
الشيوعية القيام بعمل شيوعى منظم متماسك ومنسق فى
نقابات العمال والتعاونيات وباقي المنظمات الجماهيرية .
ومن الضرورى تكوين الخلايا الشيوعية داخل هذه
المنظمات ، حيث بالعمل الدؤوب والمتماسك يجب أن تكسب
النقابات العمالية لصف الشيوعية . ينبغى على هذه الخلايا
باستمرار استنكار وادانة غدر الاشتراكيين الوطنيين
وتقلبات «المعتدلين» . وينبغى على هذه الخلايا الشيوعية أن
تكون تابعة تماما للحزب بوجه عام .

١٠ - أى حزب ينتمى للدولية الشيوعية ملزم بالقيام بنضال صارم ضد «دولية» امستردام Amsterdam لنقابات العمال الأمريكية (الصفراء) وينبغى عليه القيام بدعاية منظمة وسط العمال المنظمين بضرورة مقاطعة دولية امستردام الصفراء وينبغى عليه التأييد بكل الطرق وبكل قوته للاتحاد الدولى لنقابات العمال الحمراء المنضمة للدولية الشيوعية .

١١ - الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية الثالثة سيصبح لزاما عليها مراقبة أعضاء مجموعاتها البرلمانية . كى تنحى كل العناصر الغير الموثوق بها وكى تراقب هذه المجموعات وتوجهها ليس اسما بل فعليا ، كى تخضعهم للجنة المركزية للحزب وتطلب من كل عضو وممثل شيوعى فى البرلمان أن يكرس مجمل نشاطه لصالح الدعاية الثورية الحقيقية وللتحريض الثورى .

١٢ - ينبغى أن تتشكل كل الأحزاب المنتمية للدولية الشيوعية على أساس مبادئ المركزية الديمقراطية . ففى الفترة الحالية للحرب المدنية الحادة يصبح الحزب الشيوعى هو القادر فقط للقيام بواجبه تماما عندما يقوم تنظيمه بأسلوب مركزى تماما . وعندما يمتلك انضباطا صارما حديديا وعندما يتمتع قيادة الحزب بثقة أعضائه ويتاح لها سلطة تامة وقوة حقوق واسعة .

١٣ - الأحزاب الشيوعية فى البلدان التى يتمتع بها العمل الشيوعى بالشرعية ينبغى عليها أن تطهر صفوفها من وقت لآخر ، وأيضا صفوف منظماتها لكى تطهر الحزب بانتظام من العناصر البرجوازية الصغيرة التى تخترق صفوفه .

١٤ - كل حزب يرغب فى الانتساب للدولية الشيوعية

ينبغي أن يلتزم بتقديم كل عون ممكن للجمهوريات السوفيتية في نضالها ضد كل القوى المضادة للثورة . ينبغي على الأحزاب الشيوعية القيام بدعاية محددة ودقيقة لاقتناع العمال برفض نقل أى نوع من الامدادات العسكرية المعدة للقتال ضد الجمهوريات السوفيتية ، وينبغي عليها بالوسائل الشرعية واللاشرعية القيام بدعاية فى صفوف القوات المرسله للقتال ضد الاتحاد السوفيتى .

١٥ - ينبغي على الأحزاب التى مازالت تتمسك بالبرامج الاشتراكية الديمقراطية القديمة حتى اللحظة الحاضرة أن تقوم برسم برنامج شيوعى وفقا للظروف الخاصة لبلدانها وفى أقصر وقت ممكن ، وتبعا لحلول واطروحات الدولية الشيوعية

١٦ - كل الحلول التى يطرحها مؤتمر الدولية الشيوعية، وبالمثل حلول اللجنة التنفيذية تكون ملزمة لكل الأحزاب المنضمة للدولية الشيوعية . فالدولية الشيوعية تعمل فى ظل ظروف حرب مدنية حادة جدا . وفى نفس الوقت ، فالدولية الشيوعية واللجنة التنفيذية ملزمة بأن تضع فى اعتبارها وفى كل صور نشاطها تعدد وتنوع الظروف التى تضطر الأحزاب المختلفة للعمل والنضال فى ظلها وبوجه عام ينبغي أن تكون الحلول الملزمة سارية المفعول فقط على مثل تلك القضايا الممكن تناولها فى اطارها .

١٧ - بالاشارة لكل ماسبق ، ينبغي على كل الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية الشيوعية أن تغير أسمائها . ينبغي على كل حزب راغب فى الانضمام للدولية الشيوعية أن يحمل الاسم التالى : الحزب الشيوعى لهذا القطر أو ذاك ، قسم من الدولية الشيوعية الثالثة . فمسألة اسم الحزب ليست

قضية شكلية فقط ، بل هى قضية سياسية ذات أهمية قصوى .
فلقد أعلنت الدولية الشيوعية حربا شعواء ضد مجمل العالم
البرجوازى ، وضد كل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية
الصفراء . انه لأمر ضرورى أن كل عامل ينبغى عليه التمييز
بوضوح بين الأحزاب الشيوعية والأحزاب «الاشتراكية
الديمقراطية» الرسمية أو الاشتراكية ، والتي خانت قضية
الطبقة العاملة .

١٨ - كل الهيئات القيادية لمطبعة ودار نشر كل حزب
ملزمة بنشر كل الوثائق الهامة للجنة التنفيذية الدولية
الشيوعية .

١٩ - كل الأحزاب التى انضمت للدولية الشيوعية
وبالمثل تلك التى أظهرت رغبتها فى الانضمام لها ، ملزمة
وفى أقصر وقت ممكن وبما لايزيد على مدة أربعة أشهر بعد
انعقاد مؤتمر الدولية الشيوعية ، ملزمة بعقد مؤتمر طارئ
لمناقشة هذه الشروط . وبالإضافة لذلك ، ينبغى على اللجان
المركزية لهذه الأحزاب أن تهتم بإطلاع كل المنظمات القطرية
التابعة لها على لوائح ونظم المؤتمر الثانى .

٢٠ - كل الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية
الثالثة فى الوقت الحاضر ، ولكنها لم تغير من تكتيكاتها
radical أى شكل راديكالى ينبغى قبل انضمامها
للدولية الثالثة ، أن تضع فى اهتمامها ينبغى أن يتشكل من
أعضاء لجنتها وكل هيئاتها المركزية مما لا يقل عن ثلثى مجمل
الأعضاء من الرفاق الذين قدموا اعلانا صريحا ومحددا قبل
انعقاد المؤتمر الثانى ، برغبتهم بوجوب انضمام الحزب.

للدولية الثالثة - يسمح بالاستثناءات فقط وفقا لموافقة
اللجنة التنفيذية للدولية الثالثة . . .

٢١ - الأعضاء الذين يرفضون من حيث المبدأ هذه
الشروط وأطروحات الدولية الثالثة ، يكونون عرضة للفصل
من الحزب . . .

لينين : حول توجيه الانتقادات الطائشة *

« يوضح النص التالي من مختارات لينين تطبيقه الارهاب على الافتقادات الاشتراكية وهو مقتبس من خطابه أمام المؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى الروسى عام ١٩٢٢ » *

● قرأت فى يوم سابق مقالا للرفيق Rarorl فى العدد العشرين من الدولية الشيوعية حول كتاب جديد من تأليف أوتو باور **Otto Bauer** (وهو كان معلما فى أحد الفترات ، ولكنه أصبح مثل كاوتسكى ماديا خجلا بعد الحرب) * يكتب باور الآن : « انهم يرتدون الآن الى الرأسمالية * فنحن نقول دائما ان الثورة هى ثورة برجوازية » *

والمناشفة **Mensheviks** (الأقلية) والثوريون الاشتراكيون وكل من يتمم ويبشر بهذا النوع من الأشياء ، يندهشون عندما نقول اننا سنطلق الرصاص على أولئك الذين يقولون مثل هذا الكلام * هم مندهشون . ولكنه أمر واضح ومؤكد * فعندما يكون جيش ما فى حالة انسحاب ، يتطلب انضباطا والتزاما أكثر مائة مرة مما يتطلبه عندما يكون الجيش متقدما ، لانه خلال التقدم والهجوم يهاجم كل شخص للامام *

(★) نقلا عن : لينين ، أعمال مختارة (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٥١ م)
مجلد ٢ ، ص ٩٤٨ - ٦٤٩ *

فلو بدأ كل شخص فى الاندفاع للخلف الآن ، يعنى ذلك كارثة فورية وحتمية •

الأمر المحدد عند تلك اللحظة ، وأهم شيء هو أن تنسحب فى نظام جيد وأن تحدد الحدود الدقيقة للانسحاب ، وألا تدع مجالا للفوضى والهلع • عندما يقول المناشفة «أنتم تنسحبون وتراجعون الآن ، لقد كنا ندافع عن الانسحاب دائما ، نحن نتفق معكم ، نحن رجالكم ، دعنا ننسحب سويا »نقول نحن ردا عليهم» فى مواجهة التأييد والدفاع العلنى عن المنشفية Menshevism ينبغى أن تصدر محاكمنا الثورية حكمها بالموت على من يقوم بذلك ، أكثر من هذا ليست هى محاكمنا ، بل الرب يعلم ماهى » •

هم لا يستطيعون فهم هذا ويدعون ، «ياله من أسلوب وسلوك ديكتاتورى الذى يسلكه هؤلاء الناس» فهم مازالوا يعتقدون أننا نضطهد المناشفة لأنهم هاجمونا فى جنيف ولكن لو أننا قد اتبعناهم ومضينا فى طريقهم ، كنا قد أصبحنا غير قادرين على تقلد السلطة لمدة شهرين • حقا ، ان المواعظ التى يلقيها أوتو باور ، وقادة الدوليات الثانية ، والثانية والنصف ، ويلقيها المناشفة والثوريون الاشتراكيون تعبر عن طبيعتهم الحقيقية «لقد ذهبت الثورة بعيدا جدا • وما تقولونه الآن قد قلناه طيلة الوقت ، اسمعوا لنا بقوله ثانية «لكن نقول ردا عليهم : «دعونا نضعكم أمام طابور الرماة عقابا على قولكم هذا • اما أن تحجموا عن اعلان آرائكم ، أو ، لو صممت على التعبير عن آرائكم السياسية

علانية والترويج لها فى هذه الظروف الحالية ، حيث موقفنا أصعب وأدق مما كان عليه عندما كان يهاجمنا الحراس البيض مباشرة ، سوف نعاملكم كما لو كنتم أسوأ وأشد العناصر الضارة والمؤذية بين الحراس البيض» • ينبغي ألا ننسى ذلك ••

قراءة رقم (١٤ ب)

لينين : حول الأخلاق الشيوعية *

« يقرر لينين صراحة أن الأخلاق الشيوعية تابعة تماما لمصالح النضال الطبقي للبروليتاريا - اجتزأ هذا النص من خطاب لمنظمة الشباب الشيوعي ، ١٩٢٠ م »

● سأتناول هنا وقبل كل شيء مسألة الأخلاق الشيوعية - يجب أن تتمرسوا بأنفسكم كي تكونوا شيوعيين - ومهمة اتحاد الشباب تكمن في تنظيم نشاطاته العملية بالأسلوب الذي يتيح لأعضائه من خلال التعليم ، التنظيم الاتحاد ، النضال ، تدريب أنفسهم وكل من ينظر اليهم على أنهم قادة ، كي يكونوا شيوعيين والهدف الكلي من التدريب ، التعليم التعلم لشباب اليوم هو ضرورة أن يستوعبوا ويتشربوا الأخلاق الشيوعية -

لكن هل يوجد ذلك الشيء الذي نطلق عليه المبادئ الأخلاقية الشيوعية ؟ هل هناك ما يسمى بالأخلاق الشيوعية؟ بالطبع ، توجد أخلاق شيوعية - وغالبا ما يعمل على اظهار أنه ليس لدينا قيم أخلاقية خاصة ، وغالبا ما يتهمنا البرجوازيون نحن الشيوعيين بإنكار وجعد القيم الأخلاقية وهذا هو منهج الخلط بين المفاهيم ، وذر الرماد في عيون العمال والفلاحين -

(*) لينين ، الأعمال المختارة (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ، ١٩٥١ م)

مجلد ٢ ، ص ٤٨٢ ، ٤٨٤ -

بأى معنى ننكر ونجحد القيم والأخلاق ؟ بالمعنى الذى يعطى به ويشرح بها البرجوازيون ، الذين يستمدون القيم الاخلاقية من وصايا الله . .

نحن ننكر كل الأخلاق التى تنحى جانبا المجتمع الانسانى والطبقات وتنفصل عنها . نحن نرى أنها مخادعة وتضليل ، وتشويش لعقول العمال والفلاحين من جانب الاقطاعيين والرأسماليين .

ونرى أن قيمنا الأخلاقية تخضع كلية لمصالح النضال الطبقي للبروليتاريا . وأخلاقنا تشتت من مصالح النضال الطبقي للبروليتاريا .

لقد كان المجتمع القديم قائما على اضطهاد كل العمال والفلاحين على أيدي الاقطاعيين والرأسماليين كان ينبغي علينا تحطيم ذلك ، كان علينا أن نطيح بهم ، ولكن من أجل ذلك كان علينا أن نقيم اتحادا . . ويمكن التوصل والاعداد لهذا الاتحاد فقط عن طريق المصانع والعمل ، فقط من خلال البروليتاريا المدربة المتمرسه والتى استيقظت من سباتها . . ونرى الآن ، على أساس التجربة ، أن البروليتاريا فقط هى القادرة على خلق القوة الفعالة والتى ينتمى تحت لوائها الفلاحون المبعثرون المتفرقون، والتى يمكنها التصدى لهجمات المستغلين . وهذه الطبقة هى الوحيدة التى يمكنها مساعدة الجماهير الكادحة على التوحد وحشد صفوفها ، وحمايتها وفى النهاية دمج قوتها وانصهارها وفى النهاية بناء وقيام المجتمع الشيوعى .

وهذا هو السبب فى قولنا بعدم وجود شيء يسمى الأخلاق بمعزل عن المجتمع الانسانى ، انها خديعة . الأخلاق

بالنسبة لنا خاضعة وتابعة لمصالح النضال الطبقي
للبروليتاريا . .

عندما يتحدث الناس اليانا عن الأخلاق ، نقول : تكمن
الأخلاق بالنسبة للشيوعيين فى الانضباط الموحد الصارم
ونضال الجماهير الواعية ضد مستغليها . . . وقاعدة
الأخلاق الشيوعية هى النضال من أجل تدعيم واستكمال
الشيوعية وهو أيضا ، قاعدة التدريب والتعليم والتربية
الشيوعية . .

ليون تاروتسكى : الثورة الدائمة *

« كتب عام ١٩٠٦ م . حيث حدد تاروتسكى البرنامج المستقبلى الذى كان على لينين والبلاشفة أن يحققوه عام ١٩١٧ م . وفى الوقت الذى كتب فيه تاروتسكى ذلك ، كان بمفرده عمليا فى موقفه حيث قدم تخليا وانكارا عميقا للمادية التاريخية الماركسية . وانه لمن الواضح أن العمل الذى اجتزأ منه النص التالى قد أعيد نشره من خلال الدولية الشيوعية بموسكو عام ١٩٢١ م . عندما كان لينين على قيد الحياة ، وترجم الى اللغات الأجنبية بالمثل » .

● كل حزب سياسى جدير باسمه ، يناضل من أجل الاستحواذ على السلطة السياسية وبالتالى وضع الدولة فى خدمة الطبقة التى يعكس مصالحها . والديمقراطيون الاشتراكيون يكونونهم حزب بروليتارى يناضل بطبيعة الحال من أجل السيادة والهيمنة السياسية للطبقة العاملة .

تنمو البروليتاريا وتصبح أكثر قوة مع نمو الرأسمالية وبهذا المعنى يصبح تطور الرأسمالية هو أيضا تطور البروليتاريا نحو الديكتاتورية لكن تعتمد الساعة واليوم

(*) من مراجعة بضر وجهات النظر « الترجمة الانجليزية » (الدولة الشيوعية)

موسكو ١٩٢١ م . ص ٣٥ - ٤٠ .

الذى ستنقل فيه السلطة للطبقة العاملة ليس على مستوى القوى الانتاجية ، بل على علاقات النضال الطبقي ، وعلى الموقف الدولى ، وعلى التقاليد ، والمبادرة والاستعدادات القتالية للعمال .

من الممكن بالنسبة للعمال الوصول للسلطة فى البلدان المتخلفة اقتصاديا أسرع مما هو متاح فى تلك المتقدمة . أحرز العمال السلطة فى أيديهم عام ١٨٧١ م فى باريس البرجوازية الصغيرة حقيقة استمروا لمدة شهرين فقط ، ولكن فى انجلترا الرأسمالية العالية التطور أو الولايات المتحدة .

لم يتقلد العمال السلطة أبدا لمدة ساعة واحدة . كى نعتقد أن ديكتاتورية البروليتاريا تعتمد تلقائيا وبطريقة معينة على التطور التقنى للقطر ، يعد ذلك هيوطا بالمادية «الاقتصادية» الى مستوى اللامعقولية . وهذا الرأى ليس شيئا على غرار الماركسية .

فى رأينا أن الثورة الروسية سوف تخلق الظروف التى ستنقل فيها السلطة لأيدى العمال - وعند حدث أنصار الثورة ، ينبغى أن تنتقل السلطة لأيدى العمال - قبل أن يصبح البرجوازيون قادرين على تطوير قدرتهم على الحكم .

ليس هناك شك بأن كثافة وتركز وثقافة وأهمية البروليتاريا الصناعية سياسيا تعتمد على مدى تطور الصناعة الرأسمالية - لكن هذا الاعتماد ليس مباشرا . توجد بين القوى الانتاجية للمجتمع والقوة السياسية لطبقاته عوامل سياسية واجتماعية عديدة تؤدى الى تحريف وأحيانا تغيير كلى لشكل العلاقات السياسية . فرغم حقيقة أن القوة الانتاجية للولايات المتحدة أكثر عشر مرات من روسيا ، مع

ذلك فان الدور السياسى للبروليتاريا الروسية ، وتأثيرها فى سياسات البلد ، وامكانيات تأثيرها فى سياسة العالم أضخم بشكل لايقارن من تلك التى لبروليتاريا الولايات المتحدة .

... ألا يعطينا كل ذلك سببا كى نفترض أن «الانسان» الروسى سيتقلد السلطة أسرع من «سيده» ؟

يمكن أن يوجد شكلان للتفاؤل السياسى . أحدهما يمكنه المغالاة فى تضخيم قوة المرء وايجابياته فى الموقف الثورى ويأخذ على عاتقه المهام التى لاتبررها علاقات القوى المتاحة . وعلى الجانب الآخر ربما يضع الشكل الآخر حدود المهام الثورية أبعد مما يمكن أن تكون عليه اذا اشتقت من منطق موقفنا .

من الممكن اختصار كل قضايا الثورة الى محور ثانوى بتأكيد أن ثورتنا برجوازية فى أهدافها وكذا فى نتائجها الحتمية ، مغمضا العين عن حقيقة أن الممثل الرئيسى فى هذه الثورة البرجوازية هو البروليتاريا ، التى تهاجم طيلة الوقت بغية السلطة .

ربما يطمئن المرء نفسه بأنه فى الثورة البرجوازية يمكن أن تصبح سيطرة البروليتاريا مرحلة انتقالية فقط ، متناسيا أنه بمجرد استحواذ البروليتاريا على السلطة لن تتخلى عنها بلا مقاومة عنيفة أو حتى تنتزع منها بالقوة المسلحة .

ربما يطمئن المرء نفسه بأن الظروف الاجتماعية فى روسيا ليست ناجمة لتحقيق الاشتراكية بدون التفكير بأن البروليتاريا ، المستحوذة على السلطة ، من خلال المنطق الخاص لموقفها ، يجب حتما أن تهاجم للامام لتحقيق تنظيم

الدولة للصناعة • فالمصطلح الاجتماعي العام للثورة البرجوازية يحل على أية حال المشاكل السياسية التكنيكية ، المتناقضات ، الصعوبات التي يثيرها آليات (مكاينيزم) أية ثورة برجوازية معلومة •

في الثورة البرجوازية عند نهاية القرن الثامن عشر والتي كانت تهدف الى سيطرة رأس المال توجد ديكتاتورية الجماهير المتطرفة *sansculottes* كشئ ممكن • ولم تكن هذه الديكتاتورية مرحلة عابرة بسيطة ، فلقد تركت تأثيرها على القرن اللاحق ، رغم حقيقة أنها اصطدمت بسرعة ضد الحواجز المغلقة للثورة البرجوازية • وفي الثورات التي بدأت في القرن العشرين ، والتي كان هدفها المباشر برجوازية أيضا نلاحظ تطور وتنامي الحتمية ، أو ربما فقط السيطرة المحتملة للبروليتاريا • والبروليتاريا ذاتها ستري أن السيطرة لم تعد «مرحلة» عابرة كما يريد بعض الواقعيين الرجعيين • ولكن يمكننا أن نتساءل في الحال : «هل من المعتم أن تصطدم ديكتاتورية البروليتاريا ضد تخوم وحدود الثورة البرجوازية ، أو هل من الممكن أنه في أى مجموعة معينة من ظروف العالم التاريخية تكون احتمالات الانتصار متاحة بشكل واسع أمامها ، ثم يمكن أن تخترق حدود الثورة البرجوازية ؟ سنواجه هنا بمسألة التكتيك هل ينبغي علينا أن نعمل بوعى لصالح حكومة الطبقة العاملة ابان الفترة التي تتقدم خلالها الثورة نحو هذه المرحلة - أو هل ينبغي علينا عند هذه اللحظة اعتبار السلطة السياسية محنة وسوء طالع قد تفرضه الثورة البرجوازية على العمال ، وقد يكون من المستحسن تجنبها ؟

قراءة رقم (١٦)

كارل كاوتسكى : الارهاب والشيوعية *

« كتب كاوتسكى عام ١٩١٩ م . متهما الشيوعيين بخيانة المبادئ الماركسية ، الاشتراكية والديمقراطية .
وابان فترة تأليف هذا العمل ، كان الارهاب الشيوعى ينطلق وبالمقارنة بما سيقع من أحداث ، كان الارهاب عندئذ معتدلا نسبيا ، غير جامع كما فى صورته العنيفة التامة التى تطل كل المعارضين بما فيهم العمال ، الفلاحين ، الاشتراكيين ، وكل الشيوعيين المنشقين .

(للاطلاع على الرد البلشفى أنظر القراءة رقم ١٦ ، ٨) «

● أشار العديد من الثوريين فى الغرب بابتهاج لواقعة وجود البلشفية فى السلطة وبقائها ، ومازال ذلك صحيحا بوضوح حتى وقت كتابة هذه السطور (مايو ١٩١٩ م) وسليم من الوجهة الشكلية ، رغم تنبؤ منتقدى البلشفية فى البداية المبكرة لحكمها بانهيارها السريع . وكان من المحتم وقوع هذا الانهيار فعليا منذ مدة طويلة ، لو كان البلاشفة قد أخلصوا لبرنامجهم . فلقد احتفظوا باستمرارهم وحب بطرح ونبد جزء من برنامجهم الواحد تلو الآخر ، حيث

(*) كارل كاوتسكى ، الارهاب والشيوعية ، الترجمة الانجليزية (مطبعة العمل الوطنى لندن ، ١٩٢٠ م) من ١٩٨ ، ٢١٥ ، ٢٠٢ .

انهم فى النهاية حققوا العكس تماما لما قد أعلنوا أنهم سيحققوه . فعلى سبيل المثال ، من أجل وصولهم لدست الحكم تخلوا عن كل مبادئهم الديمقراطية . ولكى يحتفظوا بالسلطة كان عليهم أن يتخلوا عن مبادئهم الاشتراكية . فلقد حققوا ذواتهم كأفراد ، ولكنهم ضحوا بمبادئهم ، وأثبتوا أنهم انتهازيون عبر تجربتهم من خلال مسارهم .

لقد انتصرت البلشفية حتى الوقت الحاضر فى روسيا ، لكن لقيت الاشتراكية هزيمة قاسية . ينبغى علينا أن ننظر فقط لشكل المجتمع الذى تحقق فى ظل النظام البلشفى ، ومايمكن تحقيقه بمجرد تطبيق المنهج البلشفى ..

كان البلاشفة فى الأصل دعاة مؤيدين لمجلس وطنى يتم انتخابه بقوة تصويت اجماعى ومتساوى فى حق التصويت . لكنهم نحو ذلك جانبا طالما يقف فى طريقهم . وكانوا معارضين عبر مسيرتهم لمقوبة الاعداء ، ومع ذلك شيدوا نظاما دمويا . وعندما تفتقر الدولة للديمقراطية وتنكرها يصبح البلاشفة متمسكين بعنف بالديمقراطية داخل صفوف البروليتاريا . وألفوا نظام العمل بالقطعة ، ولكنهم يتراجعون اليه الآن . ولقد أعلنوا فى بداية قيام نظامهم أن هدفهم هو تحطيم الجهاز البيروقراطى ، أو الذى يمثل وسائل وأدوات سلطة وقوة الدولة القديمة ، ولكنهم قد أحلوا محله شكلا جديدا للحكم البيروقراطى . ولقد انتزعوا السلطة باضعاف وتحلل روح الانضباط فى الجيش ، وفى النهاية الجيش ذاته . ولكنهم أوجدوا جيشا جديدا ، صارم الانضباط ولقد ناضلوا لجعل كل الطبقات تحيا بمستوى واحد والغاء الفوارق بينها ، وبدلا من ذلك الذى دعوا اليه أوجدوا فوارق طبقية جديدة . ولقد خلقوا طبقة تعيش عند أدنى مستوى من البروليتاريا ، ورفعوا البروليتاريا الى منزلة طبقة ذات

امتيازات ، وعلاوة على ذلك مازالوا يعملون على ظهورها كطريقة أخرى تتمتع بدخول هائلة وامتيازات ضخمة . .

لقد عادت استبدادية البيروقراطية القديمة للحياة مرة أخرى فى صيغة جديدة لكن معدلة كما قد رأينا ، وتخلقت وتشكلت بجوار ذلك بذور رأسمالية جديدة ، والتي تعد مسؤولة عن الممارسات الاجرامية المباشرة ، والتي تقف فى الواقع على مستوى أكثر تدنيا وانخفاضا مما كانت عليه الرأسمالية الصناعية فى الأيام السابقة . وعلى أية حال لم يوجد فى روسيا سوى اقطاعات الأراضى للقطاع القديم والتي كانت شروط الفائتها ناضجة . ولكن لم تكن الظروف ناضجة لالغاء الرأسمالية . . . وفوق ذلك فان هذا الافتقار للحرية لايعوضه زيادة فى الرفاهية . .

ويتوقع لمناهج البلاشفة الاقتصادية والأخلاقية الفشل المحتمى . ويمكن كشف النقاب عنه اذا ما انتهى الى انهيار عسكرى . وليس بإمكان الثورة العالمية ولا أى عون خارجى أن يوقف الفشل الاقتصادى للمناهج البلشفية . فمهمة الاشتراكية الاوروبية من زاوية مناهضتها للشيوعية ، مختلفة تماما ، أى تأخذ بعين الاعتبار أن النكبة الأخلاقية الناجمة عن منهج خاص للاشتراكية لن تؤدى الى نكبة للاشتراكية بوجه عام ، وفوق ذلك ، أن تسمى لصياغة حدود فاصلة بين هذه المناهج وبين المنهج الماركسى ، وتعمل على اىصال هذه التفرقة لمعرفة وذهنية الجماهير . وأى جماعة اشتراكية . راديكالية Radical (جذرية) سوف تسىء فهم مصالح الثورة الاشتراكية ، لو أنها تصورت فى الحقيقة أنها تخدم هذه المصالح بادعائها للجماهير بتطابق البلشفية والاشتراكية ، وجعلهم يمتقدون أن الصيغة الحالية للجمهوروية السوفيتية ،

هى نتاج لاجارها فى ظل علم ودراية القوة الكلية للطبقات
العامة والاشتراكية ذاتها . . .

يعد الارهاب من الظواهر التى تقع فى نطاق مسئولية
البشفية ، حيث بدأ بالفاء كل شكل من أشكال حرية
الصحافة ، وانتهى الى نظام الوصاية الجمعية ، وهو بالتاكيد
أكثر الأشياء القاتلة والمنفرة . وهو الذى أدى الى اثاره
الاستياء الشديد ضد البلاشفة . . .

الاعداد رميا بالرصاص — هذا هو مبدأ ومنتهى حكمة
الحكومة الشيوعية . ألم يطالب لينين نفسه المثقفين
(الانتليجنسيا) بمساعدته فى نضاله ضد المحتالين والمغامرين؟
لقد قام بذلك مؤكدا ، فلقد حجب عنهم فقط الوسيلة الوحيدة
التي يمكن أن تساعدهم ، أى حرية الصحافة . فحرية الصحافة
ورقابتها على أى مجال متاح وغير محرم ، يمكنها فقط أن
تراقب هؤلاء المحتالين والمغامرين الذين يرتكزون حتميا على
أية حكومة ذات سلطات غير محدودة ولا تخضع للرقابة . حقا ،
غالبا ما يزدهر هؤلاء الطفيليون ويتنامون فى ظل الافتقار
الى حرية الصحافة . .

ليون تاروتسكى : فى الدفاع عن الارهاب *

« هذا هو رد تاروتسكى على كاوتسكى والاشتراكيين الآخرين • والمنطق الذى استخدمه لتبرير الارهاب ضد «الرأسماليين» هو نفسه الذى يستخدمه فيما بعد كى يبرر الارهاب ضد كل أولئك بما فيهم العمال والفلاحين الذين يعارضون قيادة الحزب الشيوعى • ثم فيما بعد وفى وقت لاحق طبق على اتباع تاروتسكى » •

● ... رغم كل ما يحدث فى عالم اليوم فشل كاوتسكى تماما فى ادراك ماهية الحرب بوجه عام ، والحرب الأهلية على وجه الخصوص • • بل لم يفهم أن كل متعاطف مع النظام فى باريس لم يكن مجرد «معارض» للكوميونيين (دعاة كوميونة باريس) فى الرأى وحسب وبل ، هو عميل وجاسوس للنظام ، وعدو شديد الضرر على أهبة الاستعداد لطعن أى كوميونى فى ظهره • فالعدو يتبغى اعتباره شديد الضرر ، ويعنى ذلك أنه فى وقت الحرب يتبغى تدميره •

تتكون مشكلة الثورة مثل مشكلة الحرب من قهر ارادة العدو ، واجباره على الاستسلام وقبول شروط المنتصر •

(*) ليون تاروتسكى ، الديكتاتورية فى مواجهة الديمقراطية (نيويورك : مطبعة عمال أمريكا ١٩٢٢ م) ، ص ٥٤ - ٥٥ ، ٥٧ - ٥٩ •

والارادة بطبيعة الحال تعد من حقائق العالم الطبيعي ، ولكن خلافا لأى اجتماع أو جدال أو مؤتمر تنفذ الثورة هدفها من خلال توظيف موارد ووسائل مادية - لكن بدرجة أدنى مما هو فى الحرب - حتى البرجوازية ذاتها انتزعت السلطة بوسائل الثورات ، عززتها وعملت على ترسيخها من خلال الحرب الأهلية . وفى المراحل السلمية ، احتفظت بالسلطة من خلال نظام للقمع والقهر - ويقدر قيام المجتمع الطبقي على العداءات والتناقضات ذات الجذور العميقة ، واستمراره فى الوجود ، يبقى القمع وسيلة ضرورية لقهر ارادة الجانب المعارض .

حتى لو تنامت ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد أو آخر من خلال الاطار العام الخارجى للديمقراطية ، من يمنع ذلك أو يحول دون وقوع الحرب الأهلية . وسؤال من الذى يجب أن يحكم البلد ، مثل تقرير حياة أو موت البرجوازية ، لن يتقرر هذا بالاشارة الى نصوص الدستور بل سيتقرر على صعيد آخر بتوظيف واستخدام كل صور وأشكال العنف .

... تعتمد درجة ضراوة النضال على منظومة من الظروف الداخلية والدولية . والامر الأكثر والأشد ضراوة هو مقاومة وبقاء العدو الطبقي الذى تم الاطاحة به ، والأمر الأشد حتمية هو وجود نظام قمعى فى شكل نظام للارهاب .

... البروليتاريا الروسية هى الأولى التى طرقت طريق الثورة الاجتماعية ، والبرجوازية الروسية اجترأت وتشجعت بلا عون على النضال ضد تجريدها ومصادرتها سياسيا واقتصاديا فقط بسبب أنها رأت أختها الكبرى فى كل الأقطار مازالت تتربع على عرش السلطة ، ومازالت تستحوذ

على التفوق الاقتصادى والسياسى ولمدى معين ، التفوق
العسكرى .

لو أن ثورتنا فى نوفمبر قد حدثت بعد عدة أشهر أو
حتى بضعة أسابيع من قيام حكم البروليتاريا فى ألمانيا ،
فرنسا ، وانجلترا ، كان بلاشك من الممكن أن تصبح ثورتنا
أكثر الثورات «السلمية» والبيضاء من الثورات الممكنة على
ظهر هذا العالم الآثم . ولكن هذه النتيجة التاريخية -
الأكثر «طبيعية» للوهلة الأولى وفى أية حالة الأكثر فائدة
ونفعا للطبقة العاملة الروسية تم تجاوزها وانتهاكها ، ليس
من خلال خطأنا بل عبر ارادة الأحداث - بدلا من كونها
الأخيرة ، برهنت البروليتاريا الروسية أنها جديدة
بالصدارة . فهذه هى الظروف التى أحاطت بالثورة الروسية
بعد المرحلة الاولى من الفوضى والاضطراب والتى أضفت
الانتحارية على طابع مقاومة الطبقات التى كانت تحكم روسيا
من قبل ، وأجبرت البروليتاريا الروسية ، عند لحظة الخطر
المسيم ، والهجمات الأجنبية ، والمؤامرات الداخلية والتمرد
المسلح أجبرتها على اللجوء لاستخدام اجراءات ارهاب الدولة .
والآن ليس بإمكان أى فرد القول بعبثية هذه الاجراءات .
لكن ، ربما يمكننا افتراض أنها كانت «مفرطة ولايمكح
تحملها» ؟

يجب على الطبقة العاملة التى انتزعت السلطة فى ساحة
المعركة وكما هو هدفها وواجبها أن تقيم هذه السلطة على
أسس راسخة لاتهتز ، كى تجعل تفوقها وسيادتها فوق
التساؤل وكى تدمر ولع الأعداء لثورات جديدة ، ولكى
تؤكد تنفيذ الاصلاحات الاشتراكية . والا لم يكن هناك
جدوى من عملية انتزاع السلطة .

لاتقتضى الثورة «منطقيا» الارهاب ولا تتطلبه ، كما أنها لاتقتضى «منطقيا» ولاتتطلب أى تمرد مسلح - ياله من شيء مألوف يستعصى على الفهم ! لكن تقتضى الثورة وتتطلب طبقة ثورية ينبغى عليها تحقيق غاياتها بكل الوسائل التى فى متناولها ولو كان ضروريا ، بانتفاضة مسلحة ، ولو كان مطلوبا بالارهاب . فالطبقة الثورية التى انتزعت السلطة بالسلاح فى أيديها مصممة على وسوف تخمد بالبنادق فى أيديها كل محاولات انتزاع السلطة من تحت قدميها . حيثما تجابه بجيش معاد ، سوف تواجهه بجيشها هى . حيثما تجابه بتآمر مسلح ، ومحاولة اغتيال أو انتفاضية سوف تطلق على رؤوس الأعداء أقصى عقوبة . ربما اخترع كاوتسكى وسائل أخرى ؟ أو قد اختزل واختصر كل القضايا الى مستوى ومدى القمع ، وربما يوصى فى كل الظروف باستخدام السجن بدلا من الاعدام ؟

قضية شكل القمع والقهر . أو مداه ودرجته ليست قضية «مبدأ» بل قضية جدوى ومنفعة - ففى الحقبة الثورية، الحزب الذى أبعد وأسقط من عرش السلطة ، والذى لا يروض نفسه على تحمل استقرار وثبات الطبقة الحاكمة فى السلطة ، والذى يثبت ذلك بنضاله اليأسى ضد الطبقة الحاكمة ،لا يمكن ارهابه بالتهديد بالسجن ، لانه لا يمتقد فى بقائها واستمرارها . هذه هى الحقيقة البسيطة والحاسمة التى تفسر اللجوء الدائم للانطلاق فى أتون الحرب الأهلية civil war

أو ربما ، يريد كاوتسكى القول بأن الاعدام ليس مفيدا ، «وان الطبقات لا يمكن اضافها وترويعها» ، وهذا ليس حقيقيا . فالارهاب بلا فائدة ولا يساعد - وهذا فقط

«وفى نهاية المطاف» لو استخدم من قبل الطبقات الرجعية التى لاتريد مفادرة مسرح الأحداث فالتخويف والترهيب *intimidation* سلاح قوى وفعال فى السياسة ، سواء دوليا أو محليا وداخليا . والحرب مثل الثورة تقوم على التهديد والتخويف . والحرب المنتصرة ، عموما ، تدمر فقط جزء ملحوظا من الجيش المهزوم ، تهدده وتثيره الرعب لدى الباقين ومحطمة اراداتهم . والثورة تعمل بنفس الطريقة : فهى تقتل الأفراد مخيفة ومهددة الآلاف . وبهذا المعنى لا يتميز الارهاب الأحمر عن التمرد والعصيان المسلح ، فهو الاستمرار المباشر الذى يمثله . وارهاب الدولة من قبل طبقة ثورية يمكن ادانته فقط على يد رجل مثله مثل مبدأ يرفض (بالكلمات) كل أشكال وصور العنف مهما كانت - وبالتالى كل الحروب وكل الانتفاضات . وبالنسبة لهذا الشخص يمكن اعتباره وحسب مجرد مرتجف (كويكر) منافق .

«لكن فى هذه الحالة ، أين يكمن اختلاف تكتيكاتكم *tactics* عن تكتيكات القياصرة ؟» نتساءل بأقصى فضول للبرالية والكاوتسكية .

لن تفهموا ذلك أيها الأتقياء ؟ سنشرحه لكم . ارهاب القياصرة كان موجها ضد البروليتاريا . وشرطة القياصرة كانت تخنق العمال الذين كانوا يقاتلون من أجل النظام الاشتراكى . أما لجاننا الاستثنائية فكانت تقتل الاقطاعيين ، الرأسماليين ، والجنرالات الذين كانوا يكافحون لاعادة النظام الرأسمالى . هل تدرك ذلك ... الفرق ؟ نعم ؟ فذلك كاف تماما لنا نحن الشيوعيين .

روزا لوكسمبرج : الاشتراكية والعملية الديمقراطية *

« هذه فقرات متميزة من نقد روزا لوكسمبرج للثورة الروسية ، والتي استشرفت فيها ببصيرة نفاذة نتائج النظرية البلشفية وتطبيقها فى الحياة السوفيتية » .

● تقتضى الاشتراكية فى مضمار الحياة اجراء تحول تام فى الذهنية والحياة الروحية للجماهير المتدنية والمهترئة بفعل قرون من حكم الطبقة البرجوازية . واحلال الفرائز الاجتماعية محل تلك الفردية الذاتية ، ومبادرة الجماهير محل جمودها وتقاعسها محل المثالية التى تقهر كل أشكال المعاناة . الخ . الخ . لم يدرك أحد ذلك بشكل أفضل مما أدركه لينين حيث وصفه بأسلوب ثاقب ونفاذ ، وكرره بثبات واصرار أكثر . ولكنه كان مخطئاً فى الوسائل التى استخدمها . فاصدار القرارات ، والقوة الديكتاتورية للمراقبين فى المصانع ، والعقوبات الوحشية ، والحكم بالارهاب - كل هذه الأشياء مجرد مسكنات . والسبيل الوحيد لاعادة التشكيل وال ميلاد الجديد هى مدرسة الحياة المادية ذاتها ، المترامية جدا ، الديمقراطية لأبعد مدى

(*) روزا لوكسمبرج ، الثورة الروسية ، الترجمة الانجليزية ، بترام د - ولف

(ناشر عصر العمال : ١٩٤٠ / من ٤٧ - ٤٨ ، ٥٢ - ٥٤)

والرأى العام • فالحكم عن طريق الارهاب هو الذى يقسد
ويدمر الحياة المعنوية •

وعندما يتم الغاء كل هذه الاجراءات ، ماذا يتبقى
حقيقة ؟ فبدلا من الهيئات النيابية التى تتشكل بالانتخابات
العامة والشعبية ، أقام لينين وتاروتسكى مجالس السوفيات
كمجالس تمثيلية نيابية وحيدة وحقيقية للجماهير العاملة •
لكن مع وجود القمع فى الحياة السياسية على أرض الواقع
ككل ، من المحتم أن تصبح الحياة فى السوفيات أكثر تعطلا
وشكلا • بدون الانتخابات العامة ، وبدون الحريات غير
المقيدة للصحافة والاجتماع ، وبدون التصارع الحر للرأى ،
ستنحل الحياة وتتلاشى فى كل المؤسسات العامة ، لتصبح
كمجرد صورة باهتة مبسطة للحياة ، يبقى فى ظلها فقط
البيروقراطية كعامل فعال • وتفرق الحياة تدريجيا فى
سبات ، حيث يحكم ويوجه عشرات قليلة من قيادات الحزب
ذوى طاقة لا تكل وخبرة غير محدودة • وفى الواقع ، يتولى
القيادة عشرة فقط من بينهم بينما يدعى صفوة مختارة من
الطبقة العاملة من وقت لآخر لحضور الاجتماعات حيث ينبغى
عليهم التصفيق لخطب القيادات ، وليصدقوا على القرارات
المقترحة بالاجماع - وفى أسفل القاع ، اذن توجد قضية
تأمرية - الديكتاتورية ، ينبغى أن نكون واثقين ، ليست
ديكتاتورية البروليتاريا ، على أية حال ، بل فقط ديكتاتورية
حفنة من السياسيين ، هذه هى الديكتاتورية بالمعنى
البرجوازي ، بمعنى حكم اليماقبة Jacobins ... نعم ،
بامكاننا المضى أكثر من ذلك : هذه الظروف ستؤدى حتما الى
جعل الحياة العامة أكثر وحشية : ايجاد محاولات اغتيالات ،
اطلاق الرصاص على الأسرى الخ • الخ •

يكمن الخطأ الاحساسى لنظرية لينين - تاروتسكى فى وصفهم تماما مثل كاوتسكى ، الديكتاتورية فى مواجهة الديمقراطية . أما الديكتاتورية أو الديمقراطية «هو الطريقة التى صيغت بها القضية لدى البلاشفة ولدى كاوتسكى بالمثل . يقرر كاوتسكى بالطبع ولصالح «الديمقراطية» أى لصالح الديمقراطية البرجوازية بالتحديد لأنه يضعها فى مواجهة بديل الثورة الاشتراكية . وعلى الجانب الآخر ، يقرر لينين وتاروتسكى لصالح الديكتاتورية فى مواجهة الديمقراطية ، ومن هنا ، لصالح ديكتاتورية حفنة من الأشخاص أى لصالح الديكتاتورية على النموذج والنمط البرجوازى . وكلاهما قطبان متعارضان وكلاهما قد ألغيا واستبعدا من السياسة الاشتراكية الحقيقية . وعندما تتقلد البروليتاريا السلطة لن يمكنها اتباع نصيحة كاوتسكى الجيدة ، التى تقدم تحت ستار وذريعة «عدم نضج القطر» نصيحة بالتخلي عن الثورة الاشتراكية وتكريس ذاتها من أجل الديمقراطية

«كماركسيين» يكتب «تاروتسكى» ، لم نكن أبدا عباد أو ثان الديمقراطية الشكلية» بالتأكيد ، لم نكن أبدا عبدة أو ثان الديمقراطية الشكلية . ولم نكن أبدا من عباد أو ثان الاشتراكية ولا الماركسية

«لم نكن أبدا عباد أو ثان الديمقراطية الشكلية» . كل هذا يعنى فى الواقع أننا نميز دائما ونفرك بين النواة الاجتماعية والشكل السياسى للديمقراطية البرجوازية ، فلقد كشفنا دائما النواة الصلبة للتفاوت والظلم الاجتماعى والافتقار للحرية المخبأة تحت القشرة الجميلة للمساواة والحرية - ليس بغرض رفض المساواة والحرية بل لحث الطبقة

العاملة على عدم الاكتفاء بالقشرة دون اللب ، بل وأبعد من ذلك بحثها على الحصول على السلطة السياسية ، كى تقيم الديمقراطية الاشتراكية واحلالها محل الديمقراطية البرجوازية وليس بفرض الغاء الديمقراطية ككل .

لكن الديمقراطية الاشتراكية ليست شيئا يبدأ فقط فى الأرض الموعودة بعد تأسيس الاقتصاد الاشتراكى ، وهى لاتأتى كنوع من هدايا الكرسماس للأغنياء الموسرين والذين ابان ذلك يؤيدون بولاء حفنة من الطغاة الاشتراكيين . بل الديمقراطية الاشتراكية تبدأ متزامنة مع بداية تدمير الحكم الطبقي وقيام الاشتراكية . انهد تبدأ من اللحظة الأولى لتقلد الحزب الاشتراكى السلطة . انها نفس الشيء مثل ديكتاتورية البروليتاريا .

نعم للديكتاتورية ! لكن تلك الديكتاتورية التى تكمن فى أسلوب تطبيق الديمقراطية وليست بالغائها ، والتى تكمن فى الهجوم الفعال المستأسد على الحقوق الراسخة والملاقات الاقتصادية للمجتمع البرجوازى ، والتى بدونها لايمكن تحقيق التحول الاشتراكى لكن هذه الديكتاتورية ينبغى أن تكون من عمل الطبقة وليس أقلية قيادية ضئيلة باسم الطبقة حيث تتابع وتكتمل بالتدرج من خلال المشاركة الفعالة للجماهير . وينبغى أن تكون تحت تأثيرهم المباشر ، وخاضعة للرقابة التامة للأنشطة الشعبية ، وينبغى أن تنبثق من الوعي السياسى المتنامى للجماهير الشعب ...

جوزيف ستالين : الاشتراكية في قطر واحد *

«يقدم ستالين فكرة بناء الاشتراكية في بلد واحد دون التخلي عن موضوعية الثورة العالمية - وسنرى نقد تاروتسكي له في نص لاحق» *

● ما الذي نمنيه بإمكانية انتصار الاشتراكية في قطر واحد ؟

نمى إمكانية حل التناقضات بين البروليتاريا والفلاحين وبمساعدة القوى الداخلية للبلد ، وإمكانية القوة المفترضة للبروليتاريا واستخدام هذه القوة لبناء مجتمع اشتراكي كامل في بلدنا ، مع تعاطف ومساندة بروليتاريا البلدان الأخرى ، لكن بدون الانتصار التمهيدى للثورة البروليتارية في الأقطار الأخرى .

بدون هذه الإمكانية ، يصبح بناء الاشتراكية بدون نظر ودراسة ، بناء بدون التأكد بان قيام الاشتراكية سيكون عملا مكتملا . من غير المفيد الانشغال ببناء الاشتراكية دون التأكد من قدرتنا على بنائها ككل ، دون التأكد بأن التخلف التقنى لقطرنا ليس عقبة لاتقهر في وجهة بناء مجتمع

(*) جوزيف ستالين قضايا اللينينية (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٥٣

ص ١٩٢ الى ص ١٩٣ .

اشتراكي مكتمل . وانكار هذه الامكانية هو اعلان الافتقار
للايمان في وجوب بناء الاشتراكية ، والتخلي عن
اللينينية .

ما الذي تعنيه باستحالة الانتصار التام والتهائي
للاشراكية في قطر واحد دون انتصار الثورة في البلدان
الأخرى ؟

نمى استحالة امتلاك كل الضمانات ضد التدخلات ،
وبالتالى ضد اعادة النظام البرجوازي بدون انتصار الثورة
على الأقل في عدد من البلدان . وانكار تلك القضية المجازمة
هو انكار وتخلي عن الأمية ، وتخلي عن اللينينية .

يقول لينين «اننا لانعيش» فى دولة وحسب بل فى نظام
دولى ووجود الجمهورية السوفيتية بجوار الدول الاستعمارية
(الامبريالية) لوقت طويل أمر غير وارد فى الذهن . حيث
ينبغى انتصار أحدهما على الآخر فى النهاية . وقبل وقوع
هذه النهاية سيكون حتميا وقوع صدمات مروعة بين
الجمهورية السوفيتية والدول البرجوازية ويعنى ذلك أنه لو
أرادت الطبقة الحاكمة ، البروليتاريا وسوف تفعل ، أن
تتولى هى الزمام ينبغى عليها اثبات قدرتها على القيام بذلك
من خلال التنظيم العسكرى أيضا .

يقول لينين فى موضع آخر «نواجه الآن بتوازن متقلب
لأقصى درجة ، لكنه توازن لايقبل الجدل والنقاش توازن معين
على أية حال . فهل سيستمر ويبقى دوما ؟ لايمكننى الاجابة
ولا أعتقد أنه بإمكان أى واحد . ولهذا ينبغى علينا ممارسة
أقوى تحذير ممكن . والقاعدة الأولى لسياستنا ، والدرس
الأولى الذى ينبغى أن نتعلمه من أنشطتنا الحكومية ابان العام
المنصرم ، الذى ينبغى أن يتعلمه كل العمال والفلاحين ، أنه

ينبغي علينا أن نكون متيقظين ، وينبغي أن نتذكر أننا فى
أية لحظة على قيد أنملة من حدوث أى شكل للغزو» .

ياله من وضوح ينبغي أن يفكر به المرء ! ٠٠٠ أليس
أكثر صدقا القول بأن زينوفيف zinoviev وليس الحزب هو
الذى يؤثم ويتجنى على الأممية والثورة العالمية ؟ ولماذا اذن
كون قطرنا «القطر الذى يبنى الاشتراكية» اذا لم يكن يبنيتها
لتكون قاعدة للثورة العالمية ؟ لكن هل يمكنه أن يكون قاعدة
حقيقية للثورة العالمية مالم يكن قادرا على استكمال بناء
المجتمع الاشتراكى ؟ هل يمكنه البقاء كمركز قوى لمجذب
العمال من جميع الأقطار كما هو الآن بلا منازع ، مالم يكن
قادرا على تحقيق الانتصار على العناصر الرأسمالية فى
اقتصاده ذاته ، انتصار البناء الاشتراكى ؟ لا أعتقد ذلك .
لكن أليس يتبع ذلك أن التشكيك فى اعتبار انتصار البناء
الاشتراكى ، واتساع حلقة هذا الشك تؤدى الى عدم التصديق
على كون قطرنا قاعدة للثورة العالمية ؟ ولو تم التشكيك فى
قطرنا سوف تضمر وتضعف الحركة الثورية العالمية . أيها
السادة كيف حاول الديمقراطيون الاشتراكيون ابعاد العمال
عنا واخافتهم منا ؟ بالالاحاح بأن «لن ينجح الروسيون فى أى
مكان» فيالها من هزيمة اذ قناها للديمقراطيين الاشتراكيين
الآن ، عندما نجذب العديد من العمال ووفودهم لقطرنا ولذا
نعمل على تقوية موقف الشيوعية عبر أنحاء العالم ؟ من خلال
نجاحنا فى بناء الاشتراكية . أليس ذلك واضحا ، اذن ، فان
أى شخص ينشر الشك فى اعتبار نجاحنا فى بناء الاشتراكية
وبالتالى يساعد مباشرة الديمقراطيين الاشتراكيين ، وبالتالى
يضعف قوة اندفاع الحركة الثورية الأممية ، ومن المحتم فانه
ينحرف عن الأممية ؟

ليون تاروتسكى : نقد نظرية الاشتراكية

فى قطر واحد *

«يثبت تاروتسكى أنه كما قام هو ولينين بمراجعة وتعديل مقولات ماركس وانجلز قام ستالين بادخال تعديلاته . ومن المثير ملاحظة أن تعديلات تاروتسكى ذاته على الماركسية التقليدية قد قدمت باعتبارها التصحيح الذى قام به التاريخ نفسه . وان منطق التاريخ والأحداث . هكذا تحدث تاروتسكى . هو الذى صحح منطق النظرية . ويمكن لستالين المناقشة بشكل مقبول بنفس الطريقة بدلا من انكار أنه يراجع الموقف اللينينى . على أية حال ، فلقد خلق البلاشفة الأحداث التى استخدموا منطقها بالتالى لتبرير أفعالهم» .

● ... فى عصرنا ، الذى هو عصر الامبريالية ، أى عصر الاقتصاد العالمى والسياسى العالمية تحت سيطرة رأس المال المالى ، ليس بإمكان حزب شيوعى بمفرده صياغة برنامج فقط أو أساسا من بالاشتقاق من ظروف أو اتجاهات التطور فى بلده . وينسحب ذلك تماما على الحزب الذى تتقلد السلطة داخل حدود الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية

(★) ليون تاروتسكى . الامية الثالثة بعد لينين . (نيويورك ، يونيو ، ١٩٣٦م)

مجلد ١ ص ٣ - ٤ . ١٦ . ١٧ . ٢٠ . ٢١ . ٣٥ . ٣٦ . ٦٦ . ٦٧ .

فى ٤ أغسطس ١٩١٤ م . فلقد دق ناقوس موت البرامج الوطنية لكل المراحل . وبإمكان الحزب الثورى أن يؤسس نفسه فقط على برنامج أممى متوافق مع تطور وانهييار الرأسمالية . وأى برنامج شيوعى أممى ليس أكثر من محصلة كلية للبرامج الوطنية أو مزيج من ملامحها العامة .

وينبغى أن ينبثق البرنامج الأممى مباشرة من تحليل لظروف واتجاهات الاقتصاد العالمى والنظام السياسى العالمى واضعا فى الاعتبار مجمل علاقاته وتناقضاته . مع علاقاته العدائية وتفاعلاته المشتركة فى الأجزاء المختلفة . فى العصر الحاضر ، ولمدى أبعد كثيرا من العصر الماضى ، ينبغى أن ينبع التوجه الوطنى للبروليتاريا من التوجه العالمى فقط وليس العكس . وهنا يكمن الاختلاف الأساسى والمبدئى بين الأممية الشيوعية وبين كل الاشتراكيات الوطنية المتعددة .

تعتبر الثورة الأممية كعملية مترابطة متداخلة ، لايمكن اسنادها الى كل تجسدها الجزئية العينية ، ولذا فان منظومة مسار أحداثها فقط هى الواضحة وضوحا قاطعا فى خطوطها التاريخية العامة . ومالم يفهم هذا لن يكون بالإمكان طرح توجه سياسى صحيح بل يصبح فى غير متناولنا كلية .

عموما ، تبدو الأمور مختلفة تماما لو استمدت من فكرة التطور الاشتراكى الذى يحدث وحتى اكتمل فى قطر واحد لدينا فى الوقت الحاضر «النظرية» التى تزعم أنه بالإمكان بناء الاشتراكية مكتملة فى قطر واحد ويمكن قيام علاقات هذا القطر مع العالم الرأسمالى على قاعدة «التحييد» . للعالم البرجوازى (نظرية ستالين) . فلقد تلاشت الضرورة لشعار الولايات المتحدة لاوروبا ، أو على الأقل ضعفت لو كانت هذه وجهة نظر اصلاحية وطنية وليست أممية ثورية لكانت

مقبولة - لكن هذا الشعار ، من وجهة نظرنا ، هام وضروري بشكل حيوى لانه يضممر بداخله اداة فكرة وجود تطور اشتراكى منعزل بالنسبة للبروليتاريا فى أى قطر أوروبى ، حتى لا بعد مدى مما فى الجمهوريات السوفيتية - يصبح الاختلاف ، عموما خلافا فى الدرجة فقط - وسيصبح من الضروري وأشد حيوية أن تنشر الثورة فى الأقطار المجاورة وتساند حركات التمرد المسلح هناك بكل ماتملك من سلاح ، ليس تبعا لأى اعتبارات مجردة للتضامن العالمى ، والتي لاتستطيع فى ذاتها أن تدفع الطبقات لمسرح الأحداث ، ولكن بسبب تلك الاعتبارات الحيوية التى صاغها لينين مئات المرات - أعنى ، بدون المساعدة الفورية من الثورة الأممية ، لم يكن باستطاعتنا الصمود - فشعار الولايات المتحدة السوفيتية (لاوروبا) يتسق مع آليات (ديناميات) الثورة البروليتارية، والتي لم تتدخل فى وقت واحد فى كل البلدان - ولكن التى تمضى من قطر لآخر والتي تتطلب رابطة لصيقة بينهم ، خضوعا فى الميدان الاوروبى ، معا فى الدفاع ضد أقوى الأعداء الخارجين ورؤية للبناء الاقتصادى .

... حالا وبعد تشخيصها الأحادى الجانب لقانون التطور المتفاوت الذى أشرنا اليه ، يقول البرنامج التمهيدى (للمؤتمر السادس للأممية الشيوعية) : «لذا يتأتى أن الثورة البروليتارية العالمية ينبغى ألا تعتبر وكأنها تزامن واحد ، وحدث عالمى - لذا يتأتى أن انتصار الاشتراكية ممكن فى البداية فى قليل بل وحتى فى قطر رأسمالى منعزل» .

لان الثورة الأممية للبروليتاريا لايمكن أن تكون عملا متزامنا ، وليس هذا بطبيعة الحال أى خلاف حيث انه بعد تجربة ثورة أكتوبر التى حققتها البروليتاريا فى بلد متخلف

فى ظل ضغط الضرورة التاريخية ، دون انتظار على الأقل حتى تمهد البروليتاريا فى الأقطار المتقدمة الطريق • فى اطار هذه الحدود ، فان الإشارة لقانون التطور المتفاوت تعد صحيحة وفى موضعها تماما • لكن الأمر مختلف بالنسبة للجزء الثانى من النتيجة - أعنى ، التأكيد الأجوف بأن انتصار الاشتراكية ممكن «فى قطر رأسمالى واحد منعزل» • ولكى تثبت وجهة نظرها يقول البرنامج التمهيدي ببساطة : «لذا يتأتى ...» ويأخذ المرء انطباعا بأن هذه النتيجة تنبع من قانون التطور المتفاوت ولكنها لاتستمد منه بآية حال • «لذا يتأتى» شيئا ما هو النقيض تماما • فلو أن العملية التاريخية كانت هكذا بحيث تتطور بعض الأقطار ليس فقط بشكل متفاوت ولكن مستقلة عن بعضها البعض ، منعزلة عن بعضها البعض ، اذن يتأتى ويستمد من قانون التطور المتفاوت بلا شك امكانية بناء الاشتراكية فى قطر رأسمالى واحد - فى البداية فى أكثر الأقطار تطورا ، ومن ثم ، كلما نضجوا وتطوروا فى البلدان الأكثر تخلفا • وهذا هو المألوف ، وفكرة عادية عن الانتقال للاشتراكية داخل صفوف الديمقراطية الاشتراكية فى عالم ما قبل الحرب • وهذه بالتحديد الفكرة التى شكلت الأساس النظرى للوطنية الاشتراكية • بالطبع ، لايتبنى البرنامج التمهيدي هذه الرؤية • ولكنه ينحدر اليها •

... قال ستالين فى نوفمبر ١٩٢٦ م • : «يتخذ الحزب دائما كنقطة أولية فكرة أن انتصار الاشتراكية فى قطر واحد تعنى امكانية بناء الاشتراكية فى ذلك القطر ، وأنه يمكن تحقيق هذه المهمة بالقوى الموجودة لدى قطر واحد» • (برافدا ١٢ نوفمبر ١٩٢٦ م) •

تعلم تماما أن الحزب لم يتخذ هذا كفكرة أولية • بل على العكس ، «في العديد من أعمالنا ، في كل خطبنا وفي كل منشوراتنا» • كما قال لينين ، ينطلق الحزب من الموقف المناقض ، والذي وجد تعبيره الأسمى في برنامج CPSU ولكن يمكن للمرء أن يتخيل أن ستالين نفسه على الأقل ينطلق «دائما» من هذه الرؤية الزائفة بأن «يمكن بناء الاشتراكية بقوى قطر واحد» دعنا نفحصها •

ليس بإمكاننا على الإطلاق أية وسيلة لمعرفة آراء ستالين حول هذه القضية عام ١٩٠٥ م أو ١٩١٥ م • حيث لا توجد أية وثائق للموضوع • ولكن عام ١٩٢٤ م • لخص ستالين آراء لينين حول بناء الاشتراكية كما يلي :

«أن الاطاحة بسلطة البرجوازية وقيام الحكومة البروليتارية في قطر واحد لا يضمن الانتصار الكامل للاشتراكية • المهمة الأساسية للاشتراكية – وهى تنظيم الانتاج الاشتراكي – مازالت فى الطليعة • هل يمكن تحقيق هذه المهمة ، وهل يمكن الوصول على الانتصار النهائى للاشتراكية فى قطر واحد ، دون الجهود المشتركة للبروليتاريا فى العديد من الأقطار المتقدمة ؟ لا ، هذا مستحيل • كى نطيح بالبرجوازية ، فان جهود قطر واحد تعد كافية – وتاريخ ثورتنا يكشف ذلك • ومن أجل النصر النهائى للاشتراكية ، ومن أجل تنظيم الانتاج الاشتراكي ، فان جهود قطر واحد ، خصوصا مثل هذا البلد الزراعى كروسيا ، تعد غير كافية • لان جهود البروليتاريين فى العديد من الأقطار المتقدمة تعد ضرورية ...»

«هذه على وجه الاجمال ، الملامح المميزة للنظرية اللينينية

حول الثورة البروليتارية» (ستالين ، لينين واللينينية ص ٤٠
ف ، الطبعة الروسية ١٩٢٤ م) .

ينبغي على المرء التسليم بأن «الملامح المميزة للنظرية
اللينينية» قد أوجزت هنا بشكل صحيح تماما . وفى الطبعة
الأخيرة لكتاب ستالين قد حذفت هذه الفقرة كى تقرأ بشكل
مغاير تماما وأصبحت «الملامح المميزة للنظرية اللينينية»
يدعى فى غضون عام ٠٠٠ وكأنها التاروتسكية **Trotskyism**

٠٠٠ تقود نظرية الاشتراكية فى قطر واحد بشكل
صارم الى التهوين والاستخفاف بالمصاعب التى ينبغي
تذليلها وقهرها ، والى المبالغة فى قدر الانجازات التى تحققت .
ولن نجد ما هو أكثر مناهضة للاشتراكية والثورية من تأكيد
عبارة ستالين على المحصلة والنتيجة بأنه «قد تحققت
الاشتراكية بنسبة ٩٠٪ فى الاتحاد السوفيتى **USSR**
وتبدو هذه العبارة وكأنها أعدت خصيصا للبروقراطية
المتحذلقه وبهذه الطريقة لن يأمل أحد فى تشويه فكرة
المجتمع الاشتراكى فى عيون الجماهير الكادحة . فلقد حققت
البروليتاريا السوفيتية نجاحات هائلة ، لو أخذنا فى الاعتبار
الظروف التى تحققت فى ظلها والمستوى الثقافى المتدنى
الموروث من العصور السابقة . ولكن هذه الانجازات تشكل
مقدارا بالغ الضالة بمعايير النموذج الاشتراكى . فالحقيقة
المؤلمة وليس الزيف ذو الطعم الحلو هو المطلوب لتشجيع
وتقوية العمال ، العمال الزراعيين ، والفلاحين الفقراء ،
الذين يرون بعد مضى العام الحادى عشر للثورة أن الفقر ،
البؤس البطالة ، طواير الخبز ، الأمية ، الأطفال المشردين
السكرارى ، والبغاء ، لم تختف من حولهم . وبدلا من اخبارهم
بالأكاذيب عن تحقيق ٩٠٪ من الاشتراكية ، ينبغي أن تقول

لهم أن مستوانا الاقتصادى وظروفنا الاجتماعية والثقافية أكثر قربا اليوم من الرأسمالية تقريبا ، وبالتالى من الرأسمالية المتخلفة غير المتحضرة منها الى الاشتراكية . وينبغى القول لهم أننا سندخل طريق البناء الاشتراكى الحقيقى فقط عندما نتقلد البروليتاريا فى معظم الأقطار المتقدمة السلطة ، وذلك ضرورى من أجل العمل المتواصل لتحقيقه . باستخدام محورين - المحور القريب لجهودنا الاقتصادية الداخلية والمحور البعيد لنضال البروليتاريا الأسمى .

باختصار ، بدلا من عبارات ستالين حول الاشتراكية التى تحقق منها ٩٠٪ . ينبغى أن نتحدث اليهم بكلمات لينين: «ستصبح روسيا (أرض الفقر) (أرضا للوفرة) لو نبذنا أى تشاؤم والمتاجرة بالكلام ، لو أطبقنا بالنواجذ ، واستجمعنا كل قوانا ، لنقوى كل عضلة وكل عصب لو فهمنا أن الخلاص ممكن فقط على طريق الثورة الاشتراكية الأممية التى خضنا غمارها) (الأعمال مجلد ١٥ ص ١٦٥) .

قراءة رقم (٢٠)

جوزيف ستالين : الظهور المتجددة للدولة *

«فى النص التالى تبزير ستالين لاستمرارية وتطور سلطة الدولة» .

● . . يتساءلون أحيانا «لقد أطعنا بالطبقة الاستقلالية لم يبق بعد أية طبقات عدائية فى البلد ، وليس هناك أى شخص كى نقصه . اذن ليست هناك أية حاجة للدولة ينبغى أن تقتلع — لماذا اذن لانساعد دولتنا الاشتراكية على الفناء ؟ لماذا لانتاضل لوضع نهاية لها ؟ أليس هذا وقت التخلص من الدولة التى تمثل عقبة ؟

أو مرة أخرى : «لقد ألغيت الطبقات الاستقلالية من قطرنا تماما ، ولقد قامت الاشتراكية بشكل أساسى ، ونحن نتقدم تجاه الشيوعية . والآن ، تقول النظرية الماركسية للدولة أنه لاينبغى وجود دولة فى ظل الشيوعية . فلماذا اذن لانساعد دولتنا الاشتراكية كى تختفى وتفتنى ؟ أليس هذا وقت احالة الدولة لمتحف الآثار ؟» .

توضح هذه الأسئلة أن الذين يطرحونها يستظلون بوعى تحت خيام خاصة لنظريات ماركس وانجلز حول الدولة بل

(*) سالتين ، مشاكل اللينينية (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٥٣ م)
ص ٧٩٠ الى ص ٧٩٤ .

أنها توضح أيضا أن هؤلاء الرفاق لم يتفهموا المعنى الجوهرى لتلك النظريات ، وانهم لم يدركوا فى ظل أية شروط وظروف تاريخية يمكن تحقق هذه النظريات ، وأيضا ، وهو الأهم ، انهم لم يفهموا الظروف الدولية الحالية ، وأغفلوا الحصار الرأسمالى والأخطار التى يمثلها بالنسبة للقطر الاشتراكى . وتنم هذه الأسئلة عن تقليل من شأن الحصار الرأسمالى ، بل وتدل على تقليل من شأن حكم الدول البرجوازية وأهميتها هى وأدواتها ، والتى ترسل الجواسيس والقتلة والمخربين الى قطرنا ، فى انتظار فرصة أفضل لمهاجمتنا بالقوة المسلحة . .

فما الذى تنبثق منه هذه التهوينات ؟

يظهر تبعا للاستشهادات المجتزأة والغير ملائمة من نظريات ماركس حول الدولة وتلقى انتشارا تبعا لغفلتنا الغير مبررة عن الأمور المتعلقة بنظرية الدولة ، برغم حقيقة أننا لدينا خبرة عملية لحكم عشرين عاما فى شئون الدولة والتى تمدنا بمواد ثرية للتعميمات النظرية ، وبرغم حقيقة أن لدينا الرغبة ، والفرصة كى نسد بنجاح تام تلك الفجوة فى النظرية . .

خذ على سبيل المثال ، الصياغة اللاسلكية لنظرية تطور الدولة الاشتراكية التى وضعها انجلز : «بمجرد ألا توجد أية طبقة من المجتمع كى يتم اخضاعها ، وبمجرد الغاء صراع الفرد من أجل البقاء المبنى على فوضى الانتاج حتى الآن بمحاذاة السيادة والهيمنة الطبقية ، والصدمات والتجاوزات التى تنبثق منه ، فلن يوجد أى شئ كى يتم قمعه والذى يستتبع بالضرورة وجود قوة قمعية خاصة ، وهى الدولة . فالعمل الأول الذى يقدم الدولة باعتبارها الممثل للمجتمع ككل - امتلاك وسائل الانتاج باسم المجتمع - هو فى نفس

الوقت عملها الأخير والمستقبل باعتبارها دولة • وتدخل الدولة وسلطتها فى العلاقات الاجتماعية يصبح بلا أهمية حقبة بعد أخرى ، ومن ثم تتوقف بذاتها • ويتم احلال ادارة الأشياء واتجاه عمليات الانتاج محل الحكومات التى تقوم على الأشخاص - ولذا لن «تلقى» الدولة ، بل تتلاشى» •

هل قضية واطروحة انجلز هذه صحيحة ؟ نعم انها صحيحة ، ولكن فى أحد طرفين :

(أ) لو أننا تناولنا الدولة الاشتراكية من زاوية التطور للمجتمع ، وتجردنا باطراد من العامل الدولى والأممى وتخلصنا منه ، وعزلنا قطرنا والدولة عن الموقف الدولى ، لصالح البحث •

(ب) أو لو افترضنا أن الاشتراكية أصبحت مستقرة تماما فى كل الأقطار ، أو فى معظم البلدان ، وأن الحصار والتطويق الاشتراكى قد وجد بدلا من الحصار الرأسمالى وأنه لم يعد هناك أى خطر من التدخل والهجوم الأجنبى ، ولم تعد هناك حاجة لتقوية الجيش والدولة •

حسن ، ماذا لو أن الاشتراكية منتصرة فقط فى قطر واحد بمفرده ، ولو أنه فى ضوء ذلك ، يصبح من المستحيل تماما أن نتخلص وتجرد منه الظروف الدولية - ماذا اذن ؟ لامتدنا صياغة انجلز باجابة على هذا السؤال • ومن المسلم به ، أن انجلز نفسه لم يطرح هذا السؤال ولهذا لم يقدم له اجابة • ينطلق انجلز من افتراض أن الاشتراكية قد انتصرت بدرجة أكثر أو أقل فى كل الأقطار فى وقت واحد ، أو فى معظم الأقطار ، وبالتالي لم يبحث انجلز هنا فى دولة اشتراكية معينة لقطر معين ، لكن فى تطور الدولة الاشتراكية عموما

على افتراض أن الاشتراكية قد انتصرت في غالبية البلدان ،
ماهى التغيرات التى ينبغى أن تخضع لها الدولة البروليتارية
الاشتراكية ؟» هذا الطابع العام المجرد للقضية فقط هو الذى
يمكنه تفسير لماذا تجرد وتخلص لينين فى بحثه فى مسألة
الدولة الاشتراكية تماما من ذلك العامل أى الظروف الدولية
والموقف الدولى .

لكن يستتبع ذلك انه ليس بإمكان صيغة انجلز
العامة عن مصير الدولة الاشتراكية عموما أن تتسع لحالة
معينة خاصة لانتصار الاشتراكية فى قطر واحد بمفرده ،
قطر محاط بعالم رأسمالى . وهدف لخطر الهجوم العسكرى
الأجنبى ، ولذا لايمكنها التحرر من الموقف الدولى ، وينبغى
أن تمتلك فى متناولها جيشا مدريا جيدا ، وادارات منظمة
للعقوبات وخدمة مخابرات قوية ، بالتالى ، ينبغى أن يكون
لها دولتها الخاصة قوية بدرجة تمكنها من دحر غزاة
الاشتراكية والهجمات الأجنبية . . .

قراءة رقم (٢١)

الخط السياسى للحزب الشيوعى

فى الثقافة : «الأدب» *

«فيما يلى بعض البيانات الرسمية توضح ثمار ديكتاتورية الحزب فى مجال الثقافة - هذه فقط بعض النماذج فى مجالات مختلفة بدءا من علوم الفضاء الى علم الحيوان والتى مارس فيها الحزب الشيوعى ، رقابة فكرية باستخدام جميع عقوبات الدولة للاجبار على تطبيق هذه المراسيم - والترجمة الانجليزية للقرارات الرسمية قام بها جورج س كونتس ونوكيا لودج»

● •• تلاحظ اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى أن الصحيفة الأدبية zvezda وصحيفة لنجراد تدار بأسلوب غير مرضى تماما -

تظهر فى صحيفة zvezda بجوار الأعمال المميزة والناجحة للكتاب السوفيت أعمال أخرى ضارة ايديولوجيا - والخطيئة الكبرى لصحيفة ايزفستيا تكمن فى كونها منبرا أدبيا فى متناول الكاتب zoshcheuko والذي تعد أعماله غريبة عن الأدب السوفيتى والحقيقة المعروفة جيدا لمحورى

(*) عن كتاب « مجتمع المبيان » تأليف جورج س كونتس ونوكيا لودج (بوسطن : هو حثي ، ميفلين ١٩٤٩) ص ٧٩ - ٨٣ . باذن من المؤلف - ويعد هذا الكتاب خزانة ثرية بالوثائق الرسمية عن خط الحزب فى الثقافة .

جريدة أزفستيا أنه تخصص لمدة طويلة فى كتابات القصص الضحلة والفارغة المبتذلة ، وفى المواعظ المهترئة المبتذلة والحيادية فى الايديولوجيا والسياسة ، أعدت لتضليل وتسميم وعى شبابنا . فالقصة الأخيرة من قصص تشيكيينكو «مغامرات قرد» (جريدة أزفستيا ، اعداد ٥ - ٦) سخريه مبتذلة من الحياة السوفيتية والشعب السوفيتى .

وتلاحظ اللجنة المركزية أن صحيفة ليننجراد والتي تفرد صفحاتها باستمرار للتهجمات وافتراءات تشيكيينكو ، وللشعر الفارغ الأجوف اللاسياسى لا أخما توفأ Akhmatova تدار بشكل سئ . وتاماما مثل مجلس تحرير صحيفة أزفستيا ، فان مجلس تحرير لننجراد ارتكب خطيئة فاحشة بنشره سلسلة من الأعمال مشبعة بروح تقديس تجاه كل ماهو أجنبى .

تقرر اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى :

١ - الزام مجلس تحرير صحيفة أزفستيا ، وادارة اتحاد الكتاب السوفيت ، وادارة الدعاية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى باتخاذ اجراءات للالغاء غير المشروط لأخطاء وتقصير الصحيفة المذكورة فى هذا القرار وتصحيح خط المجريده ، وتأكيد مستوى أيديولوجى وأدبى عالى للصحيفة ، وإيقاف نشر أعمال تشيكيينكو واخماتوف ومن على شاكلتهم فى المجريده .

٢ - بالاشارة لحقيقة عدم وجود الظروف الضرورية فى الوقت الحاضر لاصدار صحيفتين أدبيتين فى لننجراد ، يوقف نشر صحيفة ليننجراد ، وتحشد القوى الأدبية لها وتركز فى صحيفة أزفستيا .

٣ - من أجل ارساء النظام الضرورى فى عمل مكتب التحرير

لجريدة أزفستيا ولاجراء التحسين الجذرى لمضمون صفحاتها ، يعين رئيس تحرير ومجلس تحرير . وفتح رئيس التحرير مسؤولية كاملة عن التوجيه الأيديولوجى والسياسى للجريدة ونوعية الأعمال المنشورة بها .

٤ - تعيين الرفيق أ . م - بوجلين كرئيس تحرير للجريدة دون اقصائه عن واجباته كمدير تنفيذى لادارة الدعاية باللجنة المركزية للحزب الشيوعى .

الخط السياسي للحزب الشيوعي في الموسيقى

... تعتبر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. أوبرا Velikaia uruzhba (موسيقى قانو موراديلي ، تأليف نص الاوبرا (ليبرتو) ج . مديفافي) والتي قدمت على مسرح البولشوى فى الاتحاد السوفيتى فى الذكرى الثلاثون لثورة أكتوبر ، تعتبرها رديئة وغير فنية سواء فى الموسيقى أو موضوع نصها .

تكن العيوب الأساسية للأوبرا قبل كل شيء فى موسيقاها فالموسيقى ضعيفة وغير معبرة فهى لاتتضمن أية نغمة أو لحن (أريا) يمكن تذكرها . وهى مشوشة وغير متألقة (نغميا) . وقائمة على التناقضات المعقدة ، وتوافق الأصوات التى تخترق الأذان . وبعض الخطوط اللحنية والمشاهد يتم قطعها فجأة تذرعا بعملية التلحين بتناقضات مزعجة غريبة كلية على الأذان الانسانية العادية ومحبطة للمستمع . ولايوجد أى ارتباط عضوى بين المصاحبة الموسيقية وتطور الأحداث على المسرح . أما الجانب الغنائى فى الاوبرا الكورال ، الأداء الفردى (صولو) ، غناء المجاميع - يعطى انطبعا يبعث على الرثاء كنتاج لكل ذلك ، ولم تستغل امكانيات الأوركسترا ولا المغنيين .

... تعتبر اللجنة المركزية للحزب أن فشل أوبرا

موراديلي نتاج للنهج الشكلي الذي اتبعه وهو النهج الزائف والضار بالعمل الابداعي للمؤلف الموسيقى السوفيتي .

أظهر مؤتمر الموسيقيين السوفيت الذي أدارته اللجنة المركزية للحزب ، أن فشل أوبرا موراديلي ليس حالة فريدة . انه وثيق الارتباط بالحالة الغير مرضية للموسيقى السوفيتية المعاصرة ، وبانتشار الاتجاه والنزعة الشكلية في صفوف المؤلفين الموسيقيين السوفيت .

منذ وقت بعيد في عام ١٩٣٦ م ، وبخصوص ظهور أوبرا «ليدى ماكبث» Lady Macbeth of Mtsenk لديمتري تشستا كوفيتش ، وجهت البرافدا لسان حال اللجنة المركزية للحزب نقدا حادا للانحرافات الشكلية الغير شعبية في موسيقاه ، وعرضت ضرر وخطورة هذا الاتجاه الشكى على مستقبل الموسيقى السوفيتية . كتبت البرافدا حينئذ بتعليمات من اللجنة المركزية ، وصاغت بوضوح مطالب الشعب السوفيتي من مؤلفيه الموسيقيين .

٠٠٠ تقرر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي :

١ - ادانة النزعة الشكلية في الموسيقى السوفيتية باعتبارها ضد الشعب وباعتبارها تقود بالفعل الى تصفية وتفريغ الموسيقى من قيمتها .

٢ - تقترح على ادارة الدعاية والتحريض الدعائي باللجنة المركزية ولجنة الفنون بأن يبذلوا قصارى جهودهم لتصحيح وضع الموسيقى السوفيتية ، وتصفية النقائص ، ونشر وتوضيح القرارات الحالية للجنة المركزية ،

وتدعيم وتأيد تطور الموسيقى السوفيتية فى اتجاه
الواقعية .

٣ - التصديق على القرارات التنظيمية التى خصصها الحزب
والهيئات السوفيتية فى اتجاه تحسين الشؤون
والقضايا الموسيقية .

قراءة رقم (٢١ ب)

الخط السياسي للحزب الشيوعي في الفن والأدب المسرحي (الدراما) *

... بمناقشة قضية الذخيرة والحصاد من المسارح
الدرامية repertoire واجراءات تحسينها ، تلاحظ اللجنة
المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي أن حالة العروض
المسرحية غير مرضية .

... ترى اللجنة المركزية للحزب أن لجنة الشؤون الفنية
اتبعت خطأ غير صحيح بتقديمها مسرحيات لمؤلفين مسرحيين
برجوازيين أجانب . وقام بيت نشر Iskusstvo بنشر
مسرحيات من فصل واحد لمؤلفين مسرحيين معاصرين من
انجلترا أو أمريكا بالاشارة لتعليمات من لجنة الشؤون
الفنية .

... تقرر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي :

١ - يلزم رئيس لجنة الشؤون الفنية الرفيق خريباتشينكو
khrapchenko بإلغاء القصص والأخطاء الخطيرة التي
وردت في القرار الحالي في أقصر فترة ممكنة .

(*) عن كتاب « بلد العيان » المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٢ .

٢ - تبعاً للمكانة المتميزة والدور العميق للمسرح فى تعليم الشعب السوفيتى ، تلزم لجنة الشؤون الفنية واتحاد الكتاب السوفيت بتركيز جهودهم لتلاصيح وخلق العروض المسرحية السوفيتية المعاصرة .

الخط السياسي للحزب الشيوعي في علم الاحياء *

... «قبل بداية القاء الخطاب الختامي» قال ليشنكو فلقد تساءلت : ماهو اتجاه اللجنة المركزية للحزب الشيوعي حيال الخطاب الذي ألقيته في هذه الدورة ؟ واجابتي : لقد فحصت اللجنة المركزية خطابي وناقشته وصدقت عليه ، «حول الموقف من علم الاحياء» .

... ولقد أشعل هذا الاعلان من جانب الرئيس حماسا جماعيا لدى أعضاء دورة الاجتماع . وفي اندفاع واحد هب كل الحاضرين من مقاعدهم واستغرقوا في عاصفة من التصفيق والتهليل لحياة اللجنة المركزية لحزب ليتين وستالين، وحياة القائد الحكيم ومعلم الشعب السوفيتي المعلم الأول لعصرنا ، الرفيق ستالين ...

لقد عرض الباحث الأكاديمي د . ليشنكو بأفكار واضحة وعميقة المحاولات اليائسة للعديد من ممثلي المدرسة الرجعية المتفسخة مدرسة مندل ومورجان ، محاولاتهم للدفاع عن مواقفهم في العلم . وفي نفس الوقت حدد المهام النضالية لعلم الاحياء في المستقبل القريب .

(*) نقل عن البرافدا عدد ١٠ أغسطس ١٩٤٨ م . ورد في كتاب « بلد العميان »

صدر سابق ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ .

يقول د - ليشينكو الرجل الأكاديمي «لا يوجد في العلم
أى مجال للمصادفة - وحقت الطبيعة والكيمياء نجاحات
مذهلة في تطورها لأنها أنكرت وتخلت عن تفسير الظواهر
الطبيعية بمنطق المصادفة - وينبغي أن يستفيد علم الأحياء
من هذه التجربة -

«تقوم النظرية المثالية لصبغيات Chromosoms الوراثة في
مجملها على المصادفة - وتخضع عملية الإخصاب للمصادفة
الخالصة - وتخضع عملية التهجين وانقسام الجينات للمصادفة -
وأسباب المتغيرات الوراثية غير معلومة وتخضع أيضا
للمصادفة - تسود المصادفة في كل مكان ومثل هذه النظرية
لا يمكن استخدامها كأساس لعلم الأحياء -

... يظهر الحزب رعاية أبوية هو والحكومة نحو تقوية
وتطور النزعة Mickurist في علمنا ، ولإزالة كل العقبات
من طريق ازدهاره التام - وذلك يحتم علينا تطوير العمل
بشكل أوسع وأعمق من أجل إنجاز مطالب الشعب السوفيتي
لتسليح الدولة والمزارع الجماعية بالنظرية العلمية
المتقدمة -

ينبغي علينا جددا وضع العلم والنظرية في خدمة الشعب
من أجل رفع مستوى محاصيل الحقول بسرعة أكبر والإنتاج
الحيواني أيضا ، ورفع إنتاجية العمل في الدولة وفي المزارع
الجماعية -

أطالب كل الأكاديميين ، العاملين في المجال العلمي ،
المهندسين الزراعيين ومربيى الماشية بالتعاون الوثيق مع
العمال التقدميين في اقتصاد الريف الاشتراكي ، بأن يوجهوا
كل طاقتهم لإنجاز هذه المهام العظيمة النبيلة - (تصفيق) -

العلم البيولوجى (الاحياء) التقدّمى مدين لعباقره
الانسانية لينين وستالين - مدين لهم لهذا : دخلت تعاليم
Michurin فى خزانة معرفتنا ، والى العلم كقاعدة ذهبية
(تصفيق) .

تحيا تعاليم Michurin تعاليم تحول الطبيعة العضوية
لصالح رفاهية الشعب السوفيتى . (تصفيق) . يحيا حزب
لينين وستالين لكشفه واظهاره مؤخرين . للعالم ولخلقه كل
الظروف فى بلدنا الضرورية لازدهار علم الاحياء المادى
المتقدم - (تصفيق) المجد لصديقنا العظيم وزعيم علمنا -
قائدنا ومعلمنا الرفيق ستالين !

(وقف جميع الحاضرين وصفقوا لمدة طويلة) .

الى محررى صحيفة البرافدا : أرجو نشر النص التالى
من تصريحى .

طالما أن حزبنا قد أدرك كلا الاتجاهين فى علم الوراثة
السوفيتى وطالما اعتبر الخلاف بينهما كمناقشة بناءة للقضايا
والمسائل النظرية فى العلم المعاصر تسهيلا لاكتشاف الحقيقة،
ولقد دافعت باصرار عن آرائى التى كانت تختلف من بعض
الوجوه مع آراء الأكاديمى د . ليشنكو . ولكن الآن ، طالما
أصبح واضحا لى أن المقولات الأساسية لمدرسة Michurin
فى علم الوراثة السوفيتى قد لاقت قبولا وتصديقا لدى
اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وباعتبارى عضوا فى
الحزب ، لايمكننى الدفاع عن مواقف أعلنت اللجنة المركزية
لحزبنا خطأها . (توقيع - A.R. Zhebrak) (. . .)

الخط السياسي للحزب الشيوعي في السيرك *

موسكو ٥ مارس - ذكرت صحيفة الفنون السوفيتية اليوم أنه قد لوحظ «نزعات برجوازية» رجعية في السيرك السوفيتي وأنه ينبغي كشف الأشخاص المسؤولين عن ذلك .

وقالت الصحيفة «بازاحة الستار تماما عن الباحثين الكوزموريوليتاني (ذوى الانتماءات ، غير الوطنية) والمديرين ذوى النزعات الشكلية الذين غرسوا النزعات البرجوازية في قلب السيرك السوفيتي . بذلك فقط يمكن للسيرك السوفيتي تحقيق نهضة جديدة وأن يصبح تعبيرا عبقريا عن القوة الروحية للشعوب التي تقطن بلادنا» .

ولقد ذيلت المقالة ذات الأعمدة الثلاث التي ظهرت في الفنون السوفيتية «لسان حال لجنة الفنون الجميلة ووزارة السينما ، بتوقيع نيكولاي بارزبلوفيتش - وهاجمت E. kuzhetsov الباحث والمؤلف وأعلنت أن أعماله «تمتدح بأسراف فن السيرك المتفسخ في البلدان الرأسمالية والذي يقدم مجموعات وجاذبية فارغة ايدولوجيا» .

(*) عن جريدة نيويورك تايمز ٥ مارس ١٩٤٩م . «روسيا تنهم السيرك»
النزعات البرجوازية .

رودولف (١) هلفردنج : رأسمالية دولة أم

اقتصاد دولة شمولي *

« واحد من أقدر الاقتصاديين الماركسية الارثوذكسي يحدد طبيعة الدولة السوفيتية »

● ... هل البيروقراطية «حقا» تحكم الاقتصاد (السوفيتي) وبالتالي الشعب ؟ في كل مكان ، وبشكل خاص في الاتحاد السوفيتي تتكون البيروقراطية من خليط لأكثر العناصر تنوعا . حيث ينتمى اليها موظفو الحكومة بالمعنى الضيق للكلمة (بدءا من الموظفين الصغار ، حتى الجنرالات ، وحتى ستالين نفسه) وأيضا مدراء كل أقسام الصناعة والموظفين بالبريد والسكك الحديدية . كيف يتسنى لهذه المجموعة المتباينة تحقيق حكم موحد ؟ ومن هم ممثلوها ؟

في الواقع ، ليست « البيروقراطية » حاملا مستقلا للسلطة . بل هي وفقا لتكوينها وبالمثل وظيفتها ، مجرد

(*) عن المجلة النقدية Modern Review يونية ١٩٤٧ م ونشر أصلا في مايو ١٩٤٠ م ، في الدليل الاشتراكي (الروسي) .

(١) رودولف هلفردنج (١٨٧٧ - ١٩٤١) مفكر ماركسي نمساوي ، تعاون مع السياسة الاقتصادية للحركة الاقتصادية الديمقراطية الألمانية ، تولى منصب وزير المالية مرتين ١٩٢٣ ، ١٩٢٨ . وحاول ترميم الوضع الاقتصادي لألمانيا دو نزياة ضرائب ولا تخفيض الأجور اغتاله النازيون (١٩٤١) ، ويمزى اليه أحيانا الفضل في إعطاء التحليل الجديد النوى للرحلة الامبريالية من الرأسمالية وسبقه في ذلك للينين . (المترجم) .

أداة فى أيدي الحكام الفعليين • وهى منظمة كتسلسل هرمى وخاضعة للسلطة التنفيذية وهى تتلقى الأوامر ولا تصدرها وكما حدد تاروتسكى فانه «يمكن التضحية بأى موظف على أيدي من هو أعلى منه تقليصا لأى نوع من الاستياء» وهؤلاء هم أرباب العمل الجدد ، والبديل للرأسماليين ! ولقد سفه ستالين هذه الخرافة عندما أمر بإعدام الآلاف من المدراء الصناعيين ضمن آخرين ابان التطهيرات الأخيرة •

ليست البيروقراطية هى التى تحكم ، بل من يعطيها الأوامر • وستالين هو الذى يعطى الأوامر للبيروقراطية الروسية • فلقد تقلد لينين وتاروتسكى السلطة ومعهم مجموعة مختارة من الاتباع الذين لم يكونوا أبدا قادرين على اتخاذ قرارات مستقلة كحزب بل ظلوا دائما أداة فى أيدي القادة ، عندما كان جهاز الدولة القديم يتعرض لانهايار • (ويصدق نفس الشيء مؤخرا على الأحزاب الفاشية والاشتراكية الوطنية) – وغيروا جهاز الدولة ليلائم حاجاتهم كحكام وقاموا بإلغاء الديمقراطية وشيدوا ديكتاتوريتهم الخاصة والتى تعتبر فى أيديولوجيتهم ، بل على أية حال فى الممارسة ، وتحدد «كديكتاتورية للبروليتاريا» وبهذا خلقوا الدولة الشمولية الاولى – حتى قبل اختراع هذا الاسم • وواصل ستالين انجازه المهمة ، بازاحة منافسيه باستخدام جهاز الدولة واقامة ديكتاتورية فردية غير محدودة •

وتنبع من هذه الحقيقة نتائج اقتصادية هامة • فجوهر الدولة الشمولية هو الذى يخضع الاقتصاد لأهدافها • ويصبح الاقتصاد مجردا من قوانينه ، ليصبح اقتصادا موجهًا **controlled economy** • وبمجرد أن يكتسب ذلك التوجيه

فاعليته ، يحول اقتصاد السوق الى اقتصاد مستهلكين .
وحينئذ تقرر الدولة طابع ومدى الحاجات . ويمدنا اقتصاد
ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية بالدليل على حقيقة أنه
بمجرد بدء ذلك التوجيه في دولة شمولية ، فإنه ينتشر
ويتغلغل بسرعة وينزع نحو احكام قبضته كاملا كما هو الحال
في روسيا من البداية المبكرة . وبرغم اختلاف نقاط الانطلاق
للنظام الاقتصادي للدول الشمولية الا أنها تمشي في مسار
ملاصق لبعضها البعض . ففي ألمانيا أيضا ، تناضل الدولة
للمحافظة على سلطتها وتقويتها فتقرر طابع الانتاج
والتراكم . فتفقد الأسعار وظيفتها المعهودة وتصبح مجرد
وسائل للتوزيع وينضع الاقتصاد ومعه دلائل الأنشطة
الاقتصادية للدولة بدرجة أو بأخرى ليصبح تابعا لها ويفقد
الاقتصاد الأولوية التي كان يتمتع بها في ظل المجتمع
البرجوازي . ولايعنى ذلك بأية حال عدم وجود تأثير ضخم
للدوائر الاقتصادية على السلطة الحاكمة في ألمانيا وبالمثل
في روسيا . بل يعنى أن تأثيرها مشروط ، ذو حدود وليس
حاسما بالاشارة لجوهر السياسة . والسياسة تتقرر من خلال
دائرة صغيرة من أولئك الذين يتبوأون عرش السلطة .
والذى يقرر السياسة التي يفرضونها كقانون على الاقتصاد
التابع والخاضع للدولة هو مصالحهم وأفكارهم وماهو ضرورى
للمحافظة وتنمية وتقوية سلطتهم الخاصة . وهذا هو السبب
لاكتساب العامل الذاتى ، طابع التطور السياسى
«اللاعقلانى» و «الغير ممكن التنبؤ به» تلك الأهمية في
السياسة .

كما يتجسد الايمان الراسخ فقط في الجنة والنار
باعتبارهم قوى قدرية ، كذلك اعتقاد المتعصب الماركسى فقط
في الرأسمالية والاشتراكية وفي الطبقات - البرجوازية

والبروليتاريا • ولن يقدر المتعصب الماركسى على ادراك فكرة أن سلطة الدولة فى العصر الحاضر قد حققت استقلالية وبسطت قوتها الهائلة ، وتخضع القوى الاجتماعية تبعاً لقوانينها هى وتجبرها على خدمة غاياتها لفترة زمنية طالت أو قصرت •

لذا فلا النظام الروسى ولا النظام الشمولى يعهددهما طبيعة الاقتصاد • بل على العكس فان الاقتصاد هو الذى تقرر به سياسة السلطة الحاكمة ويخضع لأهداف وأغراض هذه السياسة فالسلطة الشمولية تحيا بالاقتصاد وليس من أجل الاقتصاد أو حتى لاجل اقتصاد الطبقة الحاكمة - كما هو الحال فى الدولة البرجوازية ، رغم أنها (كما يستطيع أى طالب فى دراسة السياسة الخارجية أن يدرك) قد تسعى وتنهمك لأهداف خاصة بها • وربما نجد نظيراً للدولة الشمولية فى عصر الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، فى نظام الأباطرة وامبراطورياتهم •

بالطبع ، من وجهة نظر الديمقراطية الاشتراكية يمكن بالكاد اعتبار الاقتصاد البلشفى «اشتراكياً» فبالنسبة لنا تعد الاشتراكية والديمقراطية عروة وثقى لا انفصام لها • ووفقاً لمفهومنا تتضمن عملية تأمين وسائل الانتاج تحرير الاقتصاد من حكم طبقة واحدة وجعلها للمجتمع ككل - المجتمع الذى يحكم ذاتياً وبأسلوب ديمقراطى • ولم نتصور أبداً أن الشكل السياسى لذلك «الاقتصاد المخطط» الذى كان عليه أن يحل محل الانتاج الرأسمالى للسوق الحرة ، يمكن أن يصبح استبداداً مطلقاً • وتتبدى لنا العلاقة والترابط بين الأساس الاقتصادى والبناء السياسى علاقة محددة جداً : بالتحديد ، أن المجتمع الاشتراكى سيدشن أسماً تحقيق

لديمقراطية • حتى أولئك الذين يعتقدون بيننا أنه قد يكون ضروريا أو حتميا التطبيق الصارم للسلطة المركزة في فترة الانتقال ، يعتبرون هذه الفترة مؤقتة فقط وفي سبيلها للانهاء بعد إخضاع وقمع الطبقات التي تم تجريدها من ممتلكاتها ، وسيختفى حكم الطبقة مع اختفاء الطبقات - حكم الطبقة الذي تعتبره الشكل الوحيد الممكن للحكم السياسي عموما • «الدولة ستلاشى وتندثر» •

لكن التاريخ ذلك الشيء «المفضل لدى كل الماركسيين قد علمنا غير ذلك • لقد علمنا أن «إدارة الأشياء» رغم توقعات انجلز ، ربما تتحول الى «إدارة أفراد» غير محدودة ، وبذلك لاتقود فقط الى تحرر الدولة من الاقتصاد بل حتى تؤدي الى إخضاع الاقتصاد للدولة •

بمجرد إخضاع الاقتصاد للدولة ، يعمل على حماية وتثبيت الوجود المستمر لذلك الشكل للحكومة • حقيقة أن تلك النتيجة تنبع من موقف استثنائي أوجدته الحرب لأول مرة لاتحول دون التحليل الماركسي ، بل تُلغى بشكل ما مفهومنا المبسط والمبرمج عن الترابط بين الاقتصاد والدولة وبين الاقتصاد والسياسة التي تطورت في فترة مختلفة كلية • وأدى ظهور الدولة كسلطة مستقلة لتعميق أوسع للتشخيص الاقتصادي لمجتمع تلقبه فيه السياسة (الدولة) دورا ملزما وحاسما •

لهذا السبب ، يبدو لي أن النزاع حول ما اذا كان النظام الاقتصادي للاتحاد السوفيتي «رأسمالي» أو «اشتراكي» خلافا فارغا • فهو لا هذا ولا ذاك • لانه يسد اقتصاد دولة شمولية، أى النظام الذى تقترب منه أكثر وأكثر التصاقا اقتصاد ألمانيا وإيطاليا •

قراءة رقم (٢٣)

أهداف ومهام الاشتراكية الديمقراطية

«البيان التالي صاغته الدولية الاشتراكية في فرانكفورت، ألمانيا عام ١٩٥١ م . ويشير الى التأكيد المتجدد على الديمقراطية باعتبارها حجر الزاوية لغايات ووسائل الاشتراكية» .

● لقد أصبحت الاشتراكية قوة عظمى فى الشؤون الدولية . فلقد عبرت المرحلة الدعائية والى مرحلة التطبيق . فلقد أرسى أساس المجتمع الاشتراكى فى بعض الأقطار . حيث اختفت شرور وأثام الرأسمالية وتقدمت الجماعة بفاعلية متجددة . وأثبتت المبادئ الاشتراكية قيمتها فى الحركة والممارسة .

.. فى أقطار عديدة ، أخلت الرأسمالية: الحرة مكانها لاقتصاد تحدد فيه تدخلات الدولة والملكية الجماعية مدار الرأسماليين . ويتزايد عدد المدركين للحاجة للتخطيط . اكتسبت الضمان الاجتماعى والنقابية الحرة والديمقراطية الصناعية أرضا جديدة .

... تدعى الشيوعية زيفا وادعاء بحصة فى التقاليد الاشتراكية . وفى الواقع أنها شوهدت وجرفت هذه التقاليد

دون تمييز . وأقامت لاهوتا صارما غير متسق مع الروح
النقدية للماركسية .

... والشيوعية الدولية هي الأداة للدولة الامبريالية
المجددة . أينما تبوات عرش السلطة دمرت الحرية أو الفرصة
للحصول عليها . فهي تقوم على البيروقراطية المشبعة بالروح
العسكرية والشرطة الارهابية . وخلقت مجتمعا طبقيا جديدا
جديدا باظهارها لتناقضات فاضحة في الثروة والامتيازات .
ويلعب العمل الاجبارى دورا هاما في تنظيمها الاقتصادي .
يناضل الاشتراكيون لبناء مجتمع جديد للحرية
وبالوسائل الديمقراطية .

بدون الحرية لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية . ويمكن
انجاز الاشتراكية من خلال الديمقراطية فقط . والديمقراطية
يمكن بلوغها بأكملها من خلال الاشتراكية فقط .

● تتطلب الديمقراطية حق تعدد الأحزاب ووجود حق
المعارضة . ولكن للديمقراطية حق وواجب الدفاع عن نفسها
ضد أولئك الذين يستغلون فرصها فقط لتدميرها . فالدفاع
عن الديمقراطية السياسية مصلحة حيوية للشعب . والحفاظ
عليها شرط لتحقيق الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية .

... كل ديكتاتورية ، أينما توجد ، هي خطر على حرية
الأمم ولذا على السلام العالمى . أينما يوجد استغلال غير
مقيد للعمل الاجبارى ، سواء فى ظل الرأبعية الخاصة ، أو فى
ظل الديكتاتورية السياسية ، فانه يشكل خطرا على المستويات
المعيشية والأخلاقية لكل الشعب .

... تبحث الاشتراكية عن استبدال الرأسمالية بنظام
تتخذ فيه المصالح العامة أولوية على مصلحة الفائدة الخاصة .

والأهداف الاقتصادية الآتية للسياسة الاشتراكية هي العمالة الكاملة للجميع ، انتاج أعلى ، مستوى معيشة مرتفع ، ضمان اجتماعي وتوزيع عادى للدخول والملكية .

... يمكن تحقيق التخطيط الاشتراكي بوسائل عديدة .
وينبغى أن يحدد بناء المجتمع المعنى مدى الملكية العامة وشكل التخطيط الذى سيطبق .

... ويمكن للملكية العامة اتخاذ شكل التأمين للمؤسسات الخاصة الموجودة أو خلق مؤسسات عامة جديدة ، ومؤسسات محلية أو اقليمية وتعاونيات للمستهلكين أو المنتجين .

... وينبغى عدم اعتبار هذه الأشكال المتعددة للملكية العامة كفايات فى ذاتها بل كوسائل للتحكم فى الصناعات والخدمات الأساسية وتوجيهها والتى يعتمد عليها الحياة الاقتصادية ورفاهية الجماعة ، ووسائل لعقلنة الصناعات الغير فعالة أو منع الاحتكارات الخاصة واتحادات أصحاب الأعمال Cartel من استغلال الشعب .

.. لايفترض التخطيط الاشتراكي مسبقا الملكية العامة لكل وسائل الانتاج . بل يتسق مع وجود الملكية الخاصة فى المجالات الهامة ، على سبيل المثال فى الزراعة ، الصناعات اليدوية تجارة التجزئة والصناعات الصغيرة والمتوسطة .
وينبغى للدولة أن تمنع أصحاب الملكيات الخاصة من اساءة استخدام سلطاتهم . ويمكنها ويجب أن تساعد على المساهمة فى زيادة الانتاج والوجود الأفضل فى اطار الاطار العام للاقتصاد المخطط .

... بينما المبدأ الموجه للرأسمالية هو الفائدة والربح

الخاص ، فان المبدأ الموجه للاشتراكية هو اشباع الحاجات
الانسانية .

... تعنى الاشتراكية ماهو أكثر من كونها نظاما
اقتصاديا واجتماعيا فالتقدم الاقتصادى والاجتماعى له قيمة
أخلاقية يقدر مايوظف لتحرير وتطوير الشخصية الانسانية .

... تناضل الاشتراكية لتحرر البشر من المخاوف
والقلق التى تلازمها كل صور عدم الاستقرار السياسى
والاقتصادى - وسيفتح هذا التحرر الطريق نحو التطور
الروحى للبشر الواعين بمسؤولياتهم ونحو التطور الثقافى
للشخصية الانسانية المكتملة . فالاشتراكية عامل فعال فى
تدعيم هذا التطور والتقدم الحضارى .

... والاشتراكية الدولية أممية لانها تهدف الى تحرير
كل البشر من كل أشكال العبودية الاقتصادية والروحية
والسياسية .

... والاشتراكية الديمقراطية عالمية لانها تدرك أنه
ليس بإمكان أية أمة أن تحل كل مشكلاتها الاقتصادية
والاجتماعية بمفردها .

... ينبغى التسامى فوق السيادة القومية المطلقة .
يمكن للمجتمع العالمى الجديد الذى يناضل لاجله الاشتراكيون
أن يتطور كلية فى ظل السلام لو بنى فقط على التعاون
الاختيارى بين الأمم . ينبغى أن تقوم الديمقراطية لهذا على
ميزان دولى فى ظل حكم عالمى للقانون الذى يكفل الحرية
القومية وحقوق الانسان .

فهرس

٧	• • • • •	مقدمة للمؤلف	-
٩	• • • • •	مقدمة	-
		الباب الأول	-
١٣	• • • • •	ماركس والماركسيون	-
		الفصل الأول	-
١٥	• • • • •	اسهامات كارل ماركس	-
		الفصل الثاني	-
٥٥	• • • • •	تقييم اسهامات ماركس	-
		الفصل الثالث	-
٧٦	• • • • •	الماركسية السلفية (الارثوذكسية)	-
		الفصل الرابع	-
١٠٣	• • • • •	التصحيحية التحريفية	-
		الفصل الخامس	-
١٢٠	• • • • •	لينين	-
		الفصل السادس	-
١٤٦	• • • • •	ليون تاروتسكى فى سبيل الدفاع	-
		الفصل السابع	-
١٥٩	• • • • •	روزا لوكسمبورج	-
		الفصل الثامن	-
١٧١	• • • • •	ستالين	-
		الفصل التاسع	-
١٩٤	• • • • •	الماركسية فى العصر الحاضر	-

- الباب الثاني

- ٢٠٧ قراءات مختارة
- قراءة (رقم ١)
- ٢٠٩ ماركس وانجلز : البيان الشيوعي
- قراءة (رقم ٢)
- ٢١٨ كارل ماركس : المادية التاريخية
- قراءة (رقم ٣)
- ٢٢٢ كارل ماركس : تقديس السلعة ولغزها
- قراءة (رقم ٤)
- ٢٣١ كارل ماركس : النزعة التاريخية للتراكم الرأسمالي
- قراءة (رقم ٥)
- ٢٣٤ كارل ماركس : الدين والاقتصاد
- قراءة (رقم ٦)
- ٢٣٦ كارل ماركس : فى التقاليد الشخصية - الفردية ، والقوى الطبقة
- قراءة (رقم ٧)
- ٢٤٤ فردريك انجلز : الاشتراكية العلمية فى مواجهة الاشتراكية
الطوباوية
- قراءة (رقم ٨)
- ٢٤٩ كارل كاوتسكى : تأثير نمط الانتاج
- قراءة (رقم ٩)
- ٢٥٤ جورج بليخانوف : الفرد فى التاريخ
- قراءة (رقم ١٠)
- ٢٦٠ دانييل دى ليون : النقابية الصناعية والجمهورية الاشتراكية
- قراءة (رقم ١١)
- ٢٦٥ ادوارد برنشتاين
- قراءة (رقم ١٢)

- جان جوريس ، المثالية والتاريخ ٢٧٠
- قراءة (رقم ١٣)
- لينين : الدولة والثورة ٢٧٣
- قراءة رقم (١٣ أ)
- لينين : العمال ٢٧٦
- قراءة (رقم ١٤)
- لينين : المنظمة الشيوعية والاستراتيجية ٢٨٠
- قراءة رقم (١٤ أ)
- لينين : حول توجيه الانتقادات الطائشة ٢٨٨
- قراءة رقم (١٤ ب)
- لينين : حول الاخلاق الشيوعية ٢٩١
- قراءة (رقم ١٥)
- ليون تاروتسكي : الثورة الدائمة ٢٩٤
- قراءة (رقم ١٦)
- كارل كاوتسكي : الارهاب والشيوعية ٢٩٨
- قراءة (رقم ١٦ أ)
- ليون تاروتسكي : في الدفاع عن الارهاب ٣٠٢
- قراءة (رقم ١٧)
- روزا لوكسمبرج : الاشتراكية والعملية الديمقراطية ٣٠٧
- قراءة (رقم ١٨)
- جوزيف ستالين : الاشتراكية في قطر واحد ٣١١
- قراءة (رقم ١٩)
- ليون تاروتسكي : نقد نظرية الاشتراكية في قطر واحد ٣١٤
- قراءة (رقم ٢٠)
- جوزيف ستالين : الظهور المتجددة للدولة ٣٢١
- قراءة (رقم ٢١)
- الحط السياسي للحزب الشيوعي في الثقافة : الأدب ٣٢٥
- قراءة (رقم ٢١ أ)

- الخط السياسى للحزب الشيوعى فى الموسيقى ٣٢٨
- قراءة رقم (٢١ ب)
- الخط السياسى للحزب الشيوعى فى علم الاحياء ٣٣٣
- قراءة رقم (٢١ ج)
- الخط السياسى للحزب الشيوعى فى علم الاحياء ٣٣٣
- قراءة (رقم ٢١ د)
- الخط السياسى للحزب الشيوعى فى السيرك ٣٣٦
- قراءة (رقم ٢٢)
- رودولف (١) هلفردنج : رأسمالية دولة أم اقتصاد دولة شمولى ٣٣٧
- قراءة (رقم ٢٣)
- اهداف ومهام الاشتراكية الديمقراطية ٣٤٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٨٩ / ١٩٨٦

ISBN ٨ - ١١٣٦ - ٠١ - ٩٧٧ -

إهداءات ٢٠٠٣

الأستاذ/محمد سعيد الجميوني

يتناول هذا الكتاب تطور الفلسفة الماركسية التي تعد - كما يقول المؤلف - من أهم الفلسفات المعاصرة وأكبرها إثارة لردود الفعل والمواقف المتباينة ، ويحمل تاريخ تطورها مفارقات عديدة حيث انتهت إلى كونها عقيدة فلسفية تسعى جامعة لاحتلال موقع الدين وأداء دوره ، فاستخدمت بكثير من النظريات العلمية .

وهذه الترجمة تعتمد على نقد نظريات ماركس وإتباعه من الرواد والأعلام الماركسيين باختلاف نحلهم وفصائلهم ، بإظهار التناقضات والتناقضات الداخلية في بناء النظرية الماركسية ، والاستناد إلى ما آلت إليه الممارسة الفعلية

Bibliotheca Alexandrina



0388079



٣٠٠ قرش